هذه الرواية حائزة على «جائزة كتارا للرواية العربية 2016»

«فئة الروايات غير المنشورة»

كتارا
katara
جائزة كتارا للرواية العربية

ظلُّ الأميرة

رواية

المؤلف: **مصطفى الحمداوي**

عدد الصفحات: **380 صفحة**

رقم الإيداع: HHH

الرقم الدولي: **(ردمك)**

HHH

الطبعة الأولى: **2017 م**

جميع الحقوق محفوظة للناشر

كتارا
katara

قطر، الدوحة، المؤسسة العامة للحي الثقافي «كتارا»، مبنى 22، ص. ب: 22899

هاتف: 0097444080463 | فاكس: 0097444080479

البريد الإلكتروني: novel@katara.net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص قرائية أو أي وسيلة نشر أخرى، أو حفظ معلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

«إذا كانت لنا غاية في هذه الدنيا
فهي أن يعيش البشر كافة،
مهما كانت عقائدهم وأديانهم وأجناسهم،
في سلام وأخوّة»

عبد الكريم الخطابي

المقاطع الشعرية التي تسبق كل فصل

هي للشاعر الروماني «أوفيد»[1]

من كتاب «قيثارة حب»، إصدار المجمع الثقافي، أبو ظبي، ترجمة وتقديم علي كنعان، طبعة 2003.

(1) ببليوس أوفيديوس ناسو، المعروف بلقب «أوفيد»: شاعر روماني ولد في 20 مارس سنة 43 قبل الميلاد.

والصيدُ هناك أوفرُ من جرأتك على الأمل.

وهناك ستحظى بسيدةٍ أو دُمية،

فلا تلمسها إلا مرة واحدة أو ستكون بهجة دائمة.

كالنمال التي تسارع جيئة وذهابًا في قافلة لا نهائية،

لتُحضر إلى بيتها حملها المألوف من الحبوب.

وكأسراب النحل الطائرة فوق الأزهار وأوراق الزعتر،

وسط منفرجات الغابة الأثيرة والمروج العطرة،

هكذا تحتشدُ الأسراب المتأنِّقة لتلهو.

إن هذه الوفرةَ من الاختيار تجعل الارتيابَ يطول،

يأتون ليمتِّعوا أنظارهم وليتمتَّع الآخرون بمرآهم كذلك.

آه أيتها الفضيلةُ، أنت في ورطة لا خلاص منها.

أوفيد

ضعها في المقدمة،

أسيرة حزينة وشعرُها منفوش

وهي شاحبةٌ تماما باستثناء الكدماتِ على وجهها.

وكان ينبغي على شفتيَّ أن تحدثا تلك الكدمات؛

كان على عضَّات الحبِّ أن تترك ذلك الأثر.

التي ترى

دوَى الرعدُ في أسفل الجبل؛ فسقطَ مطر غزير، وغمرت المياهُ كوخ السيدة جيزيا، فسبحت ضفادع وثعابين في البرك الصغيرة التي تكونت داخل الفناء. وحط على الكوخ المبني بالقصب والقشّ والعيدان سرب من طيور سود ظلّت واجمة. نظرت السيدة جيزيا العارية من خلال الكوة الغربية؛ فرأت لونًا دمويًا يلطخ وجه السماء، وأشعة شمس تهرب بقلق إلى الغروب.. تطلق وهجًا كئيبًا ارتجت له مسامّ جلد جسد السيدة العاري المترهل. وكان كل شيء أحمر كالدم يشبه حلماً مزعجًا تكرّر أمامها قبل أن تشعر أنه يكاد يصبح حقيقة.

أشعلت السيدة جيزيا نارًا وسط فناء الكوخ، ولطخ ضياء اللهب الجدران بظلال مضطربة؛ فانعكست صور لأشكال عجيبة

على المرآة المتشققة التي وقفت قبالتها السيدة، وظهر وجهها مهيبًا، وتشنجت عضلات وجنتيْها، وأُسدل شعرها المصبوغ بألوان مختلطة تشبه ألوان الطيف، وغطّت بعض خُصَله وجهها الذي يروي تفاصيل جمال أمازيغي باهر، ولكنه جمال عتيق وخامد كبركان مسالم. أطلقت السيدة جيزيا صوتًا مفزوعًا ارتجّت له أركان الكوخ، وتدفقت بعض المياه من البرك الصغيرة في الفناء. ثم رفعت يديها إلى السماء، وبدأت ترقص.

تلبدت السماء مرة أخرى بغيوم مفاجئة، وسقط مطر غزير؛ فانطفأ اللهب، وتصاعد الدخان الممتزج بقطرات المطر. أخذت السيدة جيزيا ترقب انطفاء وهج الشمس وسط حلكة الظلام. قالت بصوت خافت، ولكنه كان صوتًا حادًا كرأس رمح، فاهتزت جدران الكوخ الصغير، وارتجت برك الماء التي أصبحت أكثر اتساعًا، حتى إن ماءَها ولج حجرة السيدة جيزيا:

- إنني أراهم.. إنهم قادمون من وراء البحر، وسوف تغوي شقراء رومانية فاتنة أحد أجمل فتيان الأمازيغ وأذكاهم، في بلدة دريو، وسوف يتبعها في الأخير، وسوف يواصل هؤلاء الغرباء سيرهم، بعد عبور مدينتنا، إلى أن يصلوا مملكة فتيّة وسط بلاد الأمازيغ.

ما إن توقف المطر حتى سارعت السيدة جيزيا إلى البركة التي انحسر ماؤها؛ فشرعت تقبض على بعض الثعابين والضفادع. مزقتها بأظفارها، ولطخت بدمائها جسدها المجعّد المثير. فحضرت

روح سـيفاو، بشـعره الطويـل، ووجهـه القديـم، ولحيتـه البيضـاء؛ ليغمرهـا بفحولتـه الماحقـة. ارتجـت مـن الأعـماق، وكسّرت بشـهقات ذُروة نشـوتها الحـادة بعـض أعمـدة القصـب المنخـورة، ثـمّ نامـت وسـط بركـة ضحلـة، متلفعـة بـدفء طيـف سـيفاو الـذي زارهـا بروحـه الكبـيرة، ورحـل إلى عوالمـه الغيبيـة بعـد أن كانـت السـيدة جيزيـا قـد غرقـت في نـوم هـادئ وعميـق.

ابتسمي الآن لمغامرتي،

أيتها الإلهة الساحرة،

وأفعمي بالدفء قلبَ حبيبتي الجديدة لتسمح لي بحبها.

الرومانية الحسناء

حدث ذلك في خريف أصفر شاحب، من سنة مترددة من تلك السنوات العصيبة التي مرت على بلاد الأمازيغ بعد زمن طويل من اجتياح الرومان لبعض المناطق الخصبة المحاذية لبحر ماره نوستروم[1] على الساحل الإفريقي. وكانت قد بُنيت مدن صغيرة وبلدات، على الطراز الروماني الكلاسيكي، في مناطق متفرقة وبعيدة عن بعضها، على غرار بلدة دريو، ومدينة أرتو[2]. وأصبحت في الأخير تلك البلدات والمدن شبه مستقلة عن الإدارة المركزية في روما، وازدهرت التجارة على امتداد الساحل الشمالي لبلاد الأمازيغ المحتلة. واندلعت طموحات في مملكة ماسيسيليا[3] في محاولة للتمدد

(1) *بحر الروم، Mare Nostrum، وهو الاسم القديم للبحر الأبيض المتوسط.*

(2) *دريو، أرتو، أشتين: مدن وبلدات متخيَّلة.*

(3) *ماسيسيليا: مملكة أمازيغية تأسست قبل الميلاد بين الغرب الجزائري وشرق المغرب.*

وطرد الوجود الروماني من المنطقة، وأرسل الرومان تعزيزات لإخماد تلك الثورات، ورست سفن عسكرية ضخمة في مرفأ قديم على الساحل الجنوبي لبحر ماره نوستروم، وكانت تلك السفن الشراعية محملة بأعداد كبيرة من الجنود يترأسهم قائد عسكري محنك خاض الكثير من المعارك، ولم يخسر منها معركة واحدة، اسمُه أورليوس سيبيو. استقرت القافلة الكبيرة قرب نهر غير بعيد عن الساحل، واستراحت لأيام، وكان جل الجنود وقادتهم يصطحبون معهم أسرهم؛ فالرحلة إلى إفريقيا ليست رحلة لمعركة واحدة، بل لكسب الحرب، والاستقرار لحراسة مناطق النفوذ الروماني، وكسر شوكة الثوار الأمازيغ.

انطلقت سانيس، الفتاة اليافعة ابنة القائد العسكري أورليوس سيبيو، ذات الاثنتي عشرة سنة، تمرح على ضفة النهر صحبة والدها ووالدتها والخادمة بيرينة. كانت جذلة، وتشعر بسعادة غامرة لوجودها في مكان تكتشفه لأول مرة. وكان رأي والدها، القائد العام للجيش، قد استقر على أن يترك أسرته في مدينة أرتو الهادئة، ثم يمضي بجنوده للقضاء على ثوار مملكة ماسيسيليا ليعود ثانية ليستقر في مدينة أرتو.

بعد استراحة كافية، انطلقت القافلة محملة بالزاد والمؤونة، على أن تصل بعد حوالي شهر إلى بلدة دريو؛ لتتزود بالطعام والكلأ وباقي الحاجيات الأخرى قبل أن تواصل سيرها نحو مدينة أرتو. وتهادت القافلة في سيرها، وعبرت الغابات والجبال والوديان إلى أن

وصلت أخيرا إلى بلدة دريو، وحطت رحالها ليس بعيدا عن غابة الكستناء الكثيفة والنهر الصغير الذي تحفه صخور رمادية متشققة مكسوة بالأعشاب وبعض النباتات الصغيرة.

منع القائد أورليوس سيبيو جيشه من دخول البلدة دفعة واحدة، أو في جماعات كبيرة، وأمر أن يدخل البلدة، وسوقها بالخصوص، ستون جنديا في اليوم على الأكثر حتى لا تحدث بلبلة أو زعزعة للنظام العام في البلدة الصغيرة، التي يقطنها لفيف كبير من المستوطنين الرومان في تعايش غير عادل مع السكان الأصليين الأمازيغ.

خصّص حاكم بلدة دريو السيد مونسو استقبالا استثنائيا للقائد العسكري أورليوس سيبيو، وأحسن ضيافته، وأقام له وليمة عظيمة، وأمر بِشَيِّ مائة وخمسين ماعزا للجنود وأسرهم، ووزع عليهم الخبز والعسل بسخاء. وانتعشت التجارة في دريو خلال المدة القصيرة التي قضاها جنود الروم في البلدة، وتوجه القائد أورليوس سيبيو وزوجُه وابنته سانيس -في زيارة ترفيهية- إلى السوق، وتجوّلوا على باعة المشغولات اليدوية والحلي الفضية والأواني الفخارية، ومروا عبر بوابة السوق. وفجأة رأت سانيس فتى أمازيغيا يافعا، في كامل نضج مراهقته، يشتغل بائعا للكستناء المشوي، بهرها بالبهاء والجاذبية التي تحيطه. كانت وسامته لافتة، أبيض البشرة، ولون حاجبيه وشعره أسود فاحم، يرتدي ملابس بدت لسانيس غريبة، ولكنها أضفت رونقا بديعا على قامته المنتصبة كشجرة شامخة.

ركضت نحوه، ثم نظرت إليه، وتلاقت عيناهما فجأة وكأن وميض برق حادّ اشتعل بينهما. شُدِهَ الفتى بائع الكستناء، وهو يرى أمامه فتاة رومانية شقراء، تفاحية الوجه، تتفجر أنوثتها الطفولية بخجل، وترتدي لباسا أنيقا غير مألوف عند الفتيات الرومانيات في المنطقة. ابتسما لبعضهما في اللحظة نفسها، وسرت في أعماقهما رجّة دغدغت مشاعرهما البريئة. أخذ أنير سلةً صغيرةً، وملأها بالكستناء المشوي، وسلمها للفتاة:

- هدية إلى زائرة رومانية جميلة.. ولكنها عابرة مع الأسف.

- شكرًا، ليس لديّ ما أقدّمه لك في مقابل هذه الهدية اللطيفة، ولكنني أخبرك بشيء.. إذا زرتَ مدينة أرتو يوما، قد نلتقي هناك.. اسمي سانيس.. أنا ابنة قائد الجيش أورليوس سيبيو.

شتتت ابتسامة فاتنة في وجهه، وانسحبت تمشي مشية ملكة طفلة.

كان المعلم العجوز ماسين يجلس شاردا بجَنْب الفتى بائع الكستناء. وحين غادرت الفتاة الرومانية، تابعها بنظرات مشدوهة، ثم قال بصوت خافت وكأنه يحدّث نفسه:

_ هذه الفتاة يجب أن تصبح أميرة، وعلى يديْها قد تشرق الشمس على بلاد الأمازيغ.. وقد يدفن في ظلها بطل أمازيغي!

لم يفهم الفتى اليافع أنير مدلول كلام المعلم ماسين، ولكنه أدرك أن لهذا الكلام عمقا لن يتيسر له فهمه إلا بعد أن يستوعب الكثير

مـن العلـوم. وكان بجنـب المعلـم ماسـين السـيد أفـولاي، تاجـر الملـح، يجلــس عــلى كيــس كســتناء نيّــئ، وكان غارقــا في موجــة عجيبــة مــن الدهشــة.. دارت كلـمات المعلـم ماسـين في رأسـه كأزيـز نحـل مسـتفزّ، ولكنــه لم يعثــر عــلى شيء يقــوده إلى فهــم كلام المعلــم.

شَــعَر أنــير بخــواء بعــد انــصراف الفتــاة الرومانيــة. وبعــد مغــادرة القافلــة بلــدة دريــو، بــدا وكأن حنينــا دائــما ســيجره نحــو الفتــاة، إلى درجــة أنــه توقــف عــن بيــع الكســتناء في بــاب الســوق مُــدّةً تزيــد عــن ثلاثــة أشــهر تقريبــا، واعتكــف في كهــف قريــب، وانقطــع للقــراءة والنهل مــن المخطوطــات التــي اســتعارها مــن المعلــم ماســين، ولكــن طيــف الفتــاة الرومانيــة الشــقراء ظــل يُــلازم ذهنــه، ولم يفارقــه أبــدا.

رأيت حلما، وكنت خائفا

هناك.. تحت تلٍّ مشمس تنتصبُ

غابة من البلوط الأخضر تكتظ بالجذوع،

وكانت أغصانها تُواري كثيرًا من الطيور.

شهوة السفر

تساقط في ضحى كئيب ضباب رمادي كثيف على بيوت بلدة دريو الطينية الصغيرة المتناثرة على سفوح التلال الصخرية شمالًا، والغابة الكثيفة جنوبًا. وصادف في ذلك الضحى، كما العادة، تَجوال كوكبة من حرس الرومان المشاة وسط السوق، وقد ملأت أنوفَهم رائحةُ ثمار كستناء تضوع في الأجواء بشذا فوّاح. وَجَّه رئيسُ الكوكبة فورًا رُفقاءَه ناحية باب السوق، فرأوا أنير وسط دخان يتصاعد من مِجْمَر يشوي فيه الثمار الناضجة المشهوة، وقد تجمّع حوله بضعة رجال أمازيغ من أعمار مختلفة، تفرّقوا بمجرد رؤيتهم الحرسَ. واصل أنير شيَّ ثمرات الكستناء، وهو يُدندن بأغنية شعبية مفعمة بالحيوية. تحلّق الحراس حول العربة، ثم شرعوا في تناول الثمار اللذيذة بنهم. واستمر أنير يشوي الكستناء بإتقانه ومهارته

المشهورة، غير مكترث بزواره الثُقَلاء الذين انهمكوا في الأكل، وهم صامتون. وبعدما أنهى رئيس الحرس التهام آخر ثمرة كستناء، نظر إلى أنير، ثم خاطبه بنبرة حادّة:

- لطالما حذّرْناك من الاجتماع بتلك الفئة من بُلْهِ الناس.

ارتسمت ابتسامة هادئة على تقاطيع وجه أنير الطافح بوسامة أمازيغية أصيلة:

- إنهم مسالمون.. وحكماء أيضًا.

فتل قائد الحرس، بسبابته وإبهامه، شاربه الرث الملطخ بلون الصدأ، وقال:

- حسنًا، يبدو أنك شخص عنيد كجحش أيها البربري القذر!

نظر إليه أنير، محافِظًا على هدوئه التامّ:

- سأعتبر كلامك مجرد مزحة ظريفة.

ثم أضاف باسمًا:

- مزحة ظريفة من روماني ظريف ولطيف.

تراجع قائد الحرس خطوة إلى الوراء، وبدا أنه اسْتُفِزَّ على نحو مثير، ثم ركل العربة بوقاحة صادمة؛ فتناثر الكستناء النيئ والمشوي، على الأرض، وسقط المجمر، وانكفأت العربة الخشبية العتيقة، وكاد الجمر يلامس قدمي أنير لولا أنه قفز متراجعا إلى الوراء، ووقعَ على الجمر أحدُ المخطوطات التي جلبها معه من المنزل ليقرأها في وقت

شغوره، واحترق المخطوط بهدوء أمام ناظِرَيْه، ولكن أنير، بخاطر عجيب، رأى حروف المخطوط تحلّق عاليًا مثل فراشات صغيرة من ضوء باهر غير موجود على الأرض، وتطير إلى مكان بعيد طالما راودته رغبة جامحة لزيارته. كان الضباب قد بدأ ينجلي شيئًا فشيئًا عن الأجواء، وبدت الحركة عادية داخل السوق، وأحدث سقوط العربة ضجة أثارت انتباه بعض المارّة؛ فتوقفوا بفضول وهم يرون قائد الحرس يقهقه عاليًا، ثم يقول بصوت آمِر:

غَادِرْ فورًا أيها البربري. لا أريد رؤيتك هنا مرة أخرى! إنك تعلم جيدًا أنك ستتعفن داخل السجن، وستدفن فيه، وستفعل خيرًا بنفسك إذا هجرت دريو إلى الأبد.

جوليا وليفيا

برِح أنير مكانه، وانتشر خبر طرده بسرعة في السوق، ومن ثَمّ امتد إلى البلدة بكاملها. التفت، وهو يغادر، للمرة الأخيرة إلى الباب العتيق المَبْنِيِّ بالطوب الأحمر، وإلى عش اللقلق الذي نُسج بالقش فوق إحدى زوايا الجدار العالي. وفكر في الأوقات التي قَضَّاها هنالك بائعًا لثمار الكستناء، وفكر في الفتيات الرومانيات والأمازيغيات اللواتي طالما زرنه بأناقة وزينة لا تخطئها العين. تقاذفته أحاسيس فاضت بها نفسه المثقلة بوجع غامض؛ وجع ظل يجاهده لوقت طويل. هل آنَ أوان الرحيل الأبدي عن البلدة؟ خطا بين البيوت الطينية الحمراء العتيقة خطواتٍ تائهةً دون أن يعرف دواعيَ

تجوّلـه وسـط البلـدة، التـي شـهدت شـقاوة طفولتـه ومراهقتـه، وبدايـة شـبابه النَّـزِق، قبـل أن يسـتقر في بـاب السـوق، يبيـع الكسـتناء، ويحصّـل بعـض النقـودِ القليلـة؛ نقـود يشـتري بأغلبهـا كتبًـا ومخطوطـات نـادرة كان يقرأهـا بنهـم ليـلاً، أو في الأيـام التـي لا يشـتغل فيهـا.

تنبـه مذعـورًا إلى صـوت فتـاة جميلـة؛ صـوت فاتـر انتهـى إلى مسـمعه همسًـا رخيـماً شـبيهًا بهبّـة نسـمة عليلـة لفحـت روحـه مـن الداخـل:

- هل حقًا طردوك من السوق والبلدة؟!

نظـر إلى الفتـاة الرومانيـة نظـرةً عميقـةً، وشـعر بأنـه يودّعهـا، وبأنـه لـن يراهـا بعـدُ تـأتي إليـه في بـاب السـوق لـشراء الكسـتناء محمّلـةً ببعض المـرح الـذي يتبادلانـه بـبراءة، أو مـن دونهـا، كـما كان يحـدث أحيانًـا:

- ليـس بمقـدور أحـد أن يطـردني يـا جوليـا، وإنـما أنـا راحـل بمحـض إرادتي.

- عُدْ سريعًا؛ ففي البلدة من سيفكر فيك، ومن سينتظرك دائماً.

شرد ذهنه، وردّ بحيادية عجيبة:

- لست أدري يا جوليا.. لست أدري!

واصـل المـشي، تتابعـه الفتـاة بنظـرات تقطـر حزنًـا، والدمـوع تـكاد تطفـر مـن عينيهـا. تأملتـه جيـدًا، فـإذا هـو شـاب أمازيغـي في حـوالي الثانيـة والعشريـن مـن عمـره، متوسـط الطـول، عريـض المنكبـين، يرتـدي قميصًـا أشـهبَ مـن الكتـان الخشـن، ويُرْسـل شـعره المجعـد بفحولـة حتـى يـكاد يلامـس كتفيـه.

- هي لك يا أنير.

رفع ناظريه، وفوجئ بالأرملة الثلاثينية الغنية ليفيا تلقي له بصُرة نقود من نافذة الطابق الثاني، فتلقّفها بخفة، وقال:

- لا حاجة لي بالنقود أيتها السيدة الرومانية الطيبة، أشكرك.

- ستحتاج إليها في سفرك. أعرف أنك كنت تنفق ما تكسب على شراء الكتب، بل كنت تعطي الكستناء للجياع والمتسولين دون مقابل.

- أنتِ نبيلة الخُلُق، وسأحتفظ بوُدّي واحترامي الشديدين لك، ولكني سأعيد نقودكِ إليك.

رمى صرة النقود بمهارة، فدخلت من النافذة إلى حجرة ليفيا، وأضاف بابتسامة مُذوبة طفت للحظات على وجهه، والأرملة الشابة تنظر إليه وكأنها ترغب في إرواء قلبها بأكبر كَمّية ممكنة من بهاء الشاب الباذخ في جمال روحه ووسامته اللافتة. قال:

- لا تنظري إلى الأسفل.. انظري إلى الأعلى، وسترين أشياء جميلة.

صَحَا الجو، وصفَت السماء، فواصل السير وسط بيوت البلدة، ونظر إلى التلال الصخرية السوداء، وإلى أشجار الغابة، وفكّر في نجمة فينوس، وفي فتاة استثنائية بعيدة جدا يشعر بها تناديه وترجوه المجيء إليها، وتنتظره بشغف.

سمع فتاة مراهقة تخاطبه بصوت نائح تعتصر فيه كل أحاسيسها الملتهبة. فتاة في حوالي الخامسة عشرة من عمرها، تتمتع بفوران

مراهقـة دافئـة، واندفـاع حيـيّ يرسـم حولهـا هالـة مخلوقـة. مـلاك، أو حمامـة مـن الجنـة:

- لا ترحل يا أنير.

وجـد نفسـه في حالـة عجيبـة مـن الحـيرة. لقـد اقتربـت روحـه مـن روح زهـرة الجمـر، وشـعر بجسـده يحـترق بدمـوع المُراهِقـة الأمازيغيـة الباهـرة في جمالهـا!

- سأرحل يا زهرة الجمر، ولكنني سأُبقي الكثير مني هنا!

دخلـت زهـرة الجمـر إلى منزلهـا، وأغلقتـه بهـدوء، ثـم توجهـت إلى حجرتهـا، وانخرطـت في نحيـب كئيـب تـردد صـداه المجـروح في أنحـاء الحجـرة كلهـا، وتسـلل بعضـه مـن النوافـذ، ليتشـتت عطـر مسـك كرذاذ فـوق التـلال والغابـة والأنحـاء البعيـدة.

اِنعطـف يمينـًا، ورأى صانـعَ الأحذيـة العجـوزَ ماسـين يهـرول نحـوه بأنفـاس متقطعـة، ويتوقـف مرهقـًا في ملابـسَ مـن القنـب مترهلـة، ترتسـم عـلى وجهـه تجاعيـدُ عميقـة تشـبه بقايـا طـين متشـقق في بركـة جافـة:

- أحقًا طردك الرومان من البلدة؟!

وضـع أنير يـده على كتـف العجـوز الطيّب الـذي كانت وجنتـه اليمنى ترتجـف بوتـيرة سريعة. ابتسـم في وجهـه، وخاطبه بنـبرة محمّلة بـوُدّ كبير:

- المعلـم ماسـين، نعـم، لقـد طـردوني. ولكـن لم يكـن بوُسْـعهم ذلـك لـو لم أرغـب في الرحيـل بمحـض إرادتي.

لَفَّت الدهشة ملامح وجه المعلم ماسين العريض المنكمش، وبدت عيناه الحادتان تبعثان بريقًا خامدًا، وقال وهو يصارع موجة حزن رهيبة:

- لماذا تريد الرحيل يا بني؟!

- إنها مشيئة القلب أيها المعلم الطيب. لم أنس تلك الفتاة الرومانية التي عبرت بلدتنا رفقة جند والدها ذات يوم بعيد. ولم أنس الوصية أيضا.

فهم المعلم ماسين، وردد بصوت خافت:

- هكذا عهدْتُكَ دائما أيها الشاب المقدام.

صمت قليلا ثم أضاف:

- خُذْ هذه الأيقونة الصغيرة، إنها مدهشة! لقد ورثتها أبًا عن جدّ. ليس لدى أبناء يرثونها عني، وإنني لأشعر بدنوّ أجَلي، وأشعر بدبيب الموت ينتشرُ داخلي. خذها، وعلّقها في عُنقك، فستحميك من عثرات الطريق، وستبعد الأشرار والمهالك عنك، وستفتح الأبوابَ المغلقة كلَّها أمامك وأمام شعبنا الأمازيغي.

ضحك أنير، وربت مرة أخرى على كتف المعلم العجوز ماسين، وتأمل الأيقونة طويلاً، إنها أيقونةٌ بحجم الإبهام، عتيقةٌ من الذهب الخالص، تمثل مجسّم إلهة لا يعرفها:

- هل هي أيقونة تمثل إلهة القمر؟!

- لا يا ولدي، إنها الإلهة ثفوشت[1]؛ إلهة الشمس، وسترى أن نورها سوف يرافقك في أحْلك لياليك، ويغمر روحك بفيضٍ من الطمأنينة الدائمة، وسوف يمضي معك إلى حيث يوجد المكان الذي ستنطلق منه لتحرير شعبنا الأمازيغي.

ولما كان أنير لا يؤمن بالآلهة ولا ببركاتها، فقد وضع الأيقونة في يد العجوز، وقال بلباقة متناهية:

أيها المعلم الطيب، احتفظ بها لنفسك.

زهرة الجمر وأيقونة ثفوشت

بقي العجوز يتأمل الأيقونة في يده بغرابة ممزوجة بحزن مؤلم، على حين اتجه أنير نحو منزله، ورأى زهرة الجمر تمشي بعيدًا بخطوات رشيقة كحَمَل صغير، يحتويها ألقٌ ساحر، وتغمر وجهَها المدورَ الشبيهَ بالبدر خصلاتُ شعرها البني المائل إلى حمرة خفيفة، فلم يستطع صَرْف نظره عنها. استمرت تسير بأناقة كنسمة رقيقة تهبّ على أزهار أقحوان، وشعر برهبة كبيرة، وخاف خوفًا عجيبًا من أنوثتها المتفجّرة. تتبّع أثرها دون إرادته، ورآها تجلس قرب نبع صغير، فدنا منها، ووجدها شاردة الذهن تعبث في الماء بغصنٍ أخضرَ رفيعٍ مجردٍ من أوراقه:

- طاب يومك يا زهرة الجمر.

(1) ثفوشت: إلهة الشمس عند قدماء الأمازيغ.

نظـرت إليـه الفتـاة بعينـين عريضتـين، وبرمـوش نثـرت حولـه دلالًا ساحرًا، وبفـم مـدور مبلـل عـلى الـدوام بريـق مُشَـهٍّ. جلس بجَنْبِهـا، ونظـر إلى الصخـور، وإلى العصافـير التـي تحلّـق حـول جـدول المـاء الصغـير، وإلى الشـمس المتهاديـة برتابـةٍ في اتجـاه العَشِـيَّة.

- من الأفضل أن تغادر دريو، رغم الآلام التي سأعانيها بغيابك.

صمـتَ، وشـعر بأنـه يتـورّط في قصـة غـير واضحـة المعـالم؛ فأخرجت زهـرة الجمـر الغصـن الأخـضر الصغـير مـن المـاء، وعلقـت عينيهـا عـلى كرمـة تـين قديمـة نابتـة بجنـب الجـدول في صـدع صخـرة رماديـة، وتنهّـدت تنهيـدة عميقـة، ثـم واصلـت حديثهـا كالحالمـة:

- لقد كنتَ لنفسك في آخر الأمر.

أحـسّ بحريـق يضطـرم داخلـه! تأمـل مـن جديـد الفتـاة البديعـة التـي تجلـس بجنبـه.. كل شيء كان ينبـت فيهـا كالبراعـم الطريـة، حتـى مشـاعرها الجميلـة الفـوارة.. كل شيء فيهـا كان قابـلًا للتكسر أو الاحـتراق بمجـرد لمسـة حانيـة:

- زهـرةَ الجمـر، لا أغـادر البلـدة بمحـض إرادتي، ولكننـي أغـادر تلبيـة لنـداء قديـم وَجَـد لـه صـدىً عميقًـا في نفـسي. لقـد قاومـتُ هـذا النـداء لوقـت طويـل، ولكـنّ حـادث اليـوم يعجّـل برحيـلي... ثـم إننـي أرحـل مـن أجـل هـدفٍ رسَـمَه القـدر لي.

قالت باهتمام بالغ:

- هل أنت جائع؟!

- نعم.. لم آكُل شيئًا منذ الصباح!

- حسنًا، لدى رغيف خبز محشوّ بجبن الماعز.. تفضّل.. تَنَاوَلْه.. كنت أعرف أنك ستكون جائعًا!

- شكرًا.. أحب أن آخذ في جسدي شيئًا.. من هنا.. قبل سفري.

غرقت زهرة الجمر في ذهول عجيب.. لم تكن تعيش زمانها ومكانها، وتاهت في عوالم مجهولة! أتم أنير الأكل، ثم نظر من جديد إلى زهرة الجمر، فأحسّ برجفة تسري في أوصاله.. ظلت عدة أفكار تتصارع في خياله، وأيقن في آخر الأمر أنّ هذه الفتاة الأمازيغية الحسناء تمثل جزءًا من حياته الماضية في دريو، وبأنها لن تكون مستقبله البعيد أبدًا. ردّد في نفسه: «هناك دائماً، لكل زمان، شخص أو أشخاص في أنفسنا، وقد تتوقف أدوار هؤلاء الأشخاص عند زمن معيّن؛ زمن غير متوقع!».

قالت زهرة الجمر بصوت رخيم كعزف ناي كئيب في ليلة ملطخة بالفجيعة:

- سأودّعك الآن!

- رجوت لو مكثتِ معي وقتًا أطول.

- هذا الرجاء كان يمكن أن يكون رجائي أنا، ولكنني أدرك الآن بأن لكل مسافة نهاية، مثلما أدركتَ أنتَ ذلك قبلي بوقت طويل.

- حسنًا، تأكّدي أنني كنت سأحاول أن تكوني لي لو أنني لم...

قاطعتهُ بلطف:

- لا، لقد تجاوزتُ هذا الإحساس بمسافات شاسعة، وأعرف أننا فوّتنا فرصة التلاقي في لحظة خاطفة حين مرّ كل واحد منا جَنْبَ الآخَر دون أن يُشْعِره بوجوده.. ألستَ أنتَ مَنْ قال هذه العبارة ذات مرة؟!

- ولكن...

قاطعتْه مرة أخرى، وبنبرة مجروحة كنُواح يمامة بعيدة في غروب بعيد :

- أرجوك، لقد انتهى كل شيء الآن، وإذا كان لا بد من وداع لطيف، فإنني أرغب في قبلةٍ سريعة غير عميقة؛ قبلةٍ لا تأخذني دون رجعة!

التقت شفتا أنير وزهرة الجمر على نحو خاطف، فشَعَر بصعقة ترجّه بقوة. ثم غادرت زهرة الجمر وكأنها تفرّ من المكان، وتتبَّعها أنير بعينين مليئتين بالحيرة والإعجاب؛ فشاهد شعرَها البني المائل إلى حمرة خفيفة تتلاعب به نَسَمات عشية رطبة، ورأى ردفيْها يرتجان بأنوثة ناشئة مذهلة، ثم غابت عن ناظريه. أحسّ بدموع حارة تنساب بحرقة في أعماقه البعيدة، ووخزه إحساس بذنب تُجاه فتاة كانت استثنائية في كل شيء.. تأمل الشمس وهي تتهادى نحو الغروب، وانتابه شعور بأن يومه الأخير في البلدة يمر سريعًا على غير العادة، وبدت طيورٌ بيضاءُ تطير على علوّ منخفض محاذية الدور المشيّدة بقوالب الطين المخلوط بالتبن، وانتهى إلى سمعه خريرُ المياه المنسابة بين أحجار الجدول الصغير، وشعر بسعادة

ممزوجة بحزن غامض، واستحوذت عليه رهبة غريبة، فتساءل في حيرة:

- هل هي رهبة السفر، أم رهبة لقاء الفتاة التي أتمثلها دائماً في نجمة فينوس؟

قام من مكانه، وجلس في مكان زهرة الجمر؛ فاهتز شيءٌ مَا بداخله، وشعر كأن المكان مسكون بروح الفتاة العبقة برحيق فردوسي.. نظر إلى البلدة من الأعلى؛ فشاهدها تغرق في لون الشفق البرتقالي المتوهج، وتَكسَّر الصمت بشدو عصافيرَ صغيرة بدأت تبحث لنفسها عن مكان آمن للمبيت، ولمح قرص الشمس الأحمر يحاذي التلال، وفكر في ثفوشت أيقونة العجوز الحكيم ماسين، فرأى الشمس أجمل من أي وقت مضى، ورأى ضوءَها القليل مبهجًا وممتعًا للنظر.

أخذ الغصنَ الأخضرَ الصغيرَ الذي كانت تعبث به زهرة الجمر في مياه الجدول، وقام من مكانه، وأحسّ بوخز يحرقه كحرارة مجمر ملتهب.. اجتاز التلال الصخرية الوعرة باتجاه منزله الموجود على أطراف البلدة؛ فرأى السيد أفولاي يتوجه نحوه بخطوات عرجاء، مصحوبًا بمُساعِده أسافو، والتقيا فوق تلّ صغير:

- أنير، هذا الكتاب كنت قد استعرته منك، خذه؛ فلقد علمتُ أنك لن تعود إلى البلدة أبدًا!

ضحك أنير برقّة، ونظر إلى تاجر الملح السيد أفولاي؛ الرجل الكهل الأعرج الذي يقرأ الكتب، وينطق بكلام حكيم، ويجادل في

الفلسفة وعلوم الطبيعة والحياة.. وشعر بالامتنان والاعتزاز نحوه؛ لأنه تعلم الكثير منه:

- السيد أفولاي، هذا الكتاب لك.. أنا راحل، ولن آخذ معي أيّ كتاب في رحلتي!.

تهلل وجه السيد أفولاي بفرح غامر، وقال:

- الشكر لك يا أنير.. الشكر لك.. فأنا لم أتمم قراءة هذا الكتاب بَعْد.. إنه قيِّم جدًّا.

- لديَّ في المنزل مكتبة عامرة بالكتب، وسأوصي لك ببعضها.

اِنصرف أنير دون أن يلتفت خلفه، وودّع دريو نهائيًا، وستكون هذه الليلة ليلته الأخيرة فيها؛ فغمره إحساس عَزْمٍ ممزوج بالإحباط!

اذهب أيها الخاتم الصغير..

إن قيمتك لن تثبت شيئًا

إلا حب واهبك.

أفولاي والوصية

طرق الشاب أسافو الباب طرقات قوية متوالية، فجاءه صوت من الداخل.. صوتٌ هادئ ومفعم بنبرة رصينة:

- انتظرْ.. انتظرْ، سأفتح الباب حالًا.

وسمع أسافو خطوات ترتطم بالأرض بإيقاع يعرفه جيدًا، وأطل أفولاي بوجهٍ مستطلعٍ، وتبيَّن قامة الشاب الفارعة، ولحيته الخفيفة، وعينيه الواسعتين؛ فرفع رأسه إليه، وخاطبه بنبرة صوت خافت متسائلًا:

- ماذا حدث يا أسافو؟

- المعلم ماسين، صانعُ الأحذية، في حالة سيئة.. يبدو أنه يُحْتضَر، ويرجو قدومك عليه لأمر في غاية الأهمية.

اضطـرب السـيد أفـولاي، ووجـد نفسـه يدخـل ويخـرج بقلـق مـن البـاب، وهـو في لبـاس خفيـف، وجسـمه يرتجـف مـن شـدة الارتبـاك، قبـل أن يُهَـرْول باتجـاه حجـرة نومـه داخـل المنـزل، مُلتَقِطًـا لباسًـا وجـده عـلى السريـر، فانطلـق مسرعًـا بمشـيته العرجـاء رُفقـة مسـاعده الدائـم أسـافو. دخـلا أزقـة ضيقـة، وشـوارع خاليـة ومظلمـة، قبـل أن يصـلا بـاب كـوخ بائـس، تهـرب مـن شـقوق بابـه المهـترئ خيـوط ضـوء ذابل. دفـع أسـافو البـاب، وسـمع الكهـل أفـولاي، وهـو يدخـل الكـوخ، لغط حمـام، ورأى طيـف كرْمـة عنـب تعانـق أعـلى سـور الكـوخ، وشـمّ رائحة جلـد ممزوجـة برائحـة غريبـة لم يشـمّها مـن قبـل. دخـلا عـلى العجـوز ماسـين، فوجـداه يرقـد عـلى فـراش عتيـق، وبجنبـه مسـاعدُه تيـلي. اقـترب منـه السـيد أفـولاي، فوضـع يـده عـلى جبـين صديقـه الحميـم:

- ستعود إلى نشاطك عمّا قريب أيها الصديق الكبير.

ثم التفت إلى تيلي:

- هل أحضرت الطبيب؟

- نعم يا سيد أفولاي، ولكن.. ولكن...

تواصل اضطراب أفولاي.. وقال شبه منتهر تيلي:

- ولكن ماذا أيها الفتى؟

فردَّ تيلي بصوت منكسر وخافت:

- الطبيب قال إن سيدي ماسين يموت، ولا أمل في شفائه!

- لا.. لا يمكـن لـماسين أن يمـوت بهـذه السرعـة.. لقـد كان معلّمنـا

دائماً. ستكتب له إلهة الشمسِ عمرًا مديدًا.. المعلمون لا يموتون أبدًا.

أشار العجوز المُنْهَك ماسين إلى صديقه أفولاي كي يدنوَ منه أكثر، فوضع أفولاي أذنه قريبًا من فم ماسين، وشم فيه رائحة غريبة؛ رائحةً مرعبة، وتصوّر أشياء سيّئة، ولكن أفولاي أبعد بفزع من ذهنه كل تلك الهواجس... وسمع صديقه ماسين يهمس بصوت متقطّع:

- اسمع يا أفولاي.. أيها الصديق الطيب.. سأموت لا محالة.. دَعْني أسلم نفسي للموت برغبتي الكاملة.. لن أقاومه.. سأسافر معه في رحلة أجهل مسالكها، ولكنني موقنٌ بأنني سأصل إلى مكان ما، وإلى عالم ما.. لا يهمّني كيف سيكون ذلك العالم.

صمت العجوز ماسين قليلاً مستجْمِعًا قُواه، وأخذ السيد أفولاي كأس ماء وجده فوق طاولة صغيرة بجنب الفراش، وجعل الكأس في متناول شفتي ماسين، لكن ماسين ارتشف رشفة واحدة، فقط من أجل أن يبلل فمه. أخرج من تحت الفراش أيقونة ثفوشت، وسلّمها إلى السيد أفولاي، وقال بعدما وجد في نفسه بعض القدرة على الكلام:

- سَلِّم هذه الأيقونة إلى أنير... قد يعود إلى دريو يومًا ما. كنت عرضْتها عليه قبل رحيله عن البلدة، لكنه رفض! حين أموت لن يستطيع الرفض.. سيحترم رغبة رجل ميت.. سلّمه الأيقونة.. إنها كنز لا يقدر بثمن... ستواجهه في حياته أحداث متقلبة، وسوف

يحتاج إلى الأيقونة.. أيقونة ثفوشت هي التي ستنير سماء بلاد الأمازيغ.. وسوف يحتاج إليك يا أفولاي، وسوف يحتاج إلى الملح.

تبعثر ضوء القنديل الزيتي، ورسم ظلالًا متراقصة على وجه العجوز ماسين، وغابت ملامحه لحظات قبل أن تهدأ الريح الخفيفة المتسربة من الكوة. خيَّم صمت ثقيل على الجميع، ولم يكن يُسْمَع في الحجرة القديمة غير تنفس العجوز ماسين المزوج بحشرجة مخنوقة، وغير هسيس ريح خفيف. تجَمَّد أسافو وتيلي، وقد خيّم عليهما حزن عميق، بينما بدا الكهل أفولاي مضطربًا، لا يعرف ماذا يفعل، وكيف ينقذ صديقه من هذه المحنة، فخاطب تيلي بصوت خافت:

- هل بمقدور الطبيب الروماني رومو أن يفعل شيئًا؟ إنه أمهر أطباء المنطقة.

فَرَدَّ تيلي بصوت نائح:

- هو مَنِ استقدمناه لسيدي ماسين، ولكنه لم يرَ أملًا في العلاج!

همهم السيد أفولاي بكلام غير مفهوم، ثم شدّ على يد صديقه، ونظر إليه بعينين مجروحتين، فخاطبه ماسين بصوت منهك:

- خُذِ الأيقونة، وسلِّمها إلى أنير متى التقيت به.. إنها أمانة في عنقك. وأنت معفيّ من هذه الأمانة في حال عدم التقائك به. وإذا حان موعد رحيلك عن الدنيا، سَلِّم الأيقونة إلى مساعدك أسافو.. إنه شاب نابغ ومخلص، وسيكون له شأن إذا واظب على القراءة والمجادلة وإعمال العقل في أمور الدنيا كلها.

قال أسافو:

- شكرًا لك أيها المعلم! سأكون كما تريد أن أكون.

وأضاف العجوز ماسين:

- أما مساعدي ورفيق دربي في الصنعة، وفي علوم الطبيعة والفلسفة والحياة، فسيرث دُكّاني، وكتبي ومخطوطاتي كلها، ومالي القليل المتبقي... ضغط العجوز ماسين على يد أفولاي، وقال له كلماته الأخيرة:

- خذ الأيقونة، ودَعْني أموت بهدوء.. لا أحب موتًا بليدًا يباغتني بين أحبّتي وأصدقائي.. يجب أن نواجه بعضنا بعضًا.. أنا والموت! أعلم أنه سينتصر منذ بداية المواجهة، ولكن الغلبة ستكون لي آخر الأمر... وداعا أيها الصديق أفولاي.. وداعًا أيها المخلص أسافو!

أدار العجوز ماسين وجهه، وحين أراد السيد أفولاي أن يقول شيئًا، أشار له العجوز ماسين بالخروج، فقال أفولاي وهو يغادر:

- كن بخير أيها الصديق الكبير.. كن بخير، هنا وهناك، أيها المعلم.

خرج السيد أفولاي ومساعده أسافو، وقابلتهما مِنَ الفور كتلة ظلام كثيفة.. اضطرب الطقس فجأة، وكسَتِ السماء سحب سوداء. سارا في الأزقة والشوارع صامتين، وكان وقع خُطْوات الكهل أفولاي الرتيب على الأرض يعكس حالة العرج التي لازمته منذ سقوطه في زمن بعيد من فوق حصان.

- سأخرج بقافلة ملح، يا أسافو، إلى مدن بعيدة.. بعيدة جدًا، ولك الاختيار بين مرافقتي وعدمها، وربما من الأفضل ألّا تفعل.

- تخرج بقافلة ملح؟! لم يسبق لك أن فعلت هذا يا سيدي.. كنت دائماً تتاجر بالملح هنا في بلدة دريو ونواحيها.

صمت أفولاي شاردًا قبل أن يردّ على أسافو:

- هذه المرة سأخرج للبحث عن أنير، وأصْحب معي قافلة من بغالٍ مُحَمَّلَة بالملح. إنها مغامرة أكثر منها مجرد تجارة ملح!

- سوف أرافقك سيدي أفولاي.. لا يمكنني أن أتخلى عنك، وأحب أيضًا رؤية أنير من جديد.

- ابتداءً من الغد علينا أن نقتني بضاعة من ملح جيّد، وسأوكل إليك مهمة شراء عشرة بغال قوية.

باع السيد أفولاي كل أملاكه في بلدة دريو، وباع ضيعة شاسعة ورثها عن عمٍّ له، وخرجت قافلة أفولاي من بلدة دريو، وكان لِزَامًا عليه استئجار مساعد للسيطرة على القافلة الكبيرة، وعلى أكياس الملح الثقيلة، وللحراسة أيضًا. ولم يجد السيد أفولاي إلا الشاب المتسكع ساريل ليقوم بهذه المهمة، رغم تحذيرات أسافو المتكررة.

تبين لأفولاي أن تحديد وجهة السفر أمر صعب، بل كان ذلك مخاطرة بالغة.. إن السيد أفولاي يخرج من أجل البحث عن أنير، وتسليمه أيقونة ثفوشت.. ويساوره شك بأن أنير سافر إلى مدينة أرتو، ولكنه غير متأكد تمامًا من هذا الظن. نظر السيد أفولاي

إلى الشرق والغرب، وإلى الشمال والجنوب، فلفَّتْهُ حيرة، ولم يستطع تحديد وجهته إطلاقًا، لكنه - بإلهام عجيب- أخرج أيقونة ثفوشت من كيسه الجلدي الخاص، فلاحَظَ رأس الأيقونة يتجه نحو الشرق.. لم يتردد، وصاح في معاونيْه:

- لنتجه إلى الشرق.. أنير سيكون موجودًا في مكان ما هناك.. وعلى الأغلب في مدينة أرتو.

تساءل ساريل بفضول:

- لماذا تريد اللَّحاق بأنير يا سيد أفولاي؟!

امتطى أفولاي بغله، ثم قال بعدما استقرّ فوق البغل:

- شيءٌ جميلٌ أن نلتقي بأنير!. ألا تشعر بحنين إليه يا ساريل؟

صمت ساريل قليلًا، ثم ضحك، وقال بشبه سخرية:

- لم أشْتر منه يومًا كستناء، ولم أتَلَقَّ منه أيضًا كستناء دُونَ مقابل! لم يكن يعني لحياتي شيئًا.

رد السيد أفولاي بوقار:

- هذا صحيح يا ساريل.. هذا صحيح.. لا يمكن لأنير أن يعني لك شيئًا!

بعد مسير قليل، لاحت عن بُعْد فتاة تبعث وهجًا عجيبًا. وسَرْعان ما تبيّن للسيد أفولاي أنها المراهقة زهرة الجمر، وشعر فجأة بحرارة تكْوي مشاعره، وتحرقه على نحو غريب، وبدا له وكأن أيقونة ثفوشت

تنتفض في كيسه الخاص! استحضر حالة الارتباك التي كانت تُحْدثها الفتاة الأمازيغية الحسناء في تجمُّع الحكماء، وقارئي المخطوطات وكتب الفلسفة، حول عربة أنير في بوابة سوق دريو حين كانت تمر من أمامهم بشموخ إلهة باهرة، وكيف كانت نظرات أنير تندفع نحوها بلهفة تشتعل كوميض برق خاطف في عينيه. توقفت قافلة بغال الملح تلقائيًا، وحاول ساريل قول شيء للصبية الفاتنة حين عبرت بمحاذاته، ولكنه وجد لسانه مكبّلًا، وتجمّد جسمه القصير النحيل فوق البغل كتيس مريض. واصلت زهرة الجمر سيرها المتمهّل في اتجاه السيد أفولاي، وحين وصلت إليه، وقفت بثبات مدهش، ثم خاطبته بصوت وكأنه ينبعث من أقصى حلم مستحيل لم يستطع السيد أفولاي أن يتذكر بأنه تخيل شيئًا مثله في حياته قطّ:

- السيد أفولاي، أنت أيضًا ترْحَل، وتأخذ معك أسافو، وأخاف أن يرحل عنا، وإلى الأبد، صانع الأحذية المعلم الطيب ماسين، وكان أنير قد انتزع نفسه منا سابقًا.. لِمَنْ ستتركون بلدة دريو يا تُرَى؟! لقد أصبحنا غرباء في بلدتنا!

- أيتها الفتاة الجميلة، أنا أسافر في محاولةٍ لاسترجاع أنير.. أعلم أن بلدة دريو دون أنير، ودون أمثاله من الخيّرين، لا يمكنها أن تستمر بطابع أمازيغي طويلًا.. ومع ذلك يحدوني أمل كبير فيكم أنتم شباب البلدة.. أعرف أنكم ستفعلون شيئًا لبلدتكم في المستقبل القريب.. ثم إنني أسافر من أجل إلهة الشمس التي غابت أشعتها الدافئة طويلًا عن بلاد الأمازيغ!

فتحـت زهـرة الجمـر قبضـة يدهـا، وتـلألأ منهـا إشـعاع باهـر عانـق أشـعة الشـمس، وتماهـى معهـا، ليلـوّن الأرض والسـماء بمسـحة شـفافة مـن نـور عجيـب خطـف بـصر السـيد أفـولاي وعقلـه. قالـت وهـي تغمـر بنظراتهـا الحانيـة السـيد أفـولاي، الـذي شـعر بأنـه سـجين حالـة انبهـار لم يعـش مثلهـا قـط:

- هـذا خاتَـم ذهبـيّ مرصّـع بحجـر مـاس نـادر.. إذا عثـرتَ عـلى أنـير فسـلّمه إليـه.. لـن تحتـاج إلى أنْ تخـبره بمَـنْ بعـث إليـه الخاتـم.. سـيعرف مـن الفـور المرسِـل.

- لسـت متأكـدًا مِمّـا إذا كنـت أسـتطيع العثـور عـلى أنـير، ولكننـي سـأبذل قصـارى جهـدي.

- شـكرًا لـك أيهـا السـيد أفـولاي.. لا يسـاورني شـكّ في أنـك سـتلتقيه في الأخـير. أرجـو فقـط أن تلتقـي بـه وهـو بخـير.. أتمنـى لـك ولأسـافو سـفرًا مريحًـا.. احْـذرا ثعابـين الطريـق؛ فقـد ينـبري لكـما ثعبان في أي لحظـة!

- لا تقلقـي أيتهـا الفتـاة الطيّبـة!. سـافرت كثـيرًا في حيـاتي، ولـن يكـون سـفري هـذا هـو الأخـير طبعًـا.. فـكل سـفر نهائـي لـن يكـون نهائيًـا بالـضرورة!

انصرفـت زهـرة الجمـر بصمـت، عائـدةً إلى دريـو، تمـشي بخيـلاء فتـاة وكأنهـا إلهـة تلفهـا سَـكينة عجيبـة.. فتـاة تتمتـع بفـوران مراهقـة دافئـة، واندفـاع حيـيّ يرسـم حولهـا هالـة.. مـلاك أو حمامـة مـن الجنـة!

ولكن محبوبة قلبي ليست هنا -ثمة خطأ صغير-

إن مشعلة اللوعة بعيدة جدًا،

واللهب هنا!

الرحيل اللاذع

تسرّبتْ عبر شقوق نافذة البيت الطيني العتيق خيوط نور أحمر برتقالي متوهِّج، حملت معها شدو عصافير بدأت تشقشق باكرًا جدًّا حول دالية العنب المعلقة على سور الحديقة. استيقظ أنير من النوم متصبِّبًا بعرَق أواخر فصل صيف فاتر، فوجد في ذهنه بقايا لحلم عبق بأريج فتاة باهرة في سحر جاذبيتها، والفتنة التي تحتوي تقاطيع وجهها البديع، بدت تمامًا كما لو أنها الفتاة الرومانية الشقراء التي ظلت على الدوام تسكن روحه العميقة كندى رطب، يروي جفاف حياته الخالية إلا من دفء ثمر الكستناء المشوي، وروائح الكتب والمخطوطات.

أطلّ من نافذة المنزل العتيق، فرأى أنوار الفجر الأولى تتفجر بلون أزرق داكن يرسم هالة حريرية حول بلدة دريو النائمة،

وحــول الغابــة البعيــدة. ونفــذت إلى أنفــه رائحــة الــتراب المنــدّى الرطــب، وحمــل النســيم الصباحــي البــارد رائحــة الأرز الكثيفــة، التــي مــلأت روحــه بفيــض غامــر مــن ســعادة لافحــة. نظــر إلى الكيــس المُلقــى عــلى الأرض؛ كيــس صغــير محشــو بغطــاء ومــاء وأكل قليــل. ســيكون الســفر شــاقًا. هنــاك نجمــة بعيــدة يختلــط نورهــا بنــور الفجــر الشــفاف؛ نجمــة يتمثلهــا عــلى هيئــة فتــاة رومانيــة تحمــل كل عنــاصر الجــمال، ســيخرج ليبحــث عنهــا في كل مــكان. «النجــوم مــا هــي إلا فتيــات جميــلات تنعكــس صورهــن عــلى الســماء، وأنــا أعشــق نجمــة فينــوس، وفينــوس الفتــاة ســتكون في مدينــة أرتــو، وســوف أجدهــا في الأخــير».. هكــذا ردّد في نفســه، وهــو يفكــر في هَجْــرِه كتبَــه المحبّبــة إلى نفســه، وحرْفتَــه التــي لازمتــه ســنوات طويلــة؛ حرفتــه التــي جعلــت منــه أشــهر بائــع لثــمار الكســتناء المشــوي والنيــئ في بلــدة دريــو؛ كســتناء يجمعــه مــن أشــجار الغابــة وقــت القطــاف، ويحتفــظ بــه ليبيعــه مشــويًا غالبًــا، ونيّئًــا أحيانًــا لِمَــنْ يحبّ أن يشــويَه بنفســه في المنــزل؛ كســتناء يجلــب لــه القليــل مــن المــال، والكثــير مــن المتعــة؛ فطالمــا استشــعر شــذا رائحــة الكســتناء المشــوي تدخــل روحــه، وتــزرع فيــه حيويــة وعنفــوان شــبابٍ متحفــز. وحافــظ عــلى زبائــن خاصّــين، ولم يكــن هــؤلاء الزبائــن يأتــون لتنــاول الكســتناء فقــط، ولكــن أيضًــا للاســتمتاع بالحديــث، والتجــادل معــه في شــؤون الدنيــا الكــبرى، وعــلى رأس هــؤلاء الحكــماءُ وقارئــو الكتــب والمخطوطــات الذيــن كانــوا يجــدون في كلام أنــير منطقًــا عجيبًــا؛ منطقًــا يتجــاوب مــع صــيرورة الحيــاة وجمالياتهــا، حتــى وإن اختلفــوا معــه في بعــض الجزئيــات، في كثــير أو قليــل مــن الأحيــان. ولم تكــن هــذه الأشــياء

وحدها ما يحقق الانتشاء لأنير، وهو يزاول مهنة بيع الكستناء المشوي في باب سوق دريو، وسط الأبخرة والشذا الطيب؛ فقد كان يتنبّه دائماً إلى شابات وفتيات رومانيات وأمازيغيات في زهرة شبابهن، يأتين إليه لشراء بعض من الكستناء، محمّلاتٍ بدلال وغُنج لم يكن يخفى عليه، وكنّ يبادلْنَه الكلام اللطيف متوقّعات في كل مرة أن يبادرهن بإبداء إعجابه، ولكنه ظل مشدودًا دائماً إلى نجمة فينوس، وكان يتمثل هذه النجمة في الفتاة الرومانية الحسناء التي عبرَت، كما الحلم، سوق دريو ذات يوم بعيد، وتركت له دعوة لزيارة مدينة أرتو.

ألم الغواية

يذكر الآنسة جوليا؛ بنت القاضي الروماني لبلدة دريو السيد ناشين.. تلك الآنسة الرقيقة التي قليلا ما فوتت فرصة زيارة أنير في السوق؛ لاقتناء ثمار كستناء لم تكن تحتاج إليه، وكانت ترميها- في الغالب- بمجرد دخولها المنزل. كان وحده ذلك اليوم، مطأطِئًا رأسه، ناظرًا إلى الثمار، وهي تُشوى في قدْرٍ، يحرّكها أحيانًا، ويضيف الأعواد إلى المجمر أحيانا أخرى، وحين رفع بصره رآها.. جوليا؛ الفتاة الناضجة، مكتملة الأنوثة.. الفتاة التي طلب يدها جل أبناء التجار الكبار وأصحاب الجاه، والذين يتحكمون في مصير بلدة دريو، ولكنها رفضتهم جميعًا. ولم يكن خافيًا على أحد أنها متعلقة بأنير. وصدر أمر في الخفاء للتخلص من هذا الفتى المزعج؛ هذا

الفتى الذي يشعل الفتنة وسط بنات علية القوم في دريو، ويجادل في الحكمة والسياسة، ويروّج أفكارًا خطيرة، تحرّض على مناهضة الرومان، مع ثلة من المعتوهين والمخبولين وحثالة الناس من البربر!

رفع أنير عينيه، فرأى جوليا كما لم يرها من قبل.. بدت شاحبة ومحبطة. نظرت إليه طويلاً قبل أن تقول:

- سأقبل الزواج من شاب عرضه علي والدي.. سيكون شابا رائعًا. لا أعرفه، ولكن والدي قال إنه شاب رائع.

- سيكون كذلك يا جوليا.. لا يليق بك إلا شاب استثنائي؛ شاب يقدّر جمالك ورقتك، التي تفيض من تقاطيع وجهك المشرق.

ردّتْ وهي تبتلع حروفًا استعصت على الخروج من فمها:

- ولكنني أحب.. أحب.. شخصًا آخر.. إنه بربري.

لم يفهم أنير الموقف. ظل صامتًا للحظة.. وأخيرًا قال:

- يجب أن تعلني حبك لهذا الشخص.. سيصبح أحد أسعد الناس.. أم إنّ والدك حاكمَ البلدة لن يرحب بهذا الحب؟

ترددت جوليا، وبدا أنها لم تجد كيف تعبر عما يجيش في دواخلها. أخيرًا قالت وكأنها تلفظ مشاعرها المجروحة دفعة واحدة:

- أحبك أنتَ يا أنير!

كان يحرك ثمر الكستناء في القدر المسودّ بفعل الدخان، لكن يده

ارتجّت، وارتجّ القدر، وكاد أنْ يسقط لولا أنه تمالَك نفسه بصعوبة، وتحكم في حركة يده. أظلمت الدنيا في عينيه. شعر بحريق يشوي أعماقه.. كيف يشرح لهذه الحسناء البريئة أنه لفتاة رومانية أخرى، وأنه نذر نفسه لحلم يهاجمه بشراسة ليل نهار؛ حلم يرى فيه تلك الفتاة تتمثل له في هيئة الإلهة فينوس، ويسمعها تناديه وترجوه المجيء إليها؟

- ولكني، يا جوليا، أحب فتاة أخرى؛ فتاة غير موجودة في هذه البلدة؛ فتاة رأيتها مذ كانت صغيرة فقط.

نظرت إليه جوليا نظرة مجروحة. تلبد وجهها أكثر فأكثر، وارتعشت أوصالها، وكادت تفقد الوعي، وسالت من عينيها دموع تدحرجت على خديها المشمشيْن كحبات رمان. وقفت لحظةً، والدموع تواصل انسيابها البطيء من مآقيها، ثم قفلت تاركة موجة هادرة من حيرة موجعة اكتسحت حواس أنير، وزرعت فيها حريقًا مستعرًا لم ينطفئ منه إلا نزرٌ يسير مع انطفاء جمر المجمر، والهدوء الذي خيّم على السوق بعد انصراف المتسوقين والباعة.

أغلق أنير نافذة البيت. تأوّه لذكرى جوليا الفتاة البريئة، ثم أسرع فحمل الكيس الذي لم يكن ثقيلاً، وخرج من المنزل بهدوء. غادر البلدة مع مطلع خيوط الفجر الأولى متوجّهًا ناحيةَ الشرق، وسَرْعان ما غيّبته الغابة في عتمتها وأشجارها الكثيفة؛ أشجار الأَرْز، التي تبعث أريجًا زكيًا ممزوجًا برائحة صباحية تشبه رائحة فاكهة برية متوحشة. صدم وجهه غصن صغير، ثم علق بعنقه

نسيج عنكبوت مقرف. مشى بخطوات سريعة، والكيس على كتفه، يطأ على أوراق شجر حمراء ذهبية مشربة بندى كثيف، أصبح شبه ماء متعفن في الأخير، مع أن السماء لم تمطر منذ زمن طويل!

بدأت الغابة تستيقظ حوله شيئًا فشيئًا، وامتلأ فضاؤها، بوتيرة متصاعدة، بتغريد أعداد كبيرة من العصافير الصغيرة.. شدو عصافير شكّل سيمفونية طبيعية خارقة في انسيابية لامست إحساسه الداخلي بوداعة، لتمزج نبضات قلبه بشَدْو العصافير ورفرفة الطيور المحلقة قريبًا من رأسه؛ طيور اليمام والحجل والسمان. بدا مغمورًا بطاقة استثنائية، وسرعان ما شعر بضيق المجال المغلق داخل الغابة النابتة فوق التلال.. لا يكاد يصعد تلاً، وسط الأشجار المتشابكة، حتى يجد نفسه مجبرًا على النزول والطلوع من جديد، في دوامة لا تكاد تنتهي.

ظل يسير وسط الغابة، فداهمته موجة من الذكريات الحارقة، وشدّهُ حنين عجيب إلى بلدة دريو، وإلى الناس فيها، وتذكر زهرة الجمر، وشعر كما لو أنها شوكة مغروسة في قلبه؛ شوكة مؤلمة وعذبة في الوقت نفسه.. زهرة الجمر لن يلغيها من حياته وذاكرته.. إنها فتاة تكوي النسيان فيه. تجرحه، تمزقه، ولكنها تزرع داخله شعورًا متواصلاً بالحياة وعنفوانها الدائم. وطالما كان يقف أمام العربة الخشبية العتيقة في باب سوق دريو، والمجمر يطلق شذا فوّاحًا، وبخارًا مشبعًا برائحة الكستناء الموضوع داخل قدر على مجمر، وهو منهمك في تحريك الكستناء إلى أن ينضج نضجًا كاملاً،

وبالجـودة المعهـودة. وكان يجلـس بجـواره، في الغالـب، المعلـم ماسـين صانـع الأحذيـة، أو السـيد أفـولاي تاجـر الملـح، أو أشـخاص مختلفـون؛ يأتـون إليـه ليتناولـوا الكسـتناء اللذيـذ، وأيضًـا ليتجادلـوا معـه في الفكـر والفلسـفة، وعلـوم الطبيعـة والحيـاة. لكـن أنـير ظـل يسـتغرب زيـارة زهـرة الجمـر؛ المراهقـة الأمازيغيـة التـي كانـت ترهـق حواسّـه، وهـو يشـاهدها تعـبر أمامـه دون أن تعـيره أدنـى اهتـمام، غـير أنهـا سرعـان مـا كانـت تتوقـف غـير بعيـد عنـه، وتتأملـه بنظـر حـادّ موجـع أشـبه بحريـق يسـتعر داخلـه، ثـم مـا تلبـث أنْ تغـادر بسرعـة... وحينـذاك كان أنـير يتيـه في موجـة عجيبـة مـن حـيرة غـير مفهومـة، وتتلبّسـه حالـة خـوف مـن المراهقـة الرهيبـة في فورانهـا الداخـلي، الـذي يشـعر بـه وكأنـه غليـان مـاء في مرجـل.

ذهب إليها مرة، وخاطبها بعدما استجمع كل قواه وشجاعته:

-...؟!!

لم يسـتطع النطـق بكلمـة، لكـن الفتـاة المراهقـة الدافئـة شـجعته بصـوت رخيـم، انسـاب في أعماقـه البعيـدة كخريـر مـاء في جـدول صغـير:

- قل، لا تخف يا أنير.

- لكننـي أخـاف.. أخـاف منـك؛ لذلـك لا أسـتطيع أن أقـول أي شيء!..

- ماذا تقصد؟

- أنتِ مخيفة، وتشعرينني بضعف غير معتاد في شخصيتي!.. أريد الهرب منك.

ابتسمت زهرة الجمر، وافترّ فمها البديع عن أسنان بيضاء ناصعة:

- هل أفهم أنك تحبني؟

- لا، لقد تجاوزت هذا الإحساس بمسافة شاسعة، وأعرف أن فرصة التلاقي فوّتناها معًا، في لحظة خاطفة، حين مر كل واحد منا جنب الآخر من غير أن يُشْعِره بوجوده!

ابتسمت زهرة الجمر من جديد، لكن ابتسامتها الخادعة كانت تحمل مرارة كئيبة للغاية، وأحسّت وكأنها تمضغ لُب الحنظل، وأنها تضع يدها على جمر ملتهب:

- إنه كلام قاس لم أتوقعه!

نظر أنير إلى الحركة الدؤوبة في السوق، وشاهد كل شيء يتحرك أمامه، ولكنه لم يشاهد أي شيء محدد! أنزل عينيه الحزينتين إلى الأرض، وقال بصوت خاوٍ:

- إنها الحقيقة التي لم أتوقعها أنا أيضًا، ثم إن...

لم يكمل كلامه؛ فقد ابتعدت زهرة الجمر بخطوات رشيقة وحالمة، واختفت في النهاية بين المتسوقين. تابعها بعيون ذابلة، وشعر بإحباط وفجيعة رجّت قلبه المُرْهَف المعذب.. وحينذاك أدرك بحرقة، يصعب هضمها، أن زهرة الجمر قد انفلتت من بين يديه إلى الأبد!

مشى أنير طويلًا وسط الغابة، حتى بدا وكأنه لن يستطيع اجتيازها إلى الجهة الأخرى أبدًا، وبدأت شمس منتصف النهار الخريفية تتخلل الأشجار، والعرق الممزوج برائحة أوراق الأَرْز الذابلة يغسل وجهه وعنقه. انسكب عليه، فجأة، ضوء الشمس الفاتر بعد سير طويل وسط ظلال أشجار كثيفة، واستطاع أن يرى ملابسه، وقد تلطّخت ببُقع قطرات ماء كانت تسقط عليه من حين لآخر، وذَرْق عصافير التصق على ثيابه، وتوزعت على صدره وساقيه فراشات صغيرة رمادية ميتة ومدفونة في خيوط عناكب. أصيب بفزع لبشاعة منظره، ولكنه أيقن أنه حتما سيجد نهرًا أو نبع ماء قريبًا ليغتسل فيه، وينظفَ ملابسه من كل الشوائب العالقة بها.

بدأ التعب يأخذ منه مأخذه. أخرج عُبُوَّة الماء المغطاة بقماش من قُنب مبلل، ثم عبّ جرعات متتابعة. عليه أن يحافظ على أكبر قدر من الماء، ولأطول زمن، لن يكون بمقدوره أن يجد ماءً وسط هذه الغابة. تصور لحظة لقائه الفتاة الرومانية، دهشة وجوده أمامها، انبهاره بجمالها، تأمله العميق والطويل في عينيْها المرسومتين بألوان من عسل ذهبي فاتر، وشعرها الأشقر الهادر المنسكب كيمامة تطير بهدوء في عشية هادئة، ووجهها الأبيض المُشْرب بحمرة مثل حبة تفاح في أتمّ نضجها، وفمها المنفرج على ابتسامة تشبه الفجر في بزوغه على امتداد صحراء عذراء.. هذه هي صورتها التي ظلت

مرتسمة في ذهنه منذ سنوات مراهقته، تُرَى هل أبقته بدورها في ذاكرتها كل هذه السنوات التي مرت؟!

واصل المشي بخطوات متثاقلة. هدّه التعب، وشعر - في الأخير - وكأنه يسير مغمض العينين، يجُرّ رجليه جرًا. نظر نحو السماء، فلمْ يَرَ غير أشجار عالية متشابكة، وركام من ظلال عتيقة. شعر بجوع ينهش مِعْدَته. أصرّ على ألاّ يتناول شيئًا قبل مغادرة الغابة نحو الجهة الأخرى.. هناك سيتمكن من رؤية المجال، وسيكتشف المحيط، لعله يصادف نهرًا أو نبعًا يغتسل فيه، وينظف بمائه ملابسه الملوثة.

فجأة لمح ضياءً منبلجًا في أبعد نقطة من الغابة، فأدرك أنه على وشك مغادرة هذا الحيز الغابوي المغلق. وبعد مسير قليل، شاهد من داخل الغابة مرْجًا أخضر على امتداد البصر. جدَّ في السير بحيوية وبعنفوان أمدّاه بطاقة جديدة. وفي اللحظة التي هَمَّ فيها بالتوقف على حافة مخرج الغابة، في محاولةٍ غيرِ واعية للتهيُّؤ لمرحلة أخرى من سفره، سمع حركة من حوله. وقبل أن يستدير ليستطلع الأمر، ارتطم شيء ثقيل بمؤخّرة رأسه، وشعر بألم حادّ ارتج له دماغه، ورأى نجومًا تسطع أمامه؛ نجومًا تسبح في سماءٍ من دم. سقط منكفئًا على وجهه فوق الأرض. كانت الشمس في تلك الأثناء تتجه، بهُدوءٍ، نحو الغروب، والطيور تعاود ضجيجها وشقشقتها الدائبة؛ بحثًا عن مكان آمِن للنوم. واندلع هديل يمام كئيب، تكسّر رتيبًا مع السحاب الأحمر الهارب مع الشمس.

الفتاة المذعورة

استيقظ في ضُحىً على دفء غير معتاد. شعر بحرارة شمس تلامس ظهره، كما تلامس يد فتاة ناعمة جسدًا منهكًا ومثقلاً بالشهوة. استطاع أخيرًا أن يفتح عينيه بصعوبة. لم يستطع رؤية الكثير، لكنه رأى ضوء النهار. حاول الجلوس، وبذل جهدًا مضنيًا ليتمكن- في الأخير- من حَمْل جسمه من فوق الأرض، وأحس بألم يلدغ مؤخرة رأسه، فوضع يده على مكان الألم.. تجمد من الهول حين لمس الجرح الغائر، ورأى الدم المتجلط الذي لصق بكفه...

تساءل بروع:

- ماذا حدث؟!

لا يستطيع تذكر أي شيء.. فقدَ القدرة على استرجاع ماضيه، وأضحت ذاكرته مفرغة تمامًا. سقط مغشيًا عليه فجأة. راعه أنه لا ينتمي إلى أي شيء، وأنه غريب عن نفسه! ورأى، في غمرة الدوخة التي طوّحت به، وكأنه في وهم ذاكرة مفقودة.. الأرملة الفاتنة ليفيا حين وقفت أمامه، ذات يوم بعيد، بدلال يسيل من كل تقاطيع جسدها المثير، واشترت منه بعضًا من الكستناء الطازج، ثم قالت له بصوت ناعس وقع في نفسه وقعَ رذاذ مطر ربيعي:

- أحتاج إليك.. حين تنهي عملك زرني في المنزل.. سأنتظرك.

انصرفت بمشية راقصة، وأردافها المكتنزة تهتز اهتزازًا يشدّ أنظار الرجال الشبقة، إلى أن ابتعدت واختفى طيفها وسط المتسوقين والباعة.

وبعدما أنهى أنير عمله في المساء، أودع عربته الخشبية العتيقة، وما تبقى من كستناء، في مخزن العجوز كارينو، وتوجه- بخطوات حثيثة- إلى منزل الأرملة ليفيا. طغى الهدوء على ساحة السوق، وتناثرت بقايا بضاعة من خضرة وفاكهة فاسدة، وأواني خزف مهشّمة، واستمر بعض الباعة يجمعون أمتعتهم وخيامهم الصغيرة المهترئة. اجتاز أنير وسط السوق، ثم مرّ بشارع القاضي، وانعطف إلى حي الحجر، وطرَقَ باب منزل الأرملة ليفيا. انتظر قليلاً، وبدا له- في الأخير- وكأن الباب لن يفتح أبدًا! وحين هَمَّ بالانصراف، فتحت المرأة المثيرة الباب، فبَدَا وجهها المليح متفجرًا بحمرة حمام ساخن خرجت منه للتوّ، وتدلى شعرها الأحمر المجعد المبلل بالماء على ظهرها وصدرها كسبائك من معدن نفيس.

- ادخل يا أنير.

دخل أنير، فانتبه إلى فخامة المنزل، وإلى الأثاث الباذخ الذي أُثِّثَ به، ومشى فوق بساط أحمر في الممرّ، قبل أن تطلب منه ليفيا الجلوس في قاعة الاستقبال؛ قاعة مزيّنة بسجاد أنيق، وبمجالس من الصوف والحرير الخالص، وتدلت من السقف ثريات من زجاج البلور، زُرِعَتْ فيها شموع ملونة بألوان الطيف.

جلس أنير، فتأمل صحن الفاكهة وإبريق الشراب. أفرغت له مضيّفته قدْحًا من معدن نحاس نبيذًا قويًا فاحت رائحته من الفور. تسلمه من يدها، ولكنه قال وهو يضعه أمامه على الطاولة الصغيرة:

- لن أشرب إلا هذا القدح.

- إنه شراب مُعتَّق، ومن نوعية ممتازة!

- لا أحب أن أُسْكَر! أعرف هذا النوع من النبيذ.. إنه يُسكر بسرعة!

- فلتسكر إذًا، وما المشكل؟!

- قد ترين مني ما لا أحب، وما لا تحبين!

- لا أفهم؟

- أقصد أنني حين أسكر آتي بتصرفات ربما لن تعجبك، أو ربما أضرّت بك وبي.

ضحكت ليفيا، وقالت بخبث امرأة ذكية:

- ربما العكس.

ارتشف أنير أول جرعة من قدح النبيذ، وتلمّظ مذاقه الرائق. وضعت ليفيا ساقًا على ساق، فظهرت فخذها بيضاء مصقولة، والتصق القماش الحريري بوسطها، فأظهر تقاطيع واضحة لخصرها البديع، وانفرج ثوب صدرها، فكشف جزءًا من ثديين نافرين. شعر أنير بالأمور تسير على نحو مثير، وأدرك أنه استُدْرِجَ إلى محرقة من لذة معذبة ومستحيلة. تأوّه، وصَرَفَ نظره نحو النافذة، فسمع شدو عصافير في الخارج، ورأى السماء مغطاة بغمام غروب أحمر شفاف.

- قلتِ إنك تحتاجينني في أمر...

- أحتاجك، يا أنير، في كل أمر. دع جلستنا تطول، وسترى كم سأحتاجك.

- ولكنني مضطر إلى الانصراف.

- أشعر وكأنك تهينني!

ضحك أنير ضحكة ساحرة تكسّرت في الأجواء بوداعة:

- أنتِ أكبر من أن يهينك أحد، وإنما أنا شخص نذرت نفسي لفتاة أخرى.. أرجو أن تحترمي في نفسي هذا النذر.

- حسنًا، لطالما كنت متميزًا، حتى في تنطُّعك أيها البربري الجميل.

غادر منزل ليفيا، فوجد أمام وجهه ظلامًا ينزل ببطء على أزقة بلدة دريو وبيوتها. واصل المشي في اتجاه منزله البعيد، ورأى السيد أفولاي يسير في الاتجاه الآخَر، معفّرًا بالملح وبنور المعرفة التي بدت لأنير تتوهج على نحو عجيب من داخل الكهل، الذي يختزل عالمه كله في القراءة والمجادلة والتجارة في الملح.

«اللعنة! لقد سرح بالي بعيدًا، ورأيت أشياء غريبة!. من هي ليفيا؟، ومن هو السيد أفولاي؟».. ردد أنير متسائلًا، وهو يواصل السير بإجهاد وسط التلال في الخلاء، لكنه أدرك أن هذه الأسماء لن تكون غريبة عنه.

أصبح مُنْهَكًا؛ فبعد مسير طويل، لم يصادف في طريقه كائنًا

بشريًـا، وكأن المنطقـة مهجـورة! ظهـرت لـه في الأفـق تـلال متوسـطة العلـو، كيـف يسـتطيع ارتقاءهـا، وهـو منهـك القُـوى؟ لكنـه سرعـان ما تصـور، بخيـال ملهـم، قريـة قـد تكـون خلـف تلـك التـلال، وأمازيـغ طيبـين يحتفـون بالغربـاء ويسـاعدونهم.

واصـل السـير في غمـرة حماسـة اسـتثنائية، وأصبـح قريبًـا مـن التـلال التـي اتضـح لـه أنهـا أقـل علـوًا ممـا تصـور. ورأى الشـمس تتهـادى نحـو المغيـب، والنسـيم المسـائي يتسرب إلى روحـه مُحَمَّـلاً برائحـة خـواء محبطـة، ورأى طيـورًا سـوداء بعيـدة جـدًا تحلّـق عاليًـا. تحسـس الجـرح في مؤخـرة رأسـه، الـذي أصيـب بـه في مخـرج الغابـة.. وجـده بـاردًا، ينضح بـألم لا يحتمـل.. كان لا يـزال لزجًـا، وبعـض الـدم المتجلـط يغطيـه.

غابـت الشـمس تمامًـا، وبـدأ الظـلام يرمـي ببعـض قطـع منـه بـين التـلال. واصـل السـير بـإصرار، ولم يفكـر في النـوم، أو التوقـف للاسـتراحة. توجـس مـن وحشـة المـكان والظـلام، وجرحـه الـذي قـد يسـتفز حاسـة الشـم لـدى هـوامّ الليـل. جرجـر رجليـه بإجهـاد، مرتقيًـا التـلال التـي بـدت وكأنهـا لا تنتهـي. لكنـه فجـأةً سـقط عـلى الأرض، وفجـأة أيضـا جرفـه نـوم عميـق. اسـتيقظ في صبـاح الغـد مذعـورًا، فـرأى الفجـر منتـشرًا حولـه، ووجـد نفسـه وحيـدًا في الخـلاء وسـط بـراز ثعالـب، وخيّـل إليـه وكأنـه محـاط برائحـة متفشـية لذئـاب تشـممته ليـلًا، أو ضبـاع أو حيوانـات مـا.. كانـت الرائحـة قويـة في خيالـه إلى درجـةٍ لم يسـتطع معهـا ألا يتصـور عـدم وقـوع مثـل ذلـك الاحتـمال. رأى المحيـط مـن حولـه مُشـكلًا مـن تـلال ملونـة بنـور الفجـر الأحمـر؛

تـلالٍ مـن تـراب قاحـل أصفـر، وبـرد قـارس يلسـع جسـده المنهـك. نهـض بتثاقـل. وجـد لباسـه مبلّـلاً بنـدى ليـلي بـارد وكريـه، وكأنـه نـام في بركـة مـاء ملـوث. سـار بخطـوات متثاقلـة صاعـدًا التـلال الصغـيرة، واندفعـت أنفاسـه بقـوة، وشـعر بإعيـاء غـير محتمَـل. واصـل المـشي وسـط قـذارة تهاجـم كل شيء في نفسـه. عـاف ملابسـه وشـعرَه الأشـعث المخلـل بالـتراب وبالحـشرات الصغـيرة وخيـوط العناكـب. أبـصر أخـيرًا كوخًـا صغـيرًا عـلى بُعْـد مسـافة متوسـطة، وكان قـد اجتـاز التـلال تمامًـا.. بـدا الكـوخ وحيـدًا ومحاطًـا بحديقـة صغـيرة، وبضعـة أغنـام ترعـى في مَـرْج أخـضر. واصـل المـشي. دنـا مـن الكـوخ. لم يـر بـشرًا، وبـدا المـكان مجـرد خـلاءٍ ممتـدٍّ بـلا نهايـة. سـمع ثغـاء الأغنـام وصيـاح ديكـة. وبـدا الكـوخُ متواضعًـا، مبنيًـا بطـوب وقصـب؛ كوخـا محاطًـا بأشـجار زيتـون وفاكهـة.. لقـد رأى الحيـاة مـن جديـد، وتصـور أنـه يتنفـس شـذاها. أحـس بالعطـش والاجهـاد، ولم يتأكـد مِمّـا إذا كان سيسـتطيع الوصـول إلى البـاب ليطرقـه أم لا. حـاول أن يرفـع صوتـه ليسـتنجد بسـكان الكـوخ، ولكـنْ ضـاع صوتـه بعيـدًا داخـل نفسـه. وجـد نفسـه بمعجـزة أمـام البـاب بعدمـا جـر رجليـه بجهـد مُضْـنٍ؛ فهَـمَّ أن يطرقـه، لكـن البـاب فُتـح، وبمصادفـة عجيبـة، مـن قِبَـل فتـاة شـابة.. وجههـا مـضيء كالبـدر، وشـعرها منسـدل حـالم، وفمهـا مرسـوم كـوردة في بدايـة تفتحهـا.. أمازيغيـة الملامـح، واسـعة العينـين، سـوداء الشـعَر، نافـرة الشـفتين. أحـس بأنـه يغـرق في دوامـة غريبـة مـن الحـيرة والإعجـاب، وكانـت الحـيرة والخـوف يلفّـان الفتـاة أيضًـا:

- «أنـتِ.. فـين.. فينـو.. فينـوس؟!!» قـال، ثـم سـقط عـلى الأرض

بالقــرب مــن قدمــي الفتــاة، وارتطــم رأســه بعتبــة البــاب، فشــجّ وســط جبينــه. صرخــت الفتــاة مذعــورة، وهرولــت مرتــدّة إلى الخلــف داخــل الكــوخ، مناديــة والدهــا برعــب. وفي تلــك الأثنــاء، رأى أنــير نجومًــا تســبح في ســماء مــن دم، ورأى وســط تلــك النجــوم نجمــة مختلفــة جــدًا؛ نجمــة تبعــث إشــعاعًا باهــرًا؛ إشــعاعًا نورانيًــا اســتقر في قلبــه تمامًــا.. إنهــا تشــبه الإلهــة فينــوس، والفتــاة الرومانيــة التــي رآهــا في زمــن بعيــد مضى.

لماذا تذرعين ضفافي جيئةً وذهابًا وأنتِ مضطربة،

إيليا[1]*،*

يا طفلة طروادة وسلسلة نسبها؟

لماذا تسيرين وحيدة؟

لماذا تَتجرجرين في الوحل؟

ولا من شريط أبيضَ مجدولٍ لتربطي شعرك؟

معركة الذئاب وأسطورة سانيس

تشمُّ سانيس، خلال تجوالها في شوارع وأسواق أرتو، رائحة خبز الشعير والذرة، والأريج الفريد الذي تفرزه نشارة الحِرفي المتحمس السيد ريمس. تقع حدادة السيد كاجي، خلف الشارع الثالث، المحاذي للقصر الرئاسي التي تقطنه سانيس، والسيد كاجي رجل مسنّ أبيض اللحية والحاجبين، وحاجباه كثيفان وطويلان يكادان يخفيان عينيه المغمضتين، يكتفي بالجلوس بالقرب من ورشته مستمتعًا بالضرب الرتيب على السندان لمطارق الشابّين اللذين يشغّلهما، ويشعر بنشوة عندما يشمّ رائحة الحديد التي تذكره أحيانًا برائحة جلد متفسخ لماعز، وأحيانًا أخرى برائحة فاكهة عفنة مرمية وسط وعاء من ماء ورد.

---

(1) إيليا، إيليا، ريا سيلفيا، عذراء ربة الموقد، أغواها مارس فولدت ريموس وروميلوس، لكن خالها أموليوس حكم عليها بالتخلي عنهما وإلقائهما طافيين على النهر. وقد نجيا وأرضعتهما ذئبة -كما تروي الأسطورة- وهما مؤسسا روما.

لا شيء محـددًا يميـز الأمـيرة سـانيس، سـوى جمالهـا وجاذبيتهـا الباهـرة، ولكـن، في الوقـت نفسـه، وعـلى نحـو عجيـب، كل شيء يميزها مِـنْ غيرهـا، ويجعـل منهـا أمـيرة اسـتثنائية جـدًا.. هـذا هـو الانطبـاع الـذي تتركـه في ذهـن كل شـخص يراهـا لأول وهلـة.

مـع بدايـة انتهـاء نضـج مراهقتهـا، ودخولهـا سـن العشريـن مـن عمرهـا، شـعرت بفراشـة مزوّقـة تدخـل قلبهـا دون اسـتئذان، وحرّكـت تلـك الفراشـة في أعماقهـا، برفرفتهـا الوديعـة، مشـاعر غامضـة ومدغدغـة. وسرعـان مـا اكتشـفت بـروع أنهـا تحـبّ، ولكنهـا لم تعـرف مـن هـو الشـاب الـذي سـقطت في لظـى هـواه! فكـرت- بدايـةً- في ماريـوس؛ ابـن سيسـاو، نائـب والدهـا أوريليـوس سـيبيو، حاكـم مدينـة أرتـو. ذهبـت إلى ماريـوس الـذي كان يجلـس مـع رفقائـه خـارج المدينـة، لكنهـا اكتشـفت فيـه شـيئًا جعلهـا تؤمـن، مـن دون تـردد، بـأن هـذا الشـاب لا يمكـن أن يكـون فـارس أحلامهـا، رُغـم وسـامته اللافتـة.. نظـرت إليـه طويـلًا، وفي تلـك اللحظـة أشـعلت سـانيس محرقـة حـب صاخـب في قلـب الشـاب؛ حـب سـيظل يشـوي مشـاعره زمنًـا طويـلًا.

حاولـت البحـث عـن شـاب يشـبه شـابًّا فريـدًا في كل شيء، بـدأت تـراه في أحلامهـا، لكـن ملامـح هـذا الشـاب كانـت دومًـا نائيـة وغـير واضحـة، تعيدهـا إلى ذكـرى بعيـدة في مدينـة بعيـدة لم تعـد تذكـر اسـمها! ذهبـت إلى مدرسـة بنايـة الرئيـس؛ حيـث يتابـع أبنـاء أعضـاء وأمنـاء المدينـة وعليّـة القـوم دراسـتهم فيهـا، فانتظـرت خروجهـم جميعًـا مـن بـاب المدرسـة الكبـير، لكنهـا عـادت بنتيجـة مخيّبـة.. لم تجـد فـارس

أحلامها بَعْدُ، غير أنها أشعلت من جديد حرائق عشق في قلوب شبّان كثيرين، واحتاجت سانيس إلى زمن طويل، وتجاهل أطول، لتجعلهم جميعا ييأسون منها تمامًا.. لكنها الآن تدرك، بيقين لا يقبل الشك، أن الحب المدسوس في قلبها، هو لشاب أصبح واضحًا في ملامحه وهيئته البهية، وأضحت تراه في أحلامها أكثرَ، وأيقنت أنه قادم إليها، وأنهما- لا محالة- سيلتقيان في الأخير.

واصلت سانيس عبور الشارع المبلط بحجر أزرق داكن عتيق، وكانت الدكاكين قد فتحت أبوابها مبكرًا؛ لأن عدد الوافدين على المدينة أصبح يتضاعف يومًا بعد يوم، وطلبات شراء المؤونة تتزايد استعدادًا لموسم الشتاء المقبل. مدينة أرتو مدينة نَشِطة على الدوام، تمر بها قوافل كثيرة، وتعرف حركة مزدهرة للتجارة ومصانع النبيذ وورشات صناعة الخشب والزجاج والحدادة، أسواقُها عامرة بالبضائع المحلية والمستوْرَدَة.. إنها مدينة منفتحة على كل شيء، وتحفظ أمنها وهدوءها بقوانين زجْرية قاسية بحسب من وضعوا لها تلك القوانين، ولا أحد يعرف من وضع تلك القوانين؛ لأن حكام المدينة يدّعون شرعية مستمَدّة من الآلهة، وأن القوانين التي يحكمون بها هي قوانين من إلهام الآلهة.

مشت سانيس، بخطوات غزالة رشيقة، بمحاذاة سور المقر الرسمي لحاكم المدينة، وحاكم مدينة أرتو ما هو إلا والدها السيد أورليوس سيبيو، ولم يكن هذا الأمر مبعث افتخار بالنسبة إلى سانيس، بل لطالما وجدت فيه الكثير من القيود،

التـي تجـد مـن حريتهـا الكاملـة؛ فهـي، في كل الأحـوال، تُعامَـل علـى أسـاس أنهـا أمـيرة وابنـة حاكـم المدينـة، وهـذا التعامـل، غـير العـادي؛ كـما تـراه، لم يكـن يعجبهـا إطلاقـا. واصلـت سـيرها، ووقـعُ أقدامهـا يمتـزج بصخـب النـاس والباعـة والحركـة، التـي لا تـكاد تتوقـف في شـارع بنايـة الرئيـس.. هكـذا يسـمى الشـارع الأكـبر في المدينـة، وأطلـق هـذا الاسـم عـلى الشـارع؛ لأن المقـر الحكومـي يقـع وسـطه، والمقـر هـو تجمـع لأعضـاء وأمنـاء المدينـة، وفيـه يتقـرر كل شيء يخـص مصـير الاقتصـاد والضرائـب والحـرس والتحكيـم في المنازعـات، التـي قـد تندلـع بـين فـلاح وآخـر حـول أرض، أو بـين تاجـر وممـوّن، أو لأسـباب مختلفـة تتعلـق بالإجـرام الخطـير الـذي قـد يُرتكـب بـين فينـة وأخـرى، والأحـكام تصـدر دائـماً باسـم الآلهـة، وتُسـتمد شرعيـة الحاكـم وأعضـاء وأمنـاء مجلـس المدينـة مـن الآلهـة أيضًـا. سـانيس أمـيرة حالمـة، تعيـش عوالمهـا الخاصـة العجيبـة، ولا تندمـج كليًـا في مجتمـع أرتـو، ولـو شـكليًا؛ إذ غالبًـا مـا وُصفـت خفيـةً، مـن قِبَـل أكثريـة سـكان المدينـة، بأنهـا أمـيرة انطوائيـة. لقـد كانـت تحلـم باسـتمرار، ولم تكـن الأحـلام بالنسـبة إليهـا شـيئًا نمطيًـا كباقـي أحـلام النـاس؛ فـكل أحلامهـا تُختـزل في رجـل بهـي الطلعـة، متوسـط الطـول، متـوازن في شـكله، كان يقبـل نحوهـا بملامـح واضحـة، مـن بعيـد جـدًا، ولكنـه مـا يفتـأ يفقـد ملامحـه كلـما اقـترب منهـا، لينتهـي - في الأخـير - مجـرد طيـف بـلا شـكل ولا لـون، قبـل أن يتلاشـى نهائيًـا. ولطالمـا لازمهـا هـذا الحلـم في شرودهـا، الغالـب عـلى طبعهـا، وظـل يباغتهـا في الكثـير مـن

لياليهـا، وأحيانًـا لبضـع مـرات في الليلـة الواحـدة. وأصبحـت تلـك الأحـلام، في الآونـة الأخـيرة، تلـحّ عليهـا عـلى نحـو كثيـف ومثـير لمخاوفهـا!

فكّـرت في زيـارة حـي جبـل الأمازيـغ.. فهناك رجـل طاعن في السـن، يقـرأ الطالـع، ويفـسر الأحـلام.. هكـذا تسربـت إلى نفسـها هـذه المعلومة التـي لم تعـد تتذكّـر مصدرهـا، وهـل حقًـا هنـاك في ذلـك الحـي شـخص بهـذه المزايـا؟، بـل لم تفكـر أيضًـا في المخاطـر التـي يمكـن أن تتعـرض إليهـا في ذلـك الحـي، ولا المـأزق الـذي سـتضع فيـه أباهـا أوريليـوس سـيبيو، لـو رآهـا أحدهـم تلـجُ ذلـك الحـي المُعَلَّـق عـلى منحـدر جبـل عـال، تبـدو بناياتـه الصغـيرة الملونـة، المرصوصـة بدقـة، مـن وسـط المدينـة كحقـول صغـيرة لزراعـات أرضيـة في وقـت اخضرارهـا.

- «سانيس.. سانيس..». ناداها أحدهم، وهو يركض نحوها:

- بحثت عنك طَوال الوقت.. ولم أعرف كيف أجدُكِ!

ضحكت بسخرية بريئة:

- ولماذا تريد أن تجدني؟!

- «لـديّ مـا أقولـه لـكِ يـا سـانيس..». قـال الشـابّ الوسـيم الـذي يرتـدي ثوبًـا أنيقًـا، وينتعـل حـذاءً لامعًـا مـن جلـد خالـص، ووجهُـه متـورّد منـشرح ينبـئ عـن نعمـة. نظـرت إليـه سـانيس بوجههـا المُفعَـم بجاذبيـة طبيعيـة.. إنهـا مـن تلـك الشـاكلة مـن الفتيـات اللـواتي يمتلكْـن سـحرًا غامضًـا، لا يمكـن اختزالـه في جزئيـات معينـة مـن جسـدها أو

روحهـا، التـي تُشـعر المـرء وكأنـه يشـم شِـياط احـتراق رحيـق مهـول، وهـو بجنبهـا:

- قـل، لقـد تعـودتُ مـا تقولـه دائـماً، لكننـي أتوقـع أنـك لـن تدهـش حـين تسـمع الجـواب نفسَـه أيضًا.

- لا، هذه المرة...

لم تترك سانيس الشابّ ليُكْمل العبارة، فقالت بعفوية شديدة:

- هذه المرة ستقول لي إنك تحبني للمرة الألف؟!

ارتبك الشاب، واحمرّ وجهه خجَلًا:

- نعم يا سانيس.. وأريد أن أطلب يدكِ.. أريدك زوجة...

ابتسـمت، وفـاض منهـا نـور باهـر انعكـس عـلى وجـه الشـاب المذهـول:

- لا تفعـل!. لـن تكـون أنـت أبـدًا، ولـن يكـون غـيرك.. هو شـخص واحـد، ولا أحـد يعرفـه في هـذه المدينة!..

ارتـدّ الشـاب إلى الـوراء. سـحب نفسـه مـن الموقـف مُخْفيًـا دموعًـا صادقـة، بـدأت تسـيل مـن مآقيـه.

واصلـت سـانيس سـيرها وسـط المدينـة. اجتـازت سـوق الخـضرة والدواجـن، غـير عابئـة بتلطيـخ ثوبهـا الجميـل بقِطـع فواكـه مدهوسـة بأقـدام المـارّة، ولا بريـش الإوزّ الـذي تطايـر ونثـر عليهـا رائحـة نَتِنـة لـن تـزول سريعـا. مـرت وسـط دكاكـين العطاريـن، ونفـذت إلى أنفهـا

روائح الثوم والفلفل الأحمر الحار والزنجبيل والزعتر والبقدونس المجفف. ولم تعبأ كذلك بنظرات الشباب النَّهِمَة إلى جسدها المنحوت كإلهة هاربة من أسطورة مدهشة. لقد تعودت الأمر، بل أكثر من ذلك أنها تعودت، بعفوية، تصيّد الكهول والشيوخ، وهم يتابعونها بنظرات داعرة، عندما تمر بجوارهم، وكأنها تحمل في جسدها تميمة جاذبة كالمغناطيس السحري!

وجدت نفسها أخيرًا في مدخل جبل حي الأمازيغ. رأت أزقة ملتوية ضيقة، تسيل منها مياه ملوثة سوداء، وجدران بيوت بائسة مبنية بالقصب والعيدان؛ بيوت ملطخة بصباغة نباتية باهتة أصابتها التعرية بسبب الزمن والأمطار. وتناهى إلى سمعها عزف موسيقي صادح تغلغل في كيانها، وحبس أنفاسها. اتكأت على جدار عتيق، وسرحت في حلمها المعتاد. وقبل أن تتخلص منه نهائيًا، وبعد سير حالم وطويل، وخطوات متعبة جعلتها تشعر كما لو أن تلك الخطوات ترميها في الهواء، وكما لو أن جسمها تحوَّل فجأةً إلى نُدفة ثلج خفيفة، وجدت نفسها- في نهاية المطاف- تدخل باب القصر الذي بناه والدها على مساحة كبيرة، أغلبها زرعت بأشجار الرمان والمشمش واللوز، على حين زرعت شجيرات الورد داخل الحديقة الصغيرة الملحقة بالقصر. استيقظت سانيس حينذاك تمامًا من دوخة الحلم، فوجدت الخدم منشغلين برشّ ساحة الحديقة بالماء، وبسقي أشجار الورد. وفي الداخل ألْفَتِ الخادمة بيرينة منهمكة في المطبخ تهيّئ وجبة الغداء.

وبعد قليل، سُمعت حركة دؤوبة معتادة في المنزل في مثل ذلك الوقت من النهار. دخل والدها إلى المخدع الخاص به، ولكنه- هذه المرة- طلب سانيس على عجل، فذهبت إليه غير عابئة. سألها بهدوء:

- لماذا ذهبتِ إلى حي البربر؟

أجابت بعفوية:

- لم أكن في حي البربر.

- لكنني أُبْلِغْتُ من قِبَل شهود ثِقات بأنك كنت هناك!

جالت قليلاً بعينيها على سقف البيت، وخُيِّل لوالدها أوريليوس سيبيو وكأن السقف يصدر هسيسًا خفيفًا، ولكنه لم يصدّق أوهامه. أجابته سانيس:

- لا، ليس صحيحًا.. لم أكن في حي البربر.

- أين كنت إذًا؟

- تأمّلْتُه قليلًا من الخارج. ولو أردت زيارته ما منعني أحد.

ضرب أوريليوس سيبيو قبضته بلطف على المائدة. بدا وكأنه يكاد يفقد أعصابه، وتسمّرت سانيس تنظر إليه ببراءة، غير مدركة سببَ غضبه، بل أشفقت على والدها.. لقد بدا لها، في تلك اللحظة بالذات، أشبه بمجنون، بل تصوّرته طفلًا صغيرًا لا يعرف أشياءً كثيرة في هذه الحياة، واستغربت كيف أن الناس يعيشون واقعًا سطحيًا تعيسًا، على حين يفوتهم الاطلاع على الواقع الحقيقي العميق!

- نائبي يطلبك زوجة لابنه، ولقد أبلغني أن ابنه من المُفتَرَض أن يكون قد أخبركِ بالموضوع.

- نعم، لقد أخبرني.

صمت والدها، وهو ينتظر من ابنته موافقة يعرف أنها شبه مستحيلة، فقالت سانيس:

- لن أتزوجه، ولن أتزوج غيره!

- هل أفهم أنك لن تتزوجي أبدًا؟!

ردّتْ بعفوية:

- كلاّ، سأتزوج ذلك الشاب الذي يعرض لي في الأحلام.

ضحك أوريليوس سيبيو ضحكة مترهلة ومرة، فابنته الوحيدة العزيزة على قلبه.. يراها تنجرُّ يومًا بعد يوم نحو هاوية جنون غير مفهوم، ولكنه هو الحاكم؛ حاكم مدينة أرتو، لا يستطيع مساعدتها! أشفق عليها. بدت له فتاة لا تعرف مصالحها:

- سانيس.. بُنَيّتي، الشابُّ الذي يطلبك زوجةً له هو، علاوة على كونه ابنَ نائبي، عضوُ مجلس أمناء المدينة، وأكبرُ تاجر للسجاد في المنطقة، بل يمتلك قصرًا بديعًا لا مثيل له، وقبل كل ذلك فهو يحبّك، وأخلاقه طيبة جدا.

- «إنه.. كما قلت يا أبي، شاب رائع، وغني أيضًا، وله قصر، ومع ذلك لا أريده زوجًا لي!» قالت سانيس، ثم غادرت. وحينذاك، تأكدتْ فعلاً مِنْ أنّ الرجال، أو أغلبهم على الأقل،

إما سُـذج إلى درجـةٍ تبْعـث عـلى الشـفقة، وإمّـا أنهـم متسـلطون إلى درجـة تدعـو- أيضًـا - إلى الشـفقة، بمـن فيهـم والدُهـا طبعًـا. ظلـت سـانيس، عـلى الـدوام، تؤمـن بأنـه لا سـلطة لشـخص عـلى آخَـرَ، لكنهـا آمنـت دومًـا بأشـياء خفيّـة لا يعلمهـا أحـد.. تفـرض نفسـها بقـوة عـلى البـشر، ومـا حُلْمُهـا الـذي يعـرض لهـا في اليقظـة والمنـام إلا تجسـيدٌ لهـذا الانطبـاع. غـادرت حجـرة والدهـا، وبمجـرد اجتيازهـا عتبـة البـاب، نسـيت كل شيء! لكـن أورليـوس سـيبيو، بـدا لـه في وهـم غريـب، وكأن سـتائر النوافـذ تهتـز، وكأن كائنـات غـير مرئيـة تتلاعـب بهـا، وكأنـه يشـعر برفرفـة طيـورٍ في فضـاء الحجـرة، ومـع ذلـك لم يـر أي طائـر بعينيـه! وشـعر بريـح خفيفـة تغمـر مخدعـه، حاملـةً رائحـة بحـر كان قـد عـبره مـع جنـوده في زمـن غابـر، ورأى طيـف نـورس يطـير هاربًـا مـن شـباك النافـذة، مخترقًـا السـاتر دون أن يمزقـه.. لقـد أدرك أن مـا يـراه مجـرد أوهـام تتلاعـب في خيالـه. وللحظـةٍ شَـكَّ وكأنـه أمـام حقيقـة أن سـانيس مخلـوق غـير عـادي، وأنهـا مسـكونة بـروح مـا، ولم يتأكـد مِمّـا إذا كانـت تلـك الـروح هـي روح ملائكيـة أم شـيطانية. وحـين أحـضروا لـه الأكل، كان قـد غـرق في موجـة سريعـة مـن النـوم، حَلـم خلالهـا بأنـه يـرى حربًـا ضروسًـا أخـرى مقبلـة، تهـدد وجـود مملكـة أرتـو، وكان ذلـك الحلـم يبـدو لـه وكأنـه حقيقـة غامضـة.

اكتفـى الحاكـم أورليـوس سـيبيو باحتسـاء كأس مـن شراب اللـوز.. لقد شـعر بوهـن، وبحالةِ خمـول ويـأس. وفي تلك الأثنـاء، أُبْلِغَ- مـن قِبَل حراسـه- بأن فارسـين، يمتطيـان جوادين مطهّمـين، جاءا بأخبـار عاجلة؛ فأمـر بإدخالهـا مـن الفـور. وبعد لحظـة كانا جالسَـيْن بـين يديه:

- سيدي، لقد رصدنا جيشًا معاديًا في الطريق إلى المدينة.

صمت أورليوس سيبيو لحظة، وغرق في تفكير عميق:

- هل الأمر مؤكد؟. أقصد هل هذا الجيش يقصد مدينتنا؟

- نعم يا سيدي.. إنهم يتوجهون نحونا.

- حسنًا، وكم عددهم بالتقريب؟، وكم هي المسافة التي تفصلهم عنا؟

- إنهم يفوقون حرسنا عددًا وعدة بكثير، وتفصلهم عن المدينة مسافة سير يومين.

- أمم!

شعر الحاكم بخطورة الموقف، ولكنه تماسك.. عليه أن يُظْهر الجَلَد والقوة في حالةٍ كهذه:

- يجب إبلاغ أمناء وأعضاء مجلس المدينة الخبر للحضور في أقرب وقت إلى مقر بناية الرئيس.. علينا أن نتداول في الأمر، لنقرر ماذا نفعل.

- حسنًا، نستأذنكم سيدي.

الروح العابرة

اجتمع أمناء المدينة وأعضاؤها في مقر بناية الرئيس، وخيّم عليهم جميعًا توتر وخوف غامض؛ فلأول مرة، منذ عهود بعيدة،

ستتعرض مدينة أرتو إلى مثل هذا الاعتداء المرتقب! فكيف يمكنهم إذًا الدفاع عن أنفسهم؟. ليس لديهم جيش مدرب، ولا سلاح فعال؛ فالجنود الذين اصطحبهم معه الرئيس أوريليوس سيبيو من روما، تُركوا لحماية المناطق التي كانت تسيطر عليها مملكة ماسيسيليا. في أرتو حراس بسيوف يحسنون استعمالها، ولكنهم ليسوا مقاتلين كما ينبغي لجيش محترف أن يكون. وأكثر من ذلك، فعددُ حراس المدينة، الذين يحرصون على استتباب الأمن داخلها، قليل جدًا.. لا يتعدى المائة، ولا يمكنهم مجابَهة جيش جرّار مُدَرَّب، وبعتاد حربي يفوق عتادهم. ولكن ليس هناك الآن مجال للتفكير في مثل هذه الأمور المحْبِطة.. هكذا خاطب الرئيس أورليوس سيبيو أمناء مجلس المدينة وأعضاءَه. يجب اتخاذ موقف جادّ وسريع. انبرى شاب، يبدو- من خلال هيئته- أنه شخص متحمِّس وحازم، فطرح الفكرة الآتية:

- ليس لدينا الوقت لنضيّعه في النقاش؛ كما قال السيد الحاكم. لدينا مخزن أسلحة قديمة.. رماح وسيوف، وأعدادها لا بأس بها، ينبغي البدء حالًا بتوزيع ذلك السلاح القليل على جميع ورشات الحِدادة لشحذه جيّدًا، وجعْله قابلًا للاستعمال في القتال. كما ينبغي أن نستنفر كل من يستطيع حمْل السلاح، وأن ندعوَه إلى أنْ يجهز نفسه لهذا الأمر. لدينا بضعة حرّاس مَهَرَة في استعمال السيوف، يتحتّم عليهم، وبسرعة قصوى، تدريب الرجال لكي يتعلموا-على الأقل- كيف يحملون في أيديهم سيوفًا، ثم ينبغي صنْع دعامات حديدية قوية؛ لتحمي أبواب المدينة الأربعة المتداعية.

استحسن حاكم المدينة أورليوس سيبيو فكرة الشاب الذي لم يكن إلا ماريوس؛ ابن نائبه سيساو داسي.. هذا الشاب الذكي الذي ترفضه ابنته سانيس زوجًا لها. انفضّ الاجتماع، ووُزّعت المهامّ، وتكونت بسرعة لجانٌ لتتبُّع الأعمال والاستعدادات كما خُطِّط لها. نودي في المدينة، وأعْلِمَ بخبر المهاجمين الذين يقتربون بسرعة من المدينة لمهاجمتها، وكيف أنهم سيقتلون كل شخص، وسينهبون كل الأموال، وسيَسْبون كل النساء! أحس السكان بالخطر الداهم، وجرَت في شرايينهم دماء الحمية، وأخذوا يشتغلون، كلٌّ في ميدان اختصاصه، بإخلاص شديد، ومن دون توقف أيضًا، ولكن بعض سكّان المدينة تخاذل، وهرب منها، ونشر حالة إحباط كان من العسير السيطرة عليها. وفي ظرف يوم واحد، كان الفرسان العشرة قد درّبوا حوالي ثلاثمائة شخص على الطريقة المثلى لحَمْل السيوف والضرب بها، وكان ذلك أقصى ما يمكن فعله خلال يوم واحد من التدريب الشاقّ. كما أن ورشات الحدادة اشتغلت ليلَ نهار، دون توقف، بمساعدة متطوعين كُثُر؛ لشحْذ السيوف والرماح، وصناعة أخرى جديدة، وإن كانت - في الواقع - تلك السيوف والرماح المصنوعة من قِبَل الحدادين ليست بالجودة المطلوبة في سيوف ورماح حقيقية، غير أنها بدت - في النهاية - أسلحة تستحق أن تُحْمل في اليد.

وجُمعت الزيوت من المتاجر والمنازل، ووُضعت فوق أسوار أبواب المدينة، وتركت لتغليَ تحت نار جمر متّقد، وتشكلت فرق عسكرية رأَس كل فرقة منها مقاتل، يفترض أنه سيعرف كيف

يُوَجِّهُ فريقه بحسب سير المعركة وظروفها، على حين انزوى الشاب ماريوس، في هدوء، يخطّط للمعركة الحاسمة، ويرتّب كل الاحتمالات الممكنة، وماذا ينبغي فعله إذا كُسِرَت الأبواب؟ وماذا ينبغي فعله إذا تبيّن أن المعركة- من جانبهم- خاسرة وهل سيستمرون في القتال إلى آخر رجل؟.. وفكر في الأميرة سانيس، وخاف عليها، وتمنى لو يكون حاميها في ذلك اليوم، الذي ستشتد فيه المعركة!

مر اليوم الأول مشحونًا بالحماس والعمل الدؤوب، وخيّم على الأجواء انتظار ثقيل مَشُوب بالشك والتوجس. وفي اليوم الثاني كان كل شيء جاهزًا، بما في ذلك الخطة الحربية، التي عرضها ماريوس بخُيَلاء أمام أورليوس سيبيو؛ القائد العسكري السابق وحاكم المدينة الحالي، الذي خاض حروبا كثيرة انتصر في جلها، ولكن عزيمته الآن وهنت، وقد تقدم به العمر، وأوكل الأمر إلى الشاب ماريوس وبعض أعضاء المدينة وأمنائها.

- «أممم... حسنًا!. إنها خطة جيدة.. لا أرى أفضل منها!» قال الحاكم العليل، وأيّده الجلساء. وفي الخارج اشتعلت الحماسة في نفوس السكان، وقد ارتاحوا إلى نَتاج العمل الذي أنجزوه خلال يوم واحد فقط، وأصبحوا أكثر ثقة بعدما انضم إليهم عدد كبير، غير متوقع، من شبان جبل الأمازيغ المتحفزين، المتسلحين بالسواطير والرماح التقليدية، وعيونُهم تشتعل بشجاعة خارقة، وكان بينهم فتى اسْمُه تواهي.. صلب الجسم، وشعره طويل، ومربوط بسلك من نحاس، يطلق، من حين لآخر، زمجرة مُرْعِبة تهزّ الأزقة كلها في المدينة.

وفجـأةً تناهـى إلى سَـمْع الجميـع قـرْعُ طبـول قـويّ يقـترب شـيئا فشـيئًا، ووقـف بضعـة رجـال يراقبـون الجيـش الغـازي مـن أعـلى البوابـة الرئيسـة للمدينـة، التـي دعّمـت جيّـدًا بالحديـد الصلـب والخشـب المغطـى بصفائـح الفـولاذ، كغيرهـا مـن البوابـات الأخـرى. وكان ضمـن هـؤلاء الرجـال، الذيـن يراقبـون العـدد الهائـل مـن الفرسـان والجنـود، الشـاب ماريـوس، الـذي تأمَّـل قائـد السريـة العسـكرية المتقدمـة، الـذي يرتـدي- كـما كل جيشـه- لباسًـا مـن فـرو الذئـاب. صـاح ماريـوس مـن أعـلى سـور المدينـة بالقائـد الغـازي، بصـوت واثـق مـليء بالتحـدي:

- هلاّ أخبرتنا عن دواعي هذه الزيارة المفاجئة.

ضحك القائد باستهتار:

- أَوَ هكـذا يُسـتقبل قائـد جيـش عظيـم؟. لا أرى عـذارى جميـلات بأكـواب مـن النبيـذ، وصحـون اللحـم والفاكهـة!

ردّ ماريوس بلطف:

- أليس قبل أن نعرف سبب الزيارة؟

ضحك القائد مرة أخرى، وقال بصوت أراده أن يكون مجلجلًا:

- القائـد داوجـاب حـين يريـد شـيئًا لا يقـف في وجهـه أحـد، وأنـا أريـد أجمـل عـذارى مدينتكـم وكل كنوزهـا.. إنـه طلـب قليـل، مقابـلَ الإبقـاء عـلى مدينـة أرتـو، وحفـظ أرواح سـكانها، وإلا...

- ألمس لهجة تهديد في كلامك أيها القائد.. داوجاب!

- إنك لا تلمس، بل إنك تسمع تهديدًا حقيقيًا.. القائد داوجاب لا يمزح، بل لا يعرف شيئًا اسمه المزاح.

ابتسم ماريوس وقال بهدوء:

- لن تأخذ شيئًا!. يمكنك فقط، وفي أفضل الأحوال، أن تأخذ صعاليكَك وتنصرف، وإلا.. فستموت...

أعطى قائد الجيش الغازي إشارة بدء الهجوم بهدوء الواثق، واندلعت من الفور معركة طاحنة بين جيش أرتو الصغير والقوات المعادية. وقد أظهر الفتية الأمازيغ، وفي مقدمتهم تواهي، شراسة مثيرة في القتال؛ فقد كانوا يقطفون رؤوس الغُزاة بمهارة عجيبة، وكانوا يطلقون صرخات، لم تبث الرَّوْع في قلوب الخصوم، بل أفزعت جيش ماريوس المبتدئ أيضًا.

سمعت الأميرة سانيس بخبر غزاة يهاجمون المدينة، ولكنها لم تهتم.. بدا لها الأمر تافهًا جدًا، ولا يستحق كل هذا الهلع والروع من الناس، كما أنها كانت قد أُمِرَتْ من قبل والدها، من قَبْلُ، بألّا تخرج من المنزل ذلك اليومَ حفاظًا على سلامتها. وَزُوِّدَت بقارورة سمّ لكي تشْربها في حال اقتحام الغزاة المنزل؛ تفاديًا لمصير سَبْيِها المرعب، ولكنها تجاهلت قارورة السم.. لقد بدت لها الفكرة عقيمة، ورددت في نفسها:

- أي هراء هذا؟!.. هل الموت لعب؟!، وهل السبي لعب أيضًا؟!

خالفت أوامر والدها، فخرجت من بوابة حديقة المنزل. رأتها الخادمة بيرينة، وهي تغادر؛ فصاحت بجزع:

- أرجوك سانيس، لا تُجازفي بحياتك!

لكن سانيس لم تُعِرْ رجاء الخادمة أدنى اهتمام؛ فهُرعت بيرينة إلى سيدتها واري، التي قصَدَتْ سطح المنزل لعلها تستبين شيئًا مما يجري في المعركة. ارتاعت والدة سانيس السيدة واري، وهرولت نازلةً الدرْجَ، وبحثت عن سانيس في الجوار، ولكنها لم تعثر لها على أثر. سألت حارس المنزل إنْ كان قد رآها، فرد بالنفي.

مشت سانيس متتبِّعة أثر شابّ بدا لها، من خلال ضباب شفاف أبيض، أنه الشاب نفسُه، ذو الطلعة البهية نفسِها، والتوازن الأنيق في تركيبة جسمه، الذي يعرض لها في المنام دومًا.. ذلك الشاب الذي رأته في بلدة بعيدة لم تعد تذكر اسمها. رأت من بعيد ضجيج معركة شرسة، وتقدمت بخطوات ثابتة، واقتحمت الجموع المتشابكة، ولم تشعر بصليل السيوف حولها. مشت وسط المتحاربين، وكأنها تسير بين أشجار غابة كثيفة، تزيح من أمامها مقاتلاً، وكأنها تزيح غصنًا، ثم تتخطى جثة جندي، كما لو أنها تتخطى جسماً حجريًا ناتئًا من الأرض تصادفه في طريقها، أو ركام تراب. تعثرت فجأةً بحصان سقط صريعًا في خضمّ القتال الضاري، ثم وقعت على جثث موتى، وتلطخت ألبستها بدماء دافئة بلّلت شعرها وأطرافًا من وجهها، وتركت بُقعًا في كل مكان منها. تفادت السيوف المتشابكة على نحو عجيب لتخترق صفوف المتقاتلين،

ومرت الرماح بقربها بسرعة مذهلة، ولكنّ واحدًا من تلك الرماح لم يُصِبْها. وظل، خلال كل ذلك، طيف ذلك الشاب ماثلاً أمام عينيها؛ الشاب الذي يقتحم أحلام يقظتها ومنامها، تراه يبتسم بطلعته الأمازيغية الوسيمة، ولكنه يتلاشى بمجرد اقترابه منها. في الأخير، شعرت بحرارة بركانية غير عادية، وتنبهت إلى الشخص الذي يقف أمامها.. لقد رأت رجُلاً ضخماً، قبيح الهَيْأة، يرتدي لباسًا من فرو ذئب رمادي.. نظرت إليه باستغراب. أدهشها منظره العجيب؛ فشعر الرجل بلسعات برد قارس، وبرعشة تهز جسمه، وبظلام يغطي عينيه، وأحس برعب مباغت جراء جمال سانيس المذهل، الذي لفحه بحرارة حرقت كل الجبروت داخله؛ فصهل جواده صهيلاً مروعًا، ورفع قائمتيه الأماميتين؛ فصاح داوجاب بأعلى صوته مخاطبا جيشه:

- انسحبوا.. انسحبوا فورًا...

لم يفهم جنده هذا الأمر الغريب؛ فهم كانوا الطرف الغالب في المعركة، ولكنهم رأوْا قائدهم يُدْبِر منسحبًا، فما كان منهم إلا الانسحاب أيضًا، بل لم يتوقف داوجاب عن الهرب؛ فقد روى بعضٌ ممّن كانوا يرابطون خارج المدينة أنهم رأوه يضيع في الخلاء البعيد، وأن جنوده بدورهم تتبّعوا أثره دون أن يتوقفوا، ولو للحظة واحدة!

اجتازت سانيس شارع المعركة، وخيول الغزاة تمر بمحاذاتها وتتفاداها، حتى إنّ فارسًا كان يحاول الهَرَب سقط عن جواده بعدما

صدم سور بناية الرئيس في محاولةٍ شبهِ مستحيلة لكي لا يجعل جواده يرفس سانيس. تهشمت جمجمة الفارس بعد ارتطام رأسه على حجر ناتئ، وتدفق منه الدم غزيرًا، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة، وعيناه تتبعان سانيس بانبهار.

واصلت الأميرة سانيس السير غير مهتمة، وتجوّلت قليلاً في وسط المدينة الميتة؛ فقد كانت كل الحوانيت مغلقة، غير أنها حيّت العجوز كاجي الجالس كصنم فوق كرسي عتيق، لكنه لم يردّ تحيتها هذه المرة.. لقد بدا شبه جثة محنّطة. استمرت تتجول في الأزقة الضيقة، وفي الشوارع التجارية، ولم تجد رائحة الخبز، ولا رائحة نشارة الخشب الطرية للسيد ريمس، بل وجدت رائحة غريبة نفذت إلى روحها العميقة، كأنها رائحة دم محروق، أو رائحة لحم بشري مقليّ في شحم ثور فحل.. لعلها رائحة الموت.. تلك الرائحة التي لا تعرفها سانيس!

حيرة الانتصار

انشغل الحاكم أورليوس سيبيو، هو وأعضاء مجلس المدينة وأمناؤها، بالإشراف على عملية تنظيف موقع المعركة، وتقديم قتلى الغزاة قربانًا للآلهة؛ الغزاة الذين تبيّن أنهم مجرد قُطّاع طرق من أقوام رومانية وأقوام خلاسية وأقوام من الزنج. وقد أطلق على المعركة اسم «معركة الذئاب»، واحتفيَ بالسيد ماريوس احتفاءً عظيماً جزاءً على حسن تدبيره للمعركة، وأُعْلِنَ في الملإ أنه البطل القومي

للمدينة. ولكن كان هناك مَنْ رأى الأميرة سانيس تمر وسط المعركة كطيف من غمام أبيض شفاف، وخمّنوا أنها ربما كانت العامل الحاسم الذي رجّح كِفّة النصر لصالحهم، ولكنهم لم يستطيعوا التأكد من خوض سانيس المعركةَ إلى جانب الرجال؛ فهي لم تكن تحمل سلاحًا في يدها، ولذلك كتموا الأمر في نفوسهم. ومع ذلك، أُبلغ الحاكم أورليوس سيبيو بوجود ابنته في مكان المعركة. استغرب في البداية، ولكنه ترك الأمر إلى أن يلتقيَ سانيس بنفسه. وحين عاد إلى المنزل، رأى ابنته تعود بدورها معفَّرة بالدم والتراب، ولكنها بدت في أَلْقِها وعنفوانها المعتاد.. جميلة وفوّاحة كوردة طرية؛ فخاطبها بدهشة:

– هل شاركت في المعركة يا سانيس؟

تساءلت ببراءة تامة:

– أي معركة؟

– المعركة التي خضناها اليوم؟

قالت بصوت هادئ:

– لا، لم أشارك في شيء.

– ولكن أين كنت؟، وما هذا الدم الذي يلطّخ ملابسك ووجهك وشعرك؟!

– أردتُ التجول قليلاً في المدينة، فوجدت نفسي في شارع بناية الرئيس، وكان عليَّ اختراقه، لكنني صادفت فوضى عارمة،

فاخترقت الجموع التي كانت تتقاتل بغباء، ويبدو أنني أصبت بهذا التلوث جرّاء الزحام الشديد.

لفّت الحيرة والدها أورليوس سيبيو.. لم يصدّق أن ابنته تتحدث بهذه الجِدِّية.. كيف أمكنها عبور المعركة الشرسة دون أن تصاب ولو بجرح بسيط؟ خاطب ابنته بنوع من الفخر والإعجاب:

- اذهبي، يا سانيس، واغتسلي، وغيِّري ملابسك، واعتَنِي بنفسك جيّدًا.

في حمّامها الخاص، وتحت رغوة صابون صلصالي أحمر، وهي عارية تمامًا، ظلت سانيس ترى ذلك الشاب، بَهِيَّ الطلعة، يُقْبل نحوها باسِمَ الملامح، منشرِحَ الأسارير، ولكنه بدا، هذه المرة، حزينًا أو متعبًا، ورأته يقبل نحوها وبجَنْبه طيف غامض.. غامض جدًّا، ولكنّ الصورة سَرْعان ما تلاشت، كما العادة، في غمام أبيض شفاف، لتَضِيع في النهاية!

لماذا تقطفين الثمرة الفِجّة المُرّة،

وتسرقين الأعناب النامية قبل أن تملأ الدالية؟

دَعِي الثمرة الناضجة تسقط بشكل طبيعي..

دعي البراعم تواصل نموّها؛

فالحياة ليست عقيمة تافهة لقاء انتظار قليل.

ثمار تيرينا المؤجلة

لم يستفقْ أنير تمامًا من دوخة الألم والنوم الذي غيّبه مدّةَ يومين متتابعين، ولكنه- على الأقل- استطاع سماع أصوات وصلتْه دون أن يدرك هُويتها؛ أصوات صداع فظيعة مختلطة مع أصوات رجالية ونسائية متداخلة، كما لو أنها تأتي من حلم مزعج بعيد. ثم بدأ شيئًا فشيئًا يتململ في رقدته المضطربة؛ حيث كان نائماً على جنبه الأيمن، ومستنِدًا على وسائد لكي لا يتخلى جسمه عن ذلك الوضع. لقد بدا أشبه ما يكون بأسد جريح يلفظ آخر أنفاسه. أراد فتح عينيه، لكنّه لم يستطع؛ لأن الوجع الذي في رأسه لا يُحتمل. وبعد فترة، استطاع التقاط حوار بين فتاة ورجل باللغة الأمازيغية، فشعر بارتياح لذلك:

- يبدو أنه سيستيقظ قريبًا.

ردّت الفتاة:

- نعم.. ذلك ما يبدو. انظر، إن جسمَه يتحرك، وأجفانَه أيضًا.

فتح أنير أخيرًا عينيه بصعوبة.. في البداية لم يستطع رؤية شيء، ومع مرور الوقت استطاع أن يرى أطيافًا لأشخاص.. وفي تلك اللحظة خاطبه صاحبُ المنزل:

- أيها الغريب، هل أنت بخير؟

لم يستطع النطق، ولكنه قال في نفسه: «نعم»، غير أن تلك الكلمة ظلت محبوسة داخله، وشعر بخوف.. إنه لا يعرف أين هو، ولا يعرف كيف وصل إلى هذا المكان، بل لا يعرف من يكون!. أسئلة حارقة ظلت تمُور داخله، وكانت تزيد من حدّة الصداع الذي يشعر به في رأسه. في المساء، وبعدما شرب قليلاً من الحليب، وقليلاً من حساء الحمص المطحون أيضًا، استطاع أن ينظر حوله، وأن يرى الفتاة الشابة والرجل الكهل اللذَيْن يجلسان بالقرب من فراشه.

- يمكنك أن تتحدث الآن.. كيف حالك؟

فتح أنير فمه ليقول شيئًا، ولكنه لمْ ينبس إلا بحروف انفلتت من فمه من غير معنى. سأله صاحب المنزل من جديد:

- لعلك لا تفهم لغتنا.. أم إنك تفهم؟. إنك تفهم لغتنا، أليس كذلك؟

أشار بحركةٍ من رأسه بأن «نعم». وتعاون الأب وابنته على إجلاسه في سريره، مستندًا إلى وسائد لكي لا يصيب رأسه الحائط،

فيوقــظ جرحــه الــذي كاد أنْ يتعفــن، لــولا المجهــود الهائــلُ الــذي بذلــه الســيد بيــكاو، وابنتــه الشــابة تيرينــا؛ لمــداواة الجــرح، وإزالــة الــدم المتجلِّــط، الــذي كان قــد بــدأ في التعفــن، قبــل أن يُطــلي الســيد بيــكاو الجــرح العميــق بمرْهَــم، هــو عبــارة عــن خلاصــة زيــوت طبيــة مســتخْلَصَة مــن الأعشــاب، وبعــض ثــمار الأشــجار النــادرة، عــلى حــين أن الشــجّ، الــذي حــدث لأنــير في جبينــه، كان قليــل الخطــورة، ومــع ذلــك تــم التعامــل معــه بــكل جديــة:

– هــل تعلــم.. تيرينــا كانــت لا تنــام مــن الليــل إلا قليــلاً؟! خافــت أن تمــوت فجــأة. لقــد تناوَبْنــا عــلى حراســتك ليــل نهــار، وكانــت هــي عــلى يقــين بأنــك أمازيغــي مثلنــا.

هــز رأســه علامــة شــكر وامتنــان، ولكنــه تســاءل في نفســه عمّــن يكــون حتــى يُشــمل مــن قبــل غربــاء لا يعرفهــم، ويُفــترض أنهــم أيضًــا لا يعرفونــه، بــكل هــذه العنايــة! سيســألهم حــين يســتطيع الــكلام عــلى نحــو جيــد، وحــين يخــفّ عنــه الصــداع الحــاد، الــذي يشــبه دقّ أوتــاد في رأســه.

في المســاء، قُدمــت لــه وجبــة خفيفــة.. فاكهــة مدعوكــة مــع بعــض العســل. وجــد في نفســه الشــهية، وانفرجــت أســارير الفتــاة ووالدهــا؛ بســبب مــا يبــدو مــن تحســن في صحــة أنــير:

– «هل تشعر بتحسُّــن؟» سأله بيكاو.

أجاب أنير بصوت ضعيف:

- نعم.

- لـن أزعجـك.. سـأترك إلى جـوارك تيرينـا.. إذا احتجـت إلى شيء فسـتكون خـير مسـاعِدة لـك.

نظـر أنـير إلى تيرينـا. بـدت لـه بريئـة وجميلـة، وشـم فيهـا أريـج كسـتناء مشـوي، ووجدهـا تشـبه فتـاة اسـمها زهـرة الجمـر، ولكنـه لا يعـرف مـن تكـون هـذه الفتـاة التـي تدعـى «زهـرة الجمـر». تأمّـل تيرينـا طويـلًا، وانبهـر بألقهـا وسِـحْرها الفاتـن. نظـرت تيرينـا بدورهـا إليـه، وتسـاءلت بحـيرةٍ عـن هـذا الأمازيغـي الوسـيم الـذي رمتـه الأقـدار عـلى هـذا النحـو المُـزْري إلى بـاب منزلهـم. وفجـأة صـاح أنـير:

- مـن أنـا؟. أقصـد: مـن أكـون؟ ومـن أيـن أتيـت؟ وفي أي مـكان أنـا الآن؟

ابتسـمت تيرينـا، وأدركـت أن الشـاب لا يـزال في حالـة نفسـية مضطربـة، وأنـه يحتـاج إلى وقـت إضـافي ليسـترجع كل قُـواه الذهنيـة، وقـد بـدا لهـا ذلـك أمـرًا عاديًـا للغايـة:

- أنـت في منـزل آمِـن، ربـما يكـون هـذا المنـزل أكثـر منـزل تسـتطيع أن تشـعر فيـه بالأمـان التـامّ.

- ما اسم هذا المكان؟

- نحـن نسـكن وحدنـا في هـذا الخـلاء.. هـو خـلاء بـلا اسـم، ولكننا لسـنا بعيديـن كثـيرًا عـن مدينـة أرتـو. هـل تعـرف مدينـة أرتو؟

- أنا لا أعرف شيئًا!

- اسمي تيرينا.. ما اسمك؟

- اسمي؟! أنا لا أعرف اسمي.. أريد أن أنام.. أنا مرهق.

- حسنًا! ولكن ينبغي ألّا تنام على قَفاك.. ثمة جرح غائر خلف رأسك، يحتاج إلى أيام لكي يلتئم، ويجب أن تتفادى النوم على جبينك لكي لا تؤذي الجرح الآخر الطفيف.

تلمّس أنير رأسه برفق؛ فاكتشف عصابة تلف رأسه، وفهم حينذاك كلام تيرينا.. تمدَّد على جنبه الأيمن، وقامت تيرينا بإسناده من كل جانب بالوسائد. من الفور، كان قد غرق في نوم عميق، تخللته الكثير من الكوابيس المزعجة. استيقظ في الصباح الباكر. وجد مثانته مليئة بالبول، ولم يستطع صبرًا. رأى تيرينا تجلس قبالته، وقد شحب وجهها.. لعلها تكون قد سهرت الليل كلَّه، دون أن يغمض لها جفن:

- أريد.. أريد.. أن...

أجابت تيرينا بقلق:

- ماذا تريد؟

- أرجوك.. أكاد أن أفعلها في...

- يمكن أن أساعدك إذا شئت.. هل تستطيع الوقوف؟

- سأحاول...

نهض بصعوبة. كان جسمه يرتجف، وبدا مهدّدًا بالسقوط في كل لحظة.. حينذاك اضطرّت تيرينا إلى مساعدته على دخول الحمام، الذي لم يكن يبعد إلا بضعة أمتار في فناء المنزل، غير أن أنير كان قد أطلق، قبل ذلك، بوله. أدركت تيرينا أن الوقت قد فات على كل شيء. قادته برفق إلى الحمام، وأجلسته على كرسي خشبي من صنع والدها السيد بيكاو، ثم طلبت منه أن يزيل ثوبه الملوث بالبول. فعل أنير ما طلبته منه تيرينا، وشعر بقُشَعْريرة، وانكمش على نفسه، كقنفذ متوجّس، في الحمّام البارد، ونفذت إلى عظامه أولى موجات برد الخريف القاسي. انهمكت تيرينا في تسخين قِدْر كبير من الماء. وحين عادت إلى أنير، وجدت ذقنه يرتجف. غمرته ببعض الماء الساخن مُحاذِرة ألّا تبلّل رأسه الجريح. نظفت جسده بصابون ترابي؛ جسده الوسِخ الذي كان يحتاج إلى نظافة شاملة. مررت يدها على كل جهة من جسده، وغمرته بالماء الدافئ. وخلال ذلك بدأت تستيقظ فيها الرغبة الأنثوية الطبيعية، التي كانت قد قررت- في السنوات السابقة- أن تلغيها من أحاسيسها؛ بحيث انتقلت للعيش مع والدها في هذا الخلاء الموحش في محاولةٍ للتخلص من نزعتها الأنثوية إلى الأبد، متّبعة فلسفةَ والدها الغريبة؛ فلسفةً لم يفرضها على ابنته، ولكنها آمنت بها، وأخلصت لها حتى هذه اللحظة، التي ترى نفسها تغسل جسد رجل غريب، أصيبت بإحباط عميق، وحينذاك أدركت الانقلاب الخطير الذي قد يشكله هذا الشاب في حياتها. توجّست، وشعرت بخوف، ولكنها أكملت مهمّتها، وخرج أنير من الحمّام بروح جديدة، وبحيوية وطاقة جديدتين أيضًا.

- «أبي.. لن أحرس الشاب هذه الليلة!» قالت تيرينا وهي مرتبكة جدًا، وهو الأمر الذي لاحظه والدها أيضًا، فتساءل بجزع:

- لماذا.. هل بَدَرَ منه ما يُسيء؟!

- لقد نظّفت جسمه، وكان عاريًا تمامًا، فاستيقظت في نفسي غرائز الأنثى، التي كنت أتصور أنني تخلصت منها نهائيًا. ثم إنني قد أُغْرَم به.

صمت والدها قليلًا قبل أن يرْدِف قائلًا:

- تيرينا، أنت لست مجبرة على اتباع فلسفتي.. هذه الفلسفة اخترْتُها بمَحْض إرادتي، وبعدما جرّبت الكثير من الأشياء في الحياة.

- أعلم ذلك يا والدي، و...

لم تستطع إضافة شيء، لكنّ والدها قال:

- ألا ترين أنها فرصة لاختبار قدرتك الحقيقية.. ربما كان ما فعلتِه مجرد حماسة ظرفية!

- ماذا تقصد؟

- منذ زمن لم تتح لك إمكانية التعرف إلى جسم شاب يتفجّر رُجولةً! جَرِّبي.. قد يكون اختيارك الأول خاطئًا، أو قد تصمدين ويكون الاختيار صادقًا ونابعًا عن قناعة.

صمتت تيرينا، وغرقت في ذهول عميق.. أي سر عجيب يحمله

هـذا الأمازيغـي الوسـيم؟! وكيـف اسـتطاع أن يخـرج غرائزهـا إلى السـطح بعدمـا كانـت قـد دفنتهـا في الأعـماق البعيـدة مـن جسـدها اليانـع، حـين كانـت في مدينـة أرتـو؟! أي قـوة غيبيـة يحملهـا في روحـه هـذا الشـاب الغريـب؟!

لاحـظ بيـكاو اسـتغراق تيرينـا في وجـوم طويـل؛ فسـألها عـن صحـة الضيـف، وأجابـت بحماسـة:

- اسـتيقظ في حـال صعـب، ولكنـه حـين أخـذ حمّامًـا دافئًـا أصبـح أكثـر حيويـة، وطفـح وجهـه بعافيـة كانـت غائبـة تمامًـا عنـه في الثلاثـة أيـام الأخـيرة.

- حسـنًا! هـذا جيّـد.. ينبغـي أن نقـدم لـه وجبـة الفطـور لنـرى مـدى قدرتـه عـلى الـكلام.

- تحدثـت إليـه ليلـة البارحـة وهـذا الصبـاح.. يبـدو أنـه يعـاني بعـض الاضطراب.

جلسـت تيرينـا، خـلال وجبـة الفطـور، بجنـب أنـير، على حـين جلس أبوهـا بيـكاو أمامـه، وبينهـم صحـون مـن العسـل وجبـن الماعـز والخبـز والحليـب السـاخن. أراد بيـكاو أن يجعـل مـن وجبـة الفطـور مناسـبة لخلق طقـس أسري حميمـي، لا يشـعر فيـه الضيـف بـأي حاجـز نفـسي:

- «أراك اليوم في أفضل حال» قال بيكاو؛ فرد أنير من الفور:

- هذا بفضل.. فــ.. فينو.. فينوس...

- اسْمُها تيرينا.

- نعم.. ربما تكون أخبرتني، ولكنني نسيت!

بدت شهية أنير مفتوحة، ولكن أسئلة غريبة كانت تدور في رأسه.. من يكون؟. ومن جاء به إلى هنا؟. ولماذا يَخُصّه هؤلاء بكل هذه العناية؟! ولذلك لم يرتشف من الحليب إلا رشفة واحدة من وعاء الفخار الذي وضعته تيرينا بين شفتيه:

- هل لي أن أسألك شيئًا يا سيدي؟

ردّ بيكاو بهدوء طافح بحكمة رجل حنّكته تجارب الحياة:

- نعم.. تفضل.

صمت أنير.. لم يجد الطريقة المثلى لطرح سؤال سيبدو- ولا شك- غبيًا أو مجنونًا. وبعد تفكير قصير قال:

- لماذا أنا هنا؟

صمت بيكاو قليلًا. بدا الموقف صعبًا، ويثير الكثير من التوتر:

- لا نعرف أيها الضيف.. لا نعرف.. وجَدْناك عند باب منزلنا، وكنت مصابًا بجرح عميق في مؤخرة رأسك، وكان هذا الجرح سيُودِي بحياتك لو لم تصل إلينا في الوقت المناسب.

- هل هذا كل ما تعرفونه عني؟

- نعم، ولكن ماذا تعرف أنت عن نفسك؟

حاول أنير أن يحفز ذاكرته وينشطها، ولكنه لم يستطع التوصل إلى شيء ذي بال.. حاول الرجوع إلى ماضيه، ولكنه لم يتوصل -في النهاية- إلا إلى وجع فظيع يطرق رأسه.

- لا شيء يا سيدي.. لا شيء.. لا شيء.. فقط أذكر أنني عانيْتُ في طريقي إلى هنا.

اعتدل السيد بيكاو في جلسته، وسأل سؤالًا بدا له ربّما كان حاسماً:

- هل تتذكر شيئًا عن الجرح العميق في مؤخرة رأسك؟

- لا.. لا يا سيدي.

- ربما تكون قد تعرضت إلى اعتداء من قِبل قُطَّاع طرق.. الضربة جاءتك من الخلف، ومن البديهي ألاّ ترى أحدًا، ومن البديهي أن تنسى أشياء كثيرة، أو كل شيء، ولكنني أراهن على أنك ستستعيد ذاكرتك قريبًا.

ردد أنير بوهن وبعفوية شديدة:

- ربما يا سيدي.. ربما.. ولكن ممّن سأستعيد ذاكرتي؟. أقصد.. مَنْ أخذها مِنّي؟!

أراد بيكاو أن يقول شيئًا، ففتح فمه، لكنه لم يجد كلامًا مناسبًا، وفي الأخير غادر وترك ابنته تيرينا وحيدة مع أنير، الذي لم يأكل شيئًا، باستثناء رشفة من الحليب. ورأت تيرينا أنّ من واجبها أنْ تساعده على الأكل؛ لكي يستعيد حيويته وصحته سريعًا. غمرت إصبعها في العسل، ووضعته في فمه. امتصه بنَهَمٍ، وكان يمتصّ من خلال إصبع تيرينا العسل، وروح تيرينا البريئة المفعمة بالأنوثة والرغبة الجامحة؛ تلك الروح التي كانت تنتقل من إصبع تيرينا

لتسري في أوصال أنير ناشرةً رغبة خفيةً لم يستطع تحديد ماهيتها. واستمرت العملية على هذا النحو. في الأخير، وجد أنير نفسَه قد شبع، ولكنه احتفظ بإصبع تيرينا في فمه، وأخذ يداعبه بلسانه وشفتيه بعفوية تامة. ونشرت هذه اللعبة، التي تحمل في طياتها تواطؤًا بريئًا بين الاثنين، داخل تيرينا نشوة عارمة.

خارج المنزل المبني بالطين الأحمر، هبّت ريح خفيفة محمَّلة برائحة خريف بارد، وأطلقت بعض الطيور شدوًا بدا وكأنه بكاء كئيب، لكن الدفء داخل البيت الذي كانت فيه تيرينا وأنير، غمر الأجواء بمسحة كثيفة من العواطف، غمرت الاثنين كضباب صيفي يشبه بخار بحيرة حارة.

استرجع أنير، بعد حوالي أسبوع، بعضًا من عافيته، وصار بمقدوره الذهاب إلى الحمّام دون مساعدة أحد، بل إنه استطاع التجول في الحديقة بمفرده، ولكنه ظل شاردًا طَوالَ الوقت. واستمر بيكاو في العمل؛ يحرث أرضه، ويعتني بمزروعاته وأشجاره القليلة، على حين كانت تيرينا تكتفي بإعداد الأكل، وطحن القمح، والعناية بالدواجن والقطيع الصغير المكوَّن من الماعز والأغنام.

نجوم

وقف أنير بجوار سُور الحديقة الصغيرة يتأمل أشجارها المتنوعة، والطيور البعيدة المهاجرة. استشعر ضيقًا يستبدّ به.. لا يفهم ما يختلج في صدره تجاه تيرينا، ولا يدري شيئًا عن ماضيه!.

إنـه مجـرد شـخص يعيـش ميتًـا، ويـمارس أنشـطته الجسـدية والذهنيـة في شـبه حالـة مـوت يَقِـظ.

تقدمـت نحـوه تيرينـا، وحدّقـت فيـه مليّـا. بـدا لهـا أبهـى في لباسـه الجديـد، الـذي خاطتـه لـه بيديهـا البديعتـين ليلائـم جسـمه المتناسـق. أعجبـت بـه، واسـتيقظت داخلهـا تلـك الأنثـى المتحفـزة، التـي كانـت قـد نسـيتها منـذ زمـن. نظـر إليهـا بـدوره، وكان- في تلـك اللحظـة- يبحـث عـن أجوبـة لأسـئلة حائـرة في ذهنـه.. مـن أيـن أتـى؟ وإلى أيـن كان يتوجـه؟! سـأل تيرينـا، ولكنهـا لم تسـتطع إلا أن تخـبره بأنهـا وجدتـه قـرب البـاب، وبأنـه انهـار تمامًـا حـين التقيـا بالدهشـة والخـوف.

- أريد المغادرة إلى مدينة.. مدينة... ما اسمها؟

- تقصد أرتو...؟

- نعم أرتو... هل هي بعيدة؟

- مسـيرة شـهر ونصـف أو شـهرين بالتقريـب.. ولكـن لمـاذا تريـد مُفارَقتنـا؟

- لسـت أدري.. أشـعر بـأن شـخصًا مَـا في مـكان مَـا ينتظـرني! وحين سـمعت اسـم هـذه المدينـة لم أجـد هـذا الاسـم غريبًا.

- هـل تكـون مـن سـكان أرتـو؟. لا أتصـور ذلـك؛ فأنـت لسـت رومانيـا!

-... نعم، نعم..أنا لست رومانيا..

- لقـد هجرْنـا، أنـا وأبي، أرتـو منـذ ثـماني سـنوات، وكان عمـري

حينئذٍ أربع عَشْرَة سنة، ولا أذكر أنني رأيتك في المدينة، والمدينة ليست كبيرة جدًا؛ فقد تتذكر ملامح أي أمازيغي وسيم ومتميز، إذا التقيته صدفة... ولو لمرة واحدة..

- لست أدري تيرينا.. لست أدري!

شعّ وجه تيرينا ببهجة مفاجئة، وترقرقت في عينيها دموع محتشمة، وقالت بفرحة طفلة صغيرة؛ فرحة مفعمة بحب آتٍ من أعماقها البعيدة:

- لقد قلتها أخيرًا.. لقد قلتها!

استغرب حينئذٍ، وأجاب:

- ماذا قلت؟

- لقد نطقتَ اسمي.. لقد ردّدتَ اسمي!.

أقبل بيكاو نحوهما من بعيد. كان رجلاً في ذروة كهولته، ولكنه يحتفظ في جسمه القوي بنفحة شباب ظلت على الدوام مصاحبة سنوات عمره الجادة. قالت تيرينا مخاطبة والدها، وكأنها تحتج:

- إنه يرغب في مغادرتنا قريبًا جدًا إلى أرتو!. ألا ترى أن جسمه لم يُشفَ تمامًا من الجرح، وأن جسمه لا يزال مُجْهدا للغاية؟!

- هل حقا تريد الرحيل أيها الضيف؟

- لو سمحت لي يا سيدي.

- لا أنصحك بذلك قبل شهر ونصف من الآن على الأقل.

الطريق نحو أرتو طويلة جدا، وأنت لا تزال تحتاج إلى صحتك الكاملة لخوض غمار سفر شاقّ كهذا.

- كما ترى يا سيدي.. يمكنني أن أنتظر.

- ولكن لماذا تريد الرحيل إلى أرتو؟

- لست أدري!. أشعر وكأن شخصًا ما ينتظرني في مكان ما، وحين تحدثتم عن مدينة أرتو، وجدت هذا الاسم قريبًا من نفسي.

في اليوم التالي، استيقظ فزعًا من النوم.. لقد رأى في حلمه الإلهة فينوس، بألْقها وجمالها الباهر، تناديه نداءً عذبًا. نهض ببطء من فراشه، وتلفّع بغطاء نومه، وخرج إلى الحديقة. كانت الليلة ظلماء، والنجوم مبهرة، وهي تملأ فراغات سواد السماء. أخذ يتأمل النجوم. أحسّت تيرينا بخروجه. خافت أن يغادر إلى الأبد؛ فقامت بسرعة من مرقدها، وارتدت ألبستها على عجل، ثم خرجت. وجدته جالسًا بوقار فوق سور الحديقة، وعيناه مشدودتان إلى السماء.

- هل استعصى عليك النوم؟!

لم يُفاجَأ أنير بوجود تيرينا، وكأن عنصر المفاجأة لم يعد موجودًا في تركيبة تكوينه النفسي.

- لا، خرجت فقط لأتأمل النجوم.. هل تعلمين؟. النجوم ما هي إلا انعكاس للفتيات الجميلات جدًا في الأرض.

نظرت تيرينا دون وعي إلى النجوم، ثم إلى أنير. أدهشها كلامُه الذي بدا لها رائعًا:

- مَنْ قال لك هذا الكلام؟

- لست أدري.. لست أدري... لعله بقايا كلامٍ ظل عالقًا في ذهني!

- وهل تحب الفتيات الجميلات؟

- قد أحبّ واحدة، وقد تكون صورتها الآن منعكسة على هيئة نجمة في السماء.

- هل تراني من بين تلك النجوم المعلقة في السماء؟

- ربما.. إنها نجوم لا حصر لها... ولا يمكنني تحديد نجمتك من بين كل ذلك العدد الكبير من النجمات.

شعرت تيرينا بخيبة أمل.. وجدت في إجابته العفوية شيئًا من إحباط لم تتقبله أنوثتها البريئة، غير أنها - في النهاية - أدركت أنه في الطريق نحو استعادة ماضيه، وأنها ربما تكون في الطريق أيضًا إلى استعادة غرائزها، وإعادة الرغبة إلى جسدها، لكنها شعرت بإحباط، وأدركت أن هذا الضيف سيغادر بعد زمن قليل، وأدركت كذلك أنه سيضع مصيرها في مأزق حقيقي.

- هل أنتِ من هذا المكان؟

- سألها دون أن ينتبه إلى أنها أخبرته قبلُ بأنها غادرت مدينة أرتو رفقة والدها قبل ثماني سنوات. أجابته ضاحكة:

- أنا من البحر!. أقصد.. وُلِدْتُ في البحر.

رد بعفوية شديدة:

- جميل أنك ولدت في البحر.. تماما مثل الإلهة سانيس.

- ليست هناك إلهة بهذا الاسم!. ربما تقصد الإلهة فينوس.

- الإلهة سانيس موجودة أيضًا، وأعتقد أنها عرضت لي يوما في حُلم ما.

اعتقدت تيرينا أن أنير يتحدث بمنطق الشخص الواقع تحت تأثير صدمة قوية.

- ولكن كيف ولدتِ في البحر؟. لا أستطيع تصور كيف يمكن أن يحدث ذلك!

ضحكت تيرينا من جديد بنبرة فاتنة، وأجابت:

- كان والدي نائبًا لقيّم مكتبة مجلس المدينة في أرتو، وكان في حوالي الأربعين من عمره حينذاك. حبلت أمي سينسيا، وأجهضت عدة مرات؛ لأسباب مجهولة! ولما حملت بي، استشارت الحكماء والعَرّافين، فنصحوها بأن تمكث في قارب وسط البحر من بزوغ الشمس إلى غروبها طوال فترة الحمل. وهكذا استعار والدي مركبًا من أحد العبّارين، وقضى كل وقته مرافقًا والدتي في البحر، وكانت تحمل تميمة عبارة عن مَحَارة نادرة مصنوعة من الذهب. وفي الشهر الأخير من الحمل، ركب أبي وأمي القارب، وأبحرا به من جديد كما العادة. وبعد مُضِيّ وقت مَرِحٍ قضَيَاه في صيد السمك، قرّرا في المساء العودة إلى الشاطئ، ولكن المخاض باغت والدتي قبل الغروب بقليل، وحاول والدي الوصول إلى البرّ بسرعة، ولكنْ

اعترضتِ القارب عاصفة مفاجئة جعلت الإبحار باتجاه الشاطئ شبه مستحيل. اهتم والدي بتوليد والدتي بنفسه، وتمّت العملية على أحسن ما يرام. ووضعني والدي على صدر أمي، ورضعتُ من ثديها قليلاً، ونظرت إلى أمي نظرة باسمة تفيض بالفرح والحب، وهمست لوالدي بصوت خافت:

- هذه التميمة.. علقها على عنق تيرينا، ولا تجعلها تضيع منها أبدا.

قالت تيرينا ذلك، وأظهرت التميمة لأنير، ثم أضافت مكملة القصة:

- رأتني أمي قبل أن تموت، على حين لم أرَها أنا قط! وعاد أبي بأمي جثة هامدة، وموجة حمراء دموية تتبع المركب، وبعض النوارس الكئيبة تحوم حولنا، والغروب يرسل نورًا أحمرَ فاترًا لطّخ وجهي الصغير، ووجه أبي الباكي بلطخات شاحبة. ودَفَنَ والدي- في الأخير- والدتي سينسيا وسط البحر بطقوس معروفة في مدينة أرتو؛ طقوس دفن خاصة بمَنْ يموت أو يغرق في البحر. وعاد بي والدي إلى أرتو رضيعة.. هكذا وصف لي أبي المشهد حين كبرت.

تيرينا عارية

لم يتخلص أنير تماما من ذهوله، ومن فقدان شيء من ذاكرته.. أصبح يقضي معظم وقته يتحدث إلى السيد بيكاو حول المزرعة

الصغيرة، أو يتحدث إلى تيرينا بنوع من اللوعة التي ظلت تشويه من الداخل دون أن يعرف سببًا لها. ذات مرة رأى تيرينا تتوجه نحو النهر الصغير، الذي يمر على مقرُبة من منزل بيكاو، فقرر أن يتبعها. فجأة غيّبها عنه للحظة تل صغير، وحين تجاوزه، رأى تيرينا تتخلص من ملابسها ببطء تحت شمس دافئة كانت ترشها بأشعة بهيجة، ورأى من بعيد جسدها النحاسي الذي يشبه الشفق المتوهج، ورأى ردفيها وهي تنحني، فشعر بلذة غريبة.. اقترب منها مأخوذًا بالسحر الذي شعر به يدخل روحه، ويدغدغ حواسه كلها.. حرقه منظر أردافها المدورة. انتبهت تيرينا لوجوده، ولكنها لم تفزع.. ظلت محافظة على هدوئها. تلمست بقدميها ماء النهر الصغير في محاولةٍ لاستكشاف حرارته. وقف أنير مبهورًا أمامها، وشعرت تيرينا بالانفعال الغريب الذي يلف أنير يتسرب إلى روحها، ولم تفهم دواعي ذلك الانفعال الذي وجدت أنه غير مبرر. التفتت إليه، وابتسمت له ابتسامة حانية أشعلت في نفس أنير كل الغرائز الميتة. نظر إليها دهشًا لذلك الإحساس الذي يغمره كلما وقعت عيناه على جزء من أجزاء جسدها المثير. وقف أمامها ببراءة طفل، لم يكن يفصله عنها سوى مسافة ذراع واحدة. لمسها، فسرتْ من الفور في جسده رعشة هزته هزا لطيفا كموجة برد خاطفة، وتنفست تيرينا عميقًا وهي مغمضة العينين. جثا أنير على ركبتيه، وأخذ، عن قرب، يتأمل جسدها الباهر الذي لم ير مثله قط من قبلُ. لقد رأى في جسد تيرينا إجاصا وتفاحا وعنبا، وشعر بلذة في حواسه وغرائزه من غير أن يضطر إلى أكل تلك الثمار، لكنه وجد أن

تلك الثمار تسبب له عذابًا وصداعًا حادًا في رأسه، ورعشة غريبة في جسمه كله. غير أنه حين شعر بذلك الصداع يجتاحه كهيجان موج هادر، وشعر بأن أشياء غير عادية تحدث داخله، ارتاع ونهض. نظر قليلاً إلى تيرينا التي كانت أنفاسها تتدافع كموج صاخب، ثم غادر بخطوات محبطة.. لقد شعر أنه عاش حلماً جميلا، واستيقظ من ذلك الحلم قبل أن يصل إلى ذُرْوَته.

صدمة بيكاو

استعاد أنير، بعد أقل من شهر، بعضًا من عافيته، بل استطاع العودة، بشيء من ذاكرته، إلى لحظة مغادرته المنزل، وتعرضه إلى الاعتداء والسرقة في الغابة كذلك. واستمرت الصور مشوّشة في ذهنه، وغير واضحة تمامًا. سُرّ بيكاو لهذا التحول الإيجابي في صحة أنير وذاكرته، وشَق عليه فراق الشاب الذي وجده لطيفًا، فأحبَّه حبًا حقيقيًا أيضًا، مع بعض الشك الغامض الذي ظل يخامره نحوه.

- سأغادر الآن.. أشكركم على كل شيء.. ربما زرتكم يومًا.

ردّت تيرينا على نحو مفاجئ:

- سأرافقك.

صدم بيكاو.. لم يصدّق ما يسمع، ولكن ابنته بدت مُصِرّة. لم يمانع أنير، بل رحّب بالفكرة؛ لأنه وجد في قلبه حسا غامضا،

ولكِـنْ عذبـا، نحـو تيرينـا، وأشـفق عـلى بيـكاو للعزلـة التـي سـيجد نفسـه فيهـا بعدئـذٍ.

توجـه بيـكاو نحـو دوالي العنـب، وأخـذ يشـذّب أغصانهـا شـارد الذهـن.. لم يتحمـل الموقـف. نزلـت دموعـه بهـدوء مـن عينيـه المتهدلتين، وطـارت في المـدى البعيـد طيـور سـوداء وتشـتتت إلى أن اختفـت نهائيًـا.. لقـد أحـس بأنـه أصبـح عجـوزًا في لحظـة واحـدة، وفكّـر بـأن هـذا الزائر حمـل إليهـما الشـؤم، ولكنـه سرعـان مـا طـرد هـذا الخاطـر الخبيـث مـن ذهنـه. «منـذ زمـن لم تتـح لـك إمكانيـة التعـرف إلى جسـم شـاب يتفجـر بالرغبـة والرجولـة! جـرِّبي.. قـد يكـون اختيـارك الأول خاطئًـا، أو قـد تصمديـن ويكـون الاختيـار صادقًـا ونابعًـا مـن قناعـة لا تتزحـزح».. «أنـا مـن أدخـل الفكـرة إلى رأس تيرينـا، وعـليّ أن أتحمـل مسـؤوليتي بـكل شـجاعة».. هكـذا فكـر بيـكاو، ثـم قـال مخاطبـا ابنتـه:

- هل أنتِ متأكدة من صواب هذا الاختيار؟

- أرغـب في اختبـار غرائـز الأنثـى داخـلي.. لا تـزال إلى الآن خامـدة، وإن كانـت قـد استُفزت قليـلاً، وسـأرى إلى أي حـدٍّ أنـا مسـتعدة لكـي أهـب أهـم غريـزة في الإنسـان إلى فلسـفة يبـدو أنـني اقتنعـت بهـا تمامًـا في وقـت مـن الأوقـات، ولكنهـا تتعـرض الآن لامتحـان حقيقـي.

لم يفهـم أنـير الموقـف المرتبـك الـذي فـرض نفسـه وقـت الرحيـل، ولكنـه أدرك أيضًـا أنـه لا يفهـم أشـياء كثـيرة في الحيـاة. انهمكـت تيرينـا في إعـداد نفسـها للسـفر إلى أرتـو.. هنـاك سـتبدأ حيـاة جديـدة، وهنـاك ستكتشـف حقيقـة نفسـها، بـل- أكثـر مـن ذلـك- ستكتشـف حقيقـة

هـذا الضيـف الـذي دَخَـلَ قلبَهـا عـلى نحـو مباغـت. وكـما توقعَـت، فقـد بـدأ يتشـكل هـذا التحـول داخلهـا منـذ تلـك اللحظـة.

سحب بيكاو أنير جانبًا، ثم أخذ يحدّثه عن مدينة أرتو:

- هـي مدينـة جميلـة ومسـالمة أيضًـا، وشـعبها طيـب، لكـن حكامهـا ليسـوا كذلـك؛ فهـم يعاملـون الأمازيـغ معاملـة سـيئة للغايـة.. كنـت أشـتغل في مجلـس المدينـة نائبًـا لقيّـم المكتبـة، وكنـت أقـرأ كثـيرًا تلـك الكتـب المحرمـة عـلى العامـة، وكنـت أطّلـع عـلى أشـياء مـا كان ينبغـي لي أن أطلـع عليهـا. تزوجـتُ فتـاة مـن شـعبنا الأمازيغـي.. فتـاة جميلـة وطيبـة، أخـذَت تيرينـا مـن ملامحهـا وروحهـا أشـياء كثـيرة، وكنـا نحـاول إنجـاب طفـل، ولكـن بـاءت كل المحـاولات بالفشـل إلى أن رُزقنـا بـتيرينا وسـط البحـر. وقـد أخبرتنـي تيرينـا بأنهـا روت لـكَ القصـة. ثـم بعـد ذلـك اتخـذت زوجـة رومانيـة، تبـين لي فيـما بعـد أنهـا شرّيـرة.. حوَّلـت حيـاتي إلى جحيـم! وإننـي أتسـاءل اليـوم: هـل كانـت تلـك الزوجـة لعنـة مـن الآلهـة؛ بسـبب قـراءتي تلـك الكتـب الممنوعـة عـلى العامـة؟! والآن تقـودك الأقـدار إلى منـزلي، وتسـلب منـي ابنتـي الوحيـدة التـي خِفـت عليهـا في أرتـو مـن لعنـة مـا، ولكنـك تعيدهـا- بطريقـة غريبـة- إلى تلـك المدينـة، التـي هَرَّبتهـا منهـا، بعدمـا اخترعـت لهـا روايـة مزيفـة حـول فلسـفتي وهَجْـري المُتـعَ الغريزيـة الفانيـة، التـي تحـوِّل الكائـن البـشري إلى مجـرد آلـة لتفريـخ الـشر!. كنـت قـد أصبـت باللعنـة الأبديـة، ولا شـك في أن ذلـك بسـبب غضـب الآلهـة؛ فحـكام مدينـة أرتـو الرومانيـون يسـتمدون شرعيـة حكمهـم مـن بركـة الآلهـة،

وأنـا خالفـت أوامـر حـكام أرتـو.. هـل أنـت مبعـوث شرّ جئـتَ لتُكْمـل انتقـام الآلهـة منـي؟! إذا كنـتَ كذلـك فأرجـوك... تيرينـا لا ذنـب لهـا، خـذ قِصاصـك منـي، واتركهـا وشـأنها.

كان أنـير يسـتمع باسـتغراب وشرود شـديد. وحـين توقـف السـيد بيـكاو مترقبًـا الـردّ الرهيـب، أجـاب أنـير بعفويـة بريئـة:

- لسـت أدري يـا سـيدي.. لسـت أدري؛ فأنـا لا أعـرف، بعـد استعادتي ذاكـرتي، إلا أننـي غـادرتُ دريـو متوجّهًـا إلى مدينـة أرتـو.. لا أعـرف أكثـر مـن هـذا!

- لا تخبر تيرينا بشيء مما قلتُه لكَ! اتْرُكْها وقدرها.. هل تفهمني؟

هبّـت ريـح شـمالية محملـة برائحـة بحـر بعيـد، وبنسـائم خريفيـة بـاردة، وعـبرت المجـال الأفقـي أسراب طيـور مهاجـرة حجبـت قليـلاً شـمس الغـروب الكبـيرة. عانقـت تيرينـا والدهـا، والدمـوع تنـزّ مـن عينيهـا، عـلى حـين تجلّـد والدهـا المتوجـس جـدًا، وقـال هامسًـا في أذنهـا، وهـو يـدس في يدهـا مـالًا وفـيرًا:

- كونا عونًا دائمًا واحدكما للآخر.

صافـح أنـير بيـكاو بحـرارة، وشـكَره عـلى كل مـا فعلـه لأجلـه، وقـال، وهـو يبتعـد بخطـوات قليلـة، كلـمات خرجـت مـن فمـه مـن دون وعـي، ومـن دون أن يـدرك معناهـا:

- الـوداع أيهـا السـيد بيـكاو.. الـوداع! قـد نـرى بعضنـا مـرة أخـرى، وقـد لا نـرى بعضنـا أبـدا.

ظـل بيـكاو متجمـدًا في مكانـه كجـذْع شـجرة يابسـة. شـيع بنظراتـه المدهوشـة طيـف أنـير وتيرينـا، وهمـا يبتعـدان عنـه. وجـد نفسـه- في الأخـير- يتبعهـما بخطـوات وئيـدة كشـبح مخيـف لنفسـه. وحـين غَيَّـبَ غبـش الغـروب أنـير وتيرينـا، سـقط بيـكاو فجـأة منكفئًـا عـلى وجهـه في حفـرة.. فتوقفـت أنفَاسـه، ومـات مـن الفـور!

ومن تلك الشجرة تُصنع مشنقة لموت بعض البائسين
ومنها يصنع صليب مروع للتعذيب.
وهي تمنح البوم الصياح ظله الفاضح ليستريح،
وتعير الصقور والنسور أغصانها لبناء الأعشاش

أفولاي ورائحة الموت

بـدت السـماء فضيـة، كـما لـو أنهـا بـدر لا نهايـة لـه. انـزوى سـاريل، كعادتـه منـذ بدايـة الرحلـة، بعيـدًا نسـبيًا، وتكـوّر حـول نفسـه مسـتغرقا في نـوم هـادئ كجـرو مُجْهـد، بالقـرب مـن البغـال وأكيـاس الملـح المتراصّـة. وتمـدد أسـافو قريبًـا مـن السـيد أفـولاي المتكـئ عـلى جـذع شـجرة قديمـة، مسـتغرقا في تأمـل أيقونـة ثفوشـت بوَلـه عجيـب، وكأنـه يـؤدي صـلاة مَهِيبَـة. لقـد فكـر في بلـدة دريـو، وقفـزت إلى ذهنـه صـورة زهـرة الجمـر، وشـعر بـدفء الأيقونـة يـكاد يكـوي كفـه، وفكـر في الشـاب أنـير وصديقـه المعلـم ماسـين، الـذي لا يعـرف مصـيره.. هـل يكـون قـد فـارق الحيـاة، أم كتبـت لـه الآلهـة عمـرا جديـدا؟.. واعتملـت في نفسـه مشـاعر متضاربـة، وهـو يـرى شمسًـا أخـرى عميقـة تشـعّ مـن أيقونـة ثفوشـت.

كانت القافلة الصغيرة، المكونة من عشرة بغال وثلاثة رجال، تهجع في صمت مطْبق، غابت فيه أصوات الطيور وحشرات الليل وهَوَامِّه. وكان الصوت الوحيد، الذي يصدح في المكان، هو صوت الصمت المدوّي؛ صمت جعل كل شيء يفرز صوتًا صامتًا وباردًا في سَمْع السيد أفولاي، الذي شمّ فجأة رائحة غريبة، ولكنها رائحة تعوَّد شمّها في مناسبات قديمة... استنفر حواسَّه، وشعر بتوجُّس لم يعرف مصدره. استمرت الرائحة تنتشر على نحو مثير لمخاوف الكهل، وفجأة أدرك أن هذه الرائحة ليست إلا رائحة لخطر قريب في أعماق شيء مَا، ولم يكن من العسير على السيد أفولاي أن يعرف بأن مصدر الرائحة الغريبة هو سم قاتل يوجد في الجوار. تحركت عيون الكهل الوقّادة، واشتعلت بوميض حادّ، ونظر إلى كل الاتجاهات، وسَرْعان ما رأى خيْطًا من ظلّ رقيق يخترق أعشابًا يابسة تتكسر برتابة، ناثرة صوتا ميتا يكاد لا يُسمع. تابع السيد أفولاي الظل الرفيع الذي يسير ببطء، وفجأة استلّ سيفه، ووقف منحنيًا يرقب الظل الذي كان يتوجه بالتواء أفعواني نحو الشاب أسافو. بدأ السيد أفولاي يخطو بتمهل وحذر شديدين، محاولا أنْ لا يُصْدِر صوتًا يستنفر ذلك الشيء الذي يشبه خيطَ ظلٍّ رفيعًا. واصل مشيه، والسيفُ في يده، ونظره الثاقب يتبع خيط الظل، ثم سرعان ما زاد السيد أفولاي من وتيرة سرعة مشيه، ولكنه حافظ على هدوء بالغ.

كان تقدير السيد أفولاي دقيقا جدًا.. فقد وصل في الوقت المناسب:

- «لا يجب أن تعيش بعد اليوم أيها الغادر؟».. قال ذلك بعدما ضرب، بسيفه الحاد، ضربة مباغتة وحاسمة وقعت قريبًا جدًا من عنق أسافو، وظل السيف مغروسًا في الأرض يلمع حده تحت نور البدر الباهر.

استيقظ أسافو مذعورًا من النوم، وكان أول شيء فعله- لا إراديًا- هو أنه أخرج السيف، وحاول أن يطعن السيد أفولاي في بطنه دون أن يعرف هُوية الشخص المغروس سيْفُه بمحاذاة عنقه، غير أن السيد أفولاي كان أسرعَ؛ بحيث أزاح بخفّة سيف أسافو، ورماه بمناوَرَة ماهرة بسيفه بعيدًا:

- «يجْدُر بك أن تكون أكثر فطنة أيها الصبي».. قال السيد أفولاي بلا مبالاة، وهو ينظر بعيدًا جدًا؛ حيث المدى الذي لا تحدّه العين، وضوء البدر الباهر الذي ينثر ذرات فضية على كل شيء.

همهم أسافو بنبرة غير مصدِّقة:

- أتريد قتلي يا سيدي!

- لست أنا، أيها الغبي، مَنْ أراد قتلك؟

رد أسافو بغير إدراك كامل لما يقول:

- أتقصد سيفك يا سيدي؟!

- ولا سيفي أيها المغفل!

تساءل أسافو بحيرة:

– من إذاً؟!!

قال السيد أفولاي محتفِظًا بلا مبالاته الغريبة:

– ذلك المتمدد بجَنْبِك.

– تقصد ساريل؟

– إنه من الجبن بحيث لا يستطيع حتى التفكير في ذلك!

احتار أسافو:

– لا أفهم شيئا يا سيدي!. أرى فقط سيفك قرب عنقي.

رفع السيد أفولاي، بسيفه، الثعبان مقطوعَ الرأس بجنب أسافو، ووضعه أمام ناظِرَيْه:

– أقصد هذا أيها المغفل.. عليك أن تتعلم دائماً كيف تشمّ وتسمع وترى الموت، وكل خطرٍ محدق بك، وأنت مستغرق في النوم!

نظر أسافو بهلع إلى الثعبان الفتاك المبرقع بدوائر تشبه قطعا نقدية فضية قديمة؛ الثعبان الذي يتدلى ملولبًا من سيف السيد أفولاي، فوجف قلبه من المشهد المروع، ورأى دما قليلا يرشح من الثعبان مقطوعِ الرأس.

– لقد كان على بُعْد شبر واحد من عنقك.. تصوَّر لو أنه تمكن منك.. كنت مُتَّ من الفور!

قال أسافو بصوت مرتجّ:

- أعرف هذه النوعية السامّة من الثعابين.. سمُّها ينتشر فجأة في الجسد.. حِينَهَا لا يتوفر أي وقت لإنقاذ الضحية!

قال السيد أفولاي متهكما:

- حتى لو قطعتُ رأسكَ... وهو ما كنت سأفعله لو لدغك الثعبان.

أخرج أسافو زفرة عميقة، وقال بصوت مهزوم:

- كانت زهرة الجمر مُحِقة حينما حذرتنا من ثعبان قد ينبري لنا في أي وقت.

- لا تكن مغفلا أكثر يا أسافو!. زهرة الجمر أذكى من أن تحذرنا من ثعبان خجول كهذا.. لقد كانت تقصد شيئا آخر...

توجه السيد أفولاي من جديد إلى الشجرة، ووضع السيف بجَنْبِه، ثم أخرج أيقونة ثفوشت، وأخذ يتأملها بعينين عميقتين.. رأى زهرة الجمر تَذْوِي كزهرة نرجس قرب نهر صغير رقراق، ورأى أنير ملقى على الأرض والنحلُ يلسعه، ورأى المعلم ماسين يُدفن في قبر وهو واقف، ورأسُه مرفوع بشموخ إلى السماء. شعر بحنين جارف إلى كل شيء في بلدة دريو، وتساءل إن كان بمقدوره أن يوصل الأيقونة والخاتَم إلى أنير، وراعه احتمال ضياع أنير في سفر انفرادي مخيف. ظل فِكْر الكهل تائها، وهو يتأمل الأيقونة التي كانت تنشر داخله دفئا غريبًا:

- نَمْ يا أسافو.. لن يهاجمك ثعبان آخر! صدفة مثل هذه لن تتكرر مرة أخرى.

- نم أنت يا سيدي أفولاي.. فأنتَ لم تذق طعم النوم طَوالَ الليل فيما يبدو!

- لا تقلقْ أيها الشاب المخلص!. لقد نمت ما يكفي على صهوة البغل مساء هذا اليوم.

لم يستطع أسافو النوم! ولم يكن سبب ذلك خوفه من ثعبان ما قد يهاجمه، ولكنه شعر بامتنان نحو السيد أفولاي الذي أنقذ حياته، ولم يشأ أن يتركه يحرس القافلة وحيدا؛ فقرّر أن يبقى مستيقظا حتى الصباح. تمدد من جديد على الأرض، وجعل نفسه يبدو كمَنْ استغرق في نوم عميق، لكنه سمع صوت السيد أفولاي يخاطبه بوُدّ:

- لا تخدع نفسك بنوم مزيّف سيُرهقك أكثر ممّا سيُريحُك!

لم يقل أسافو شيئا، ولكنه لم يستطع إغماض جفنيه. وظل يراقب السيد أفولاي، الذي واصل تأمل الأيقونة حتى بدا- في الأخير- وكأنه انفصل عن العالم المحيط به، وولج عوالم لا تمتّ إلى الواقع بصلة؛ فقد رأى في شبه منام إلهة الشمس تلقي زغبة من شعرها المتوهج لأنير، وكان النور يملأ قلب الشاب الأمازيغي بالحب والطموح. وبعد وقت طويل، بدأ رأس الكهل يتدلى، قبل أن تخطفه غفوة غاب خلالها الشاب أسافو بدوره في نوم داهمه على حين غِرّة. لكنه سرعان ما استيقظ على صوت السيد أفولاي، الذي كان يلكزه بعقب سيفه:

- انهض يا أسافو.. يجب أن نغادر قبل أن تدركنا شمس الضحى الحارقة.

نظر أسافو حوله؛ فرأى غسقا أحْمَرَ يلطخ وجه السماء، والمحيط الذي تلبس حلة برتقالية متوهجة، وشمَّ رائحة الندى والأعشاب اليابسة. وطغت رائحة الملح حتى خُيِّل إليه أنه في مصفاة ملح في بلدة دريو. بعد قليل، كانت البغال قد حملت بأكياس الملح، وسارت القافلة يتقدمها ساريل الذي لم يتوقف عن التثاؤب ككلب ظمآن.

بودي أن تهبّ الريح مؤاتية؛

لذلك يا مَنْ أرغمتني على أن أحبك بلا رغبة،

سأحبك بلهفة.

جبل الأمازيغ

مات النائب سيساو؛ والد السيد ماريوس، إثر هذيان الشيخوخة المتواصل الذي جعله يردد لبضعة أيام العبارة نفسها، وهو يلوح بالغمد بعدما جردوه من السيف مخافة إلحاق الضرر بمن حوله:

_ سأموت..ولكن سيفي لن يموت.. سيثقب القبر ويخرج ليحكم أصقاع الأرض كلها.

أصبح السيد ماريوس، الذي أُعْلِنَ سابقًا بطلاً قوميًا لمدينة أرتو، عقب الانتصار الباهر الذي تحقق في معركة الذئاب، يمتلك صلاحيات واسعة؛ فهو الآن النائب الأول للحاكم أورليوس سيبيو خلفًا لوالده سيساو، وقائدٌ عامّ للجيش الذي شَكَّلَهُ بسرعة، وجهّزه بعتاد حربي حديث، بعدما استقدم مدرِّبين مَهَرَة من

الرومان لتأهيل مدربين لجيش المدينة، وقَسَّم الجيش إلى عدة سرايا، ووزعها على الأبواب الأربعة. كما ضاعف من عدد حراس المدينة لكي يضمن استتباب الأمن، ولكي يردع المجرمين الذين غالبًا ما يتكرس الاعتقاد الخاطئ بأنهم ليسوا سوى الأمازيغ، الذين ينهبون أحيانًا في الليل حوانيت صائغي الذهب أو بائعي التحف، ومخازن مواد التموين الغذائي، وكل شيء ثمين تقع عليه أيديهم، بينما الحقيقة أن الكثير من الحراس الليليين يترصدون أي فرصة للقيام بأعمال السرقة، وهم أنفسهم من يلقي القبض على أي أمازيغي بريء يصادفونه يتسكع في الليل. كما أن السيد ماريوس كلف ورشة نشارة السيد ريمس بصنع باب خشبي ضخم وقوي، بدلًا من باب المدينة الكبير الذي تحطم خلال معركة الذئاب.

ظلت الأميرة سانيس تعيش عالمها الخاص، وواصلت رؤية ذلك الشاب البهي في أحلام يقظتها ومنامها، يُقبل نحوها منشرحًا باسمًا، ولكنها ظلت ترى أيضًا إلى جنبه طيفًا غامقًا غيرَ محدد الملامح، ولم تكن تعرف هل ذلك الطيف طيف إنسان أم هو طيف لشيء آخر. واصلت السير إلى وسط المدينة، ومرّت بورشة النشارة التي استعادت نشاطها وحركتها المعتادة، وشمّت رائحة خشب السنديان والزان، وتضوّع حولها رحيق عجيب امتزج برائحة الحديد المنبعث من ورشة العجوز كاجي، بعد العمل غير المسبوق الذي حصل داخلها قبيل معركة الذئاب؛ بحيث تم فيها شحذ عشرات السيوف في يوم واحد. وتصورت سانيس هذه المرةَ أنها ترى ذلك الشاب بهيَّ الطلعة في ورشة كاجي فعلًا، وأنه يبتسم لها فعلًا، وأنه يهرول

نحوها فعلاً، ولكنها- في الأخير- وجدت نفسها تمر بجوار ورشة كاجي، ولم تر سوى العجوز الذي يُقارب سِنُّه الثمانين، وعامليْه اللذين لا يكفان عن الضرب، بمطارقهما القوية، على الحديد، ضرباتٍ تزعج سمْعَ سانيس، التي رأت العجوز كاجي يُحَدِّق فيها مدهوشًا، تكاد عيناه تسيلان على الأرض بشبق شيخوخة واهن، بينما وجنته اليسرى اليابسة ترتجف بوتيرة غير عادية. لم يكن هذه المرة ميتًا من الداخل، كما في المرة السابقة حين كانت تدور في شارع الرئيس رحى معركة طاحنة.. حينذاك كان يعيش فترة بعيدة جدًا من شبابه، وكان يتذكر حربًا ضَرُوسًا خاضها ببسالة، وشاهد فيها الدم والقتلى والجرحى لأسابيع طويلة متوالية.

تجاوزت سانيسُ العجوزَ السيد كاجي، وهي في طريقها إلى حي الأمازيغ، وبدت لها السماءُ غريبةً ذلك اليومَ كما لو أنها بحيرة زرقاء متجمدة، والسحبُ الحمراء والصفراء الباهتة متسمِّرةً في مكانها، ورأت الشمس ترشّ وجوه الناس وجُدرَان المدينة بأشعة شاحبة. واندفعت الصور داخل سانيس بقوة وشراسة ماحقة كبركان هادر كاد يتفجر من كل تقاطيع وجهها، وتقاسيم جسدها البديع، حين اقتربت من منحدر جبل حي الأمازيغ، سمعت عزف موسيقى تصلها مع الريح الخفيفة الممزوجة برائحة أشجار الرند، التي أمر السيد ماريوس بغَرسها في كل أنحاء شوارع أرتو وأزقّتها.. موسيقى نفذت إلى وُجْدان سانيس، وتغلغلت في روحها المندفعة.

في الجهة الأخرى من الجبل نفسِه، المفتوح على الخواء وعلى مجرى مائي صغير، ظهر أنير بمشية محمّلة بإجهاد سفر شاقّ، وإلى جنبه تيرينا تسير برشاقة غزالة سُهُوب منهكة. نظرا بدهشة نحو الجبل الذي غُرست على سفحه بيوتٌ فقيرة ملونة، فرأيا أطفالًا عُراة يلعبون في الأزقة الضيقة، ويتراشقون بِرَوْث حمير. قالت تيرينا، وهي تنظر مستغربة للتحول العجيب الذي طال جبل الأمازيغ:

- لقد تغير الحي كثيرًا.. لم يكن بهذا الاكتظاظ قبل ثماني سنوات!

رفع أنير نظره، ماسحًا الجبلَ بنظرة عابرة، وقال:

- أشياء كثيرة تتغير، وفي زمن قصير.. أكثر بكثير مما نتصور!

كانت تيرينا تمشي خلف أنير حين دخلا زُقاقًا من أزقة حي جبل الأمازيغ الضيقة. بدت متوجسة ومسكونة برهبة عجيبة.. إن العودة إلى الجذور تعني العودة إلى ذكريات جميلة وقاسية، وإلى ماض حزين وبهيج. لاحظ أنير أن سكان الجبل يُدهشون كلما وقعت أعينهم عليه، بل كان نشاطهم يتوقف ويظلون يبحلقون فيه! التفت إلى تيرينا ليعرف هل هي أيضًا قد انتبهت إلى الملاحظة نفسها، لكنه ارتاع حين لم يجدها خلفه! رأى فقط عدة أزقة متفرعة.. لم يعرف على أي زقاق يراهن، ولكنه سأل أمازيغيًا كان مشغولًا بالاغتسال في الزقاق عاريًا، كما ولدته أمه، وكان قد توقف عن صبّ الماء من القِدْر على جسمه الضامر بمجرد رؤيته لأنير:

- أيها السيد، هل رأيت تلك الفتاة التي كانت برُفقتي؟

ظل ذلك الرجل ينظر إلى أنير مذهولًا، قبل أن يستعيد بعض وعيه، فقال:

- لا.. لم أر أي فتاة.. كنت وحدك فقط!. لا.. لم تكن هناك فتاة.. لا...

احتار أنير.. لم يعرف ماذا يفعل! ووقف لحظات ينتظر لعل تيرينا تظهر من جديد، وشعر - خلال ذلك - بكل الزقاق ينظر نحوه، وشعر بالنساء تتطلعن إليه من خلال الكُوّات والنوافذ الخشبية القديمة، وبالأطفال من فوق الأشجار، ومن وراء حيطان القصب العتيقة، ترتسم على وجوههم معالم حيرة واستغراب لم يستطع أنير فهمها! وفي الأخير، صاح بأعلى صوته:

- تيرينا.. تيرينا...

غير أن صيحته تدحرجت مع الجبل، وانحدرت إلى الأسفل كحَجرة ثقيلة الإيقاع والوزن. ومع صيحة أنير، ازداد استغراب الأمازيغ، وهم يعاينون ارتباكه وشكله الغريب.. لم يتوقعوا رؤية أمازيغي بهيئة وشكل راق جدا، يفوق الرومان وسامة وشموخا! ظلوا ينظرون إليه بعيون واسعة ودَهِشة. وتساءل أنير:

- ولكن أين تيرينا؟! بحق الآلهة كيف يمكنني أن أفرّط فيها؟ وكيف أستطيع تحمّل هذا الموقف الصعب؟!!

أصبح يسير بغير هُدىً بين الأزقة باحِثًا عن تيرينا، واستمر

سـكان جبـل الأمازيـغ يُحَمْلقـون فيـه بدهشـة غريبـة، وكان كل نشـاط يتوقـف بمجـرد وقـوع أعـين مُزاوِليـه عـلى أنـير.

السيدة جيزيا والرومانية الحسناء

في الأسـفل، ومـن الجهـة الأخـرى، بـدأت الأمـيرة سـانيس صعـود جبـل الأمازيـغ. ولجـت زقاقـا ضيقـا يقـود إلى حـي ملـوث بـكل أنـواع القـذارة الممكـن تخيّلُهـا.. خضـار متعفنـة، جثـث كلاب تعيـش فيهـا مسـتوطنات مـن الديـدان، بـول في كل زاويـة أو وراء أي حائـط، قمامـة مرميـة مخلوطـة بـماء فاسـد، وسـقْط دواجـن عفنـة تفـوح منهـا روائـح عطنـة... أصبحـت سـانيس تسـير وسـط موجـة مـن القـذارة، التـي لا يمكـن لشـخص عـادي تحمُّلهـا، ولكنهـا كانـت- في مـكان آخـر، وفي عـالم آخـر- تعيشـه بطريقتهـا؛ فقـد ظلـت تـرى ذلـك الشـاب البهـي، منـشرحَ الملامـح، يقـترب منهـا بوتـيرة متسـارعة، وتـرى إلى جَنْبـه طيفًـا غامقًـا غـيرَ واضـح القسـمات، وكان ذلـك الشـاب كلـما اقـترب منهـا، ابتعـد مـرة أخـرى، ولكـن ذلـك الطيـف الشـفاف الغامـض سرعـان مـا اختفـى مـن جنـب الشـاب البهـي. واصلـت سـانيس صعـود الجبـل، لقـد بـدأت رحلتهـا إلى المسـتقبل، الآن سيحسـم كل شيء، لـن تظـل سـجينة للأحـلام الموجعـة.

صـادف في تلـك اللحظـة أن ألقـت شـابّة أمازيغيـة مـن نافـذة البيـت بعشـوائيةٍ مـاءً مـن قـدر، وكان المـاء ملوَّثـا ببقايـا سـمك، وقع على أسـفل شـعر سـانيس، وعـلى خلفيـة ثيابهـا. لم تُبـالِ، بـل اسـتمرت في مشـيها،

وصادفت في طريقها أطفالا ابتسموا في وجهها ببراءة، ولكنهم- فجأة- بصقوا في وجهها حين اقتربت منهم، وفرُّوا مقهقهين!

تناهت إلى سمعها نبرات صادحة لموسيقى قيثارة ساحرة، فتتبّعت أثرَها غير مهتمة بما حولها، وكأنها تتبع حلماً في منام هادئ. وأرغمها بائع أوانٍ منزلية، بإلحاح عنيد، على شراء بضاعة منه، ولما اقتنت ذلك الشيء، الذي لم تنتبه إلى ما يمكن أن يصلح له، وجدته قد سُرِقَ منها من قِبل فتيان فرُّوا هاربين حتى قبل أن تدفع ثمنه للبائع. واصلت السير المتمهل، وكأنها تتجول في حديقة مزهرة، وأحسّت بأنها تقترب أكثر فأكثر من مصدر موسيقى القيثارة، التي جذبتها جذبًا غريبًا إليها. وفجأةً وجدت نفسها تغرق حتى الركبة وسط مستنقع من ماء آسِن يطنّ فيه البعوض والذباب الأزرق ثقيلُ الطيران، وتعوم فيه الضفادع وبعض الحشرات الغريبة.. كادت تسقط! وحين حاولت الحفاظ على توازنها، لامست بيدها مياه البركة المتعفنة، فتناثر على وجهها وملابسها ماء متخثر أسود. ورغم كل شيء، وجدت نفسها- في الأخير- تقف عند بوابة البيت الذي تنبعث منه تلك النبرات الساحرة. لقد بدت في حال أشبه ما تكون بفتاة عوقبت بالقذف بكل شيء قذِر وملوّث، لساعات طويلة؛ كما هو العُرف في مدينة أرتو، لعقاب الزانية قبل ترحيلها بعيدًا عن المدينة!

وقفت الأميرة سانيس مشدوهة لسحر العزف الباهر الذي تسرب إلى روحها كموجة من رحيق فردوسي غير ممكن.. رحيق

لا يصدق. طرقت الباب عدة طرقات. لم يفتح الباب، لكن العزف الموسيقي الساحر ظل متواصلًا، وتناثر في نفسها كأوراق ورد عبق بطيب مدوّخ. بعد لحظة، فتح الباب، فوجدت نفسها أمام أمازيغية مراهقة مليحة الوجه، سوداء الشعر والحواجب، رموشُها مرتخية كحلم جميل لا يودّ أن ينتهي، ترتدي ثوبًا باليًا، ولكنه كشف أسرار جسدها البديع المحيرِّ في تناسقه البارع. لم تقل المراهقة الحسناء شيئًا، بل فتحت الباب، وتراجعت إلى الداخل. ترددت سانيس قليلًا، لكنها تبعتها في الأخير، لتجد نفسها في فناء كوخ قديم؛ كوخ مبني بالقصب والعيدان، ورأت شابًا يافعًا يحضن قيثارة غريبة مزركشة الألوان؛ قيثارة لم تشاهد مثلها من قبْلُ، ولكنها قيثارة ترسل نبرات أنيقة ساحرة. جلست الأمازيغية المراهقة بجنب الشاب، ثم أخذت تصفّف بيدها شعرها المتموج الهادر. أكمل الشاب عزف الوصلة الموسيقية، ثم رفع بصره نحو سانيس، فاحتوته بعض الحيرة، ولم يعرف كيف يتصرف.. لقد أدرك بوضوح أنها فتاة فقيرة جدًا من الأسفل.. هكذا يسمي أمازيغ الجبل سكان مدينة أرتو؛ ولذلك خاطب الفتاة الأمازيغية الحالمة كمخلوقة عجيبة منبعثة من نبرات موسيقى رفيقها:

- تيرارا، أعْطِها شيئًا تأكله؛ شيئًا تسدّ به رمقها، وحبَّذا لو أعطيْتِها أيضًا رداءً تستبدل به هذا الملوَّث.

لم تجب تيرارا، ولكنها حاولت أن تنزع عنها ذلك الثوب القديم لتمنحه للمتسولة المُفْتَرَضة. لكن الموسيقي زجرها بلطف، وأمرها

أن تحضر لها ثوبًا نظيفًا. وتدخلت الأميرة سانيس في الوقت المناسب لتشرح الموقف للموسيقيّ:

- جئت أبحث عن بربري عرَّاف.. سمعت بأنه بارع جدًا في علم التنجيم.

صمت الموسيقي قليلًا، وهو ينظر بشِبْه استغراب:

- تقصدين عرَّافًا أم عرَّافة؟

- لست أدري! ربما تكون قارئة طالع!

- أعتقد أنك تقصدين السيدة جيزيا.. إنها تسكن غير بعيد من هنا. ولكي تَصِلي إليها، ينبغي حمايتك.. سأرافقُكِ إليها إنْ أحْبَبْت.

- سأكون مُمْتنّة لكَ أيها السيد المحترم.

- اسمي لوطر.

- سانيس.. اسمي سانيس.

التفت إليها باستغراب، وهو يهمّ بالنهوض من مكانه، ثم قال بغير كثير اكتراث:

- تشبهين الأميرة سانيس بنت حاكم أرتو، وتحملين اسمها نفسه، يا للغرابة!

- أنا سانيس بنت أوريليوس سيبيو بالفعل يا سيد لوطر.

- حقًا؟!

في البداية، لم يصدق الموسيقي الأمازيغي اللطيف ما يسمع، ولكن

كل شيء كان يوحي إليه بأنها هي، ولم يكن في حاجة ليسأل ما الذي جعلها تبدو على تلك الحالة البذيئة.. وحينذاك قرّر أن يُشَكِّل فرقة صغيرة لمرافقة الأميرة إلى السيدة جيزيا قارئةِ الطالع، وإبقاء الأميرة في أمان تامّ حتى خروجها من حيّ الأمازيغ. ولكي يشكل فرقة الحراسة الصغيرة، فقد اكتفى الموسيقي بمناداة مراهق من الشارع، حضر في الحال. همس في أذنه بكلام، ثم انصرف مسرعًا. وبعد لحظات، ظهر، كالمعجزة، بضعة فتيانٍ يافعين، من اللاشيء، يبدو أنهم أقرب إلى فصيلة العفاريت منهم إلى البشر! وقفوا متحفزين لتنفيذ أي أمر يصدر من الموسيقي، ولو كان هذا الأمر هو افتراس الفتاة الرومانية الغريبة بأسنانهم الصفراء المسوّسة.

سارت سانيس برفقة لوطر وسط فرقة صغيرة من الحراس المتطوعين. وبعد مشي قليل، وقفت أمام باب كوخ لا يختلف كثيرًا، في طابعه العام، عن باقي أكواخ الأمازيغ، ولكن لونه الأسود الداكن أثار في نفسها مشاعر متضاربة غير مفهومة ومخيفة في الأخير. طرق لوطر الباب، ثم تراجع إلى الخلف، وخاطب الأميرة سانيس:

- سننتظرك ريثما تُنْهين مهمتك، وبعدها سنوصلك حتى مخرج الحي.

- حسنًا!. أشكركم جميعًا.

لم تنتظر الأميرة كثيرًا؛ فسرعان ما انفتح الباب على السيدة جيزيا التي بدت امرأة مَهِيبة؛ امرأة لا يمكن تحديد عمرها أبدًا،

ولكن يمكن الجزم بأنه لا يقل عن الثلاثين، ولكنها لا تتجاوز على أيّ حال سنَّ الثمانين؛ امرأة ترتدي ألبسة غريبة.. لم تكن ألبسة من قماش فقط، بل هي مزيج منسوج من ريش طيور وقواقع ولحاء شجر ملين ونبات حَلْفاء وأشياء أخرى مختلفة. بمجرد رؤيتها سانيس، فزعت السيدة جيزيا، وبدَتْ على وجهها الطيني تقاطيع هندسية تشبه شبكة عنكبوت كثيفة الخيوط. تراجَعَت إلى الوراء، وهي تكاد تطلق صرخة فزع. ابتعدت ماشيةً بمهلٍ إلى الخلف دون أن تُولِيَ ظهرها لسانيس، التي غمرتها موجة من حيرة لم تَعِشْ مثلها قطُّ.. لقد بدت جيزيا مرعوبة إلى درجة الهستيريا.

- «اهدئي أيتها السيدة.. اهدئي..» قالت سانيس مُخاطِبة السيدة جيزيا التي انزوت في ركن الفناء، وتقوقعت على نفسها، وهي تلهث بشدة، وأنفاسُها تكاد تنقطع. اقتربت منها الأميرة سانيس بهدوء، ووضعت يدها على رأسها، وخاطبتها بصوت حانٍ:

- جئت أطلب مساعدتك.

نظرت السيدة جيزيا حولها بارتياع، وقالت بصوت مرعوب:

- فِيمِ يمكنني مساعدتك يا بُنيتي الأميرة الجميلة؟!

- ألسْتِ قارئة للطالع؟

- بلى، يا بنيتي.. بلى.

- أريد أن تقرئي طالعي، وتفسِّري لي حُلماً راودني طويلاً في منامي و يقظتي .

صمتت جيزيا، وهي تغالب بإجهادٍ انفعالاتها الشديدة:

- لا أستطيع يا بنيتي.. لا أستطيع.

استغربت الأميرة سانيس، وسألتها مستفْهِمَة.. لقد ذهب ظنّها إلى والدها أوريليوس سيبيو:

- لماذا لا تستطيعين.. أيكون أحد قد منعكِ.. والدي مثلًا؟

- لا أحد! ولكنني أرى داخلك بركانًا ملتهبًا يكاد يرمي بالحِمَم مَنْ حوله.. فيك طاقة هائلة تلْجم كل معارفي بعلم التنجيم!. لا.. لا أستطيع.. سأموت لو حاولت!

لمست الأميرة سانيس صِدْقًا في كلام السيدة جيزيا. ولكي تختبرها جيدًا، أخرجت من تحت ثوبها سِوارًا ذهبيًا ثمينًا:

- سيكون لك هذا السوار إذا نفّذت ما طلبت منك.

أجابت السيدة جيزيا برعب:

أرجوك بنيتي.. أرجوك! أبعديه عن أنظاري.. إنه يكاد يُحْرِقُني!

غادرت الأميرة بعدما تأكدت من عدم جدوى استمرارها في المحاولة مع امرأة غريبة الأطوار؛ كما بدت لها، وربما تكون مصابة بمسٍّ من الجنون. خاطبت الموسيقي لوطر:

- هل تكون هذه المرأة هي حقًا العرّافة البربرية الأكثر براعةً في علم التنجيم؟

- نعم، والكلُّ يشهد لها بذلك.. هل قضت حاجتك؟

- بطريقتها الخاصة طبعًا.

صاح الفتية من الخلف:

- إذا ثبت أن هناك عُرْسًا، فنحن نريد حصّتنا من لحم الماعز.

ضحكت الأميرة سانيس، وأخرجت السوار الذهبي، وسلمته إلى لوطر:

- لوطر سيبيع هذا السوار، وستقتسمون ثمنه بالتساوي بينكم.. تستطيعون، بثمنه، شراء عشرين إلى ثلاثين رأس ماعز على الأقل، ولكنْ ليس هناك عُرْس، وإلا لكنت قد استضفتكم جميعًا في حفل الزفاف.

صاح أحد الفتيان بحذلقة:

- إنها أخبار سيئة كما يبدو.. يمكنك اختيار عريس أمازيغي قَذِر وفحل كحمار.

ابتسمت سانيس، ولم تعلق.

واصل فتى قصير القامة، يُدعى تواهي، قيادة فرقة الحراسة الصغيرة؛ فتى عريض المنكبين، متصلِّب عضلات الأرداف والذراعين، يطْلق شعرًا طويلاً، مشدودًا بسلك من نحاس. وظل يزمجر كذئب جائع، وحين يتناثر صوته في الأرجاء، يموت الزقاق من الفور.. يتجمّد الأطفال خوفًا، ويلتصق المارّة بالجدران، وتسكن الحركة، ويهدأ الضجيج الهادر المنبعث من الأفنية، وينقطع ثغاء الماعز وصياح الدجاج وشقشقة العصافير. واستمرّ الفتى القصير يضرب،

بقضيب مصنوع من فرع شجرة سدر، الأرض والجدران، ناشرًا طقس رعب يُجيده على نحو مثير للإدهاش.

انسلّت الأميرة سانيس من وسط فرقة الحراسة بعدما شكرت الفتية بحرارة، وغادرت مخرج حي الغَجَر. صاح بها فتى طويل القامة، مربع الوجه، ومجعد الشعر:

- لقد عشقتك أيتها المتشردة الجميلة.. عودي مرة أخرى.. أعِدُك.. لن ترغبي في الرجوع إلى أرتو.. لدى كل شيء يمكن أن تحبّيه.

وصاح فتى آخر:

- هذه القذرة حسناء بالفعل، بل لا يمكنني تجاهل إعجابي الباهر بها.. لقد عشقتها.. انظر كيف تهتز أردافها.. إنها عاهرة لذيذة.

وظل تواهي يضرب ركبته بلطف بالقضيب المصنوع من فرع شجرة سدر، وفي الوقت نفسِه كان يتابع الأميرة سانيس بعيون طافحة بإعجاب غامض ومرعب. انسحب رفاقه عائدين إلى الجبل، ولكنه استمر يراقب سانيس من بعيد. وحين غابت تمامًا عن ناظريه، تنهّد تنهيدة طويلة، خرجت مندفعة مع أنفاسه الحارقة، وامتزجت بريح بداية خريف بارد. ردّد في نفسه بتصميم مخيف: «يجب أن نلتقي مرة أخرى أيتها اليمامة الملوثة.. نعم، يجب أن نلتقي..».

واصلت الأميرة سيرها، وهي ترى طيف شاب بهيّ الطلعة يقترب منها أكثر من أي وقت مضى، وبدت ملامحه هذه المرةَ أكثر وضوحًا من أي مرة أخرى، ولكنه ما فتئ، كالعادة، يبتعد بمجرد اقترابه منها، وتضيع صورته وسط موجة ضباب أبيض مائل للزرقة. وظلت تفتّش عنه في مخيّلتها من دون كلل، ولكنها عجزت تمامًا عن اللَّحاق به. وحين عاود الظهور، كانت الخادمة بيرينة قد أدخلتها بسرعة إلى جناحها في القصر، وجهزت لها حمّامًا ساخنًا، وألبسة نظيفة. غرقت الأميرة سانيس في رغوة صابون صلصالي أحمر، والتصقت بجسدها، المنحوت كإلهة نورانية، فقاقيع صغيرة وكبيرة انهمكت في إطفائها، بنشوة غامرة، الواحدة تلو الأخرى، وصورة الشاب البهي ترتسم أمامها كطيف بروح حقيقية؛ طيف لا يرغب في الابتعاد عنها، ولا يرغب في الاقتراب منها. ورأت دائرة ترتسم أمام وجهها؛ دائرة في بداية تشكلها؛ دائرة تمثلتها في حلم أصرّت في نفسها على أنه يجب أن يتحقق في النهاية.

هروب

استمر أنير ينادي تيرينا من أعلى جبل الأمازيغ، ولم يعد يبالي بنظرات الاستغراب التي تقع عليه كقطرات مطر خريفي ثقيلة. فتش في عدة أزقة ملتوية وموحشة؛ أزقة غريبة هي عبارة عن مقابر اصطفت فيها القبور على جنبات الأزقة؛ قبور منبوشة، تظهر في بعضها جماجم موتى، وبعض من هياكلها العظمية. جدَّ

في السير، وهرول مبتعدًا، وشعر برجفة هزّت كِيانه من الداخل، وشعر بذاكرته تتحرك، وتذكَّر أشياء من ماضيه البعيد، ورأى الكهل ماسين، وفي يده أيقونة ثفوشت الذهبية، وتاجر الملح السيد أفولاي وفرحته بالكتاب؛ تلك الفرحة التي ارتسمت على مُحَيّاه كطفل بريء، وبلدة دريو البعيدة، والأرملة ليفيا الطيّبة الفاتنة، وزهرة الجمر التي لفحت ذاكرته بوخز مؤلم وحالم. تعثّر فجأة بحجر، بينما هو يهرول لاهثًا. وقع على الأرض، ولم يستطع التحكم في نفسه. رأى نجومًا تسْطَع أمامه؛ نجومًا تسبح في سماءٍ من دم. تدحرج مع المُنْحَدَر الوَعْر، وتمرّغ في التراب وفي القذارة وفي البرك المائية الصغيرة الملوثة. حين وصل أسفل الجبل، أضحى أشبه بشخص شحّاذ أفاق من نوم محموم ليجد نفسه في حظيرة حيوانات! شعر بآلام في جسمه، وراعه منظره، وتذكر شكله في رحلته المجهدة بين دريو وكوخ السيد بيكاو؛ حيث اعتنت به تيرينا عناية فائقة، وحمّمته بماء ساخن أعاد إلى جسمه الحيوية والعنفوان، وشعر بيديها الناعمتين تلامسان جسده برقة وعذوبة، وعالج السيد بيكاو جرحه المتعفن. ولكنه الآن يستلقي مرتطماً بجذع شجرة رند تدفع في روحه أريجًا منعشًا مختلطًا برائحة القذارة التي تنبعث منه.

نهض بمشقة من مكانه. اتكأ على جذع شجرة الرند. نظر إلى المجال من حوله، فرأى مدخل مدينة أرتو من الجهة الجنوبية لجبل حي الأمازيغ.. مدينة جميلة، بناياتها متناسقة مَبْنِية بحجر أحمر شاحب منحوت بشيء من المهارة. الحركة داخل المدينة عادية. الكلُّ يزاول نشاطه بهدوء، وحراس المدينة يمرون من حين لآخر راكبين

جيادًا تدقّ حوافرها الإسفلت الحجري دقًا يُسمع من بعيد، وقد علقت على أحزمتهم سيوف من نوعية ممتازة. أخرج أنير، من صرّة صغيرة، قطعة ذهبية صغيرة هي الوحيدة المتبقية بحوزته، وتوجّه بها إلى صائغ في آخر الشارع. تأمَّله الصائغ باستغراب شديد، وظل يحدّق فيه قبل أن يقول له أنير:

- أريد استبدال هذه القطعة الذهبية بأخرى من عملة المدينة.

استجاب الصائغ لطلبه دون أن يتوقف الاستغراب الذي استحوذ عليه. وحين خرج أنير، أدرك أن هذا الاستغراب أمر عادي ما دام على تلك الحال من القذارة. توجه إلى دكان قريب، واشترى ألبسة جديدة، وعامله البائع بالحيرة والاستغراب نفسيهما:

- هل يوجد هنا حمّام قريب يا سيدي؟

أجابه تاجر الملابس بعدما استفاق من ذهوله العميق:

- نعم.. في الشارع الثاني، وفي المحل الثاني أيضًا، على اليمين.. على اليمين.

استدار أنير، وهو لا يزال يستمع إلى توضيحات التاجر. بعدما اقتنى بعض الحاجيات، استحمّ، وارتدى ملابس جديدة عَبِقة برائحة الكافور. على حين ظلّ صاحب الحمّام، رغم ذلك، ينظر إليه بالدهشة نفسها التي استقبلته بها أرتو منذ اللحظة الأولى، التي حطّ فيها قدماه على شوارعها. خرج إلى الشارع، وشمّ رائحة أكل شهي تنبعث من مكان ما. شعر بالجوع، فتبع أثر الهواء المحمّل

برائحة الرند وزبْل جياد فرسان الحراسة ورائحة يوم كثيف الرطوبة، ووجد نفسه أخيرًا أمام مطعم يبيع اللحم النيّئ والمطهو، والسمك المجفف المملّح مع خبز الشعير، وحساء القطاني. تناول طعامه بهدوء، غير مكترث بنظرات الاستغراب التي كانت تحتويه كالبخار الصاعد من قدور الطبخ في المطعم، وفكر في شذا الكستناء المشوي، وفكر في المعلم ماسين، الذي حمّله مهمة لن تكون يسيرة أبدا، ورأى أن مستقبل شعب الأمازيغ متعلق- بدرجة كبيرة- بنجاحه في المهمة النبيلة التي تقوده إلى هذه المدينة، وفكر في وجوه الفتيات اللواتي تعوّدْن أنْ يأتين إليه لشراء الكستناء من حين لآخر، في بوابة سوق بلدة دريو، محمَّلات بذات الغُنج والدلال الدائمين:

- هل أجد لديك شغلا؟. أستطيع أن أنظف أرضية المطبخ، وأغسل القدور، و... أستطيع فعل أشياء أخرى كثيرة.

- «لا.. لست في حاجة إلى عامل أيها الشاب».. رد صاحب المطعم، وهو غارق في شرود بدا وكأنه شرود أبدي.

اجلسْ بجنب خليلتك..

لا أحد يستطيع أن يقول لك: لا!

اضغط جنبًا إلى جنب لتكون لصيقًا بقدر ما تستطيع

شكرًا لعادة المقعد المزدحم.

أنير في مدينة أرتو

مـرّ أنـير بجنـب مصنـع زجـاج، ورأى مـن الخـارج أشـكالًا بديعـة؛ مـن مزهريـات زجاجيـة ملونـة، وزجـاج للزينـة، وزجـاج للاسـتعمال المنـزلي.. كـؤوس وأطبـاق وقواريـر ملونـة، ورأى صاحـب المصنـع يجلـس عـلى كـرسي، ويحـاور شـخصًا آخـر يرتـدي لباسًـا مختلفًـا عـن ألبسـة أهـل أرتـو، يبـدو أنـه تاجـر وفـد مـن مدينـة بعيـدة. انتظـر أنـير حتـى انـصرف الرجـل. دخـل مصنـع الزجـاج. شـمّ مـن الفـور رائحـة لا تشـبه أي رائحـة أخـرى، ولكنـه خمَّـن أنهـا لـن تكـون إلا رائحـة زجـاج؛ رائحـة زجـاج منصهـر في حـرارة تشـبه الجحيـم. نظـر مالـك المصنـع باسـتغراب نحـو أنـير، وكأنـه لم يشـاهد إنسـانًا مـن قبـل. «ألم أسـتحم؟! وقـد لبسـت ألبسـة جديـدة أيضًـا! وهـي ألبسـة سـكان مدينـة أرتـو نفسـها! فلـماذا

يستغربون لرؤيتي؟!».. تساءل، وقد احتواه بدوره استغراب عظيم. خاطب صاحب المصنع بعدما حيّاه:

- هل يمكن أن أجد عندكم شغلًا سيدي؟

ظل صاحب المصنع مذهولًا، قبل أن يصحو بذعر، ويرد بطريقة آلية:

- لا.. ليس لديّ شغل أيها الشاب! لا.. ليس لديّ شغل.

ولم يكن السيد سابْسي؛ صاحب مصنع الزجاج الشهير، متأكدًا ممّا إذا كان بالفعل يحتاج إلى عامل أم لا؛ فهو غالبًا ما يطرد عماله المعاونين القلائل إذا وجد منهم إهمالًا بسيطًا، أو أفسدوا صناعة زجاجية قد لا تساوي الكثير؛ وبالتالي كان يحتاج، باستمرار، إلى أيْدٍ عاملة، ولو احتياطية؛ فصناعته، من جهة أخرى، كانت مزدهرة، وزجاجه المشهور كان يُصَدَّر إلى أماكن بعيدة جدًا عن أرتو. لمح أنير التحف الزجاجية الجميلة، وشرد ذهنه، وابتعد في متاهات قادته إلى فتاة رومانية فاتنة رآها- ذات سنة بعيدة- في بلدة دريو، وإلى الحلم الذي جاء به إلى هذه المدينة، وتساءل غارقًا في تيهٍ عميق أمام نظرات صاحب المصنع الموغلة في الاستغراب والدهشة:

- هل يمكن أن ألتقي تلك الفتاة هنا في أرتو؟.

غادر مصنع الزجاج، وقد تشربت ملابسه رائحة غريبة؛ رائحة هي مزيج من كافور وملوّنات نباتية وفحم. هذه التركيبة العجيبة تحولت إلى رائحة تشبه رائحة أوراق شيح مهروسة. واصل أنير السير وسط المدينة، ورأى نشارة السيد ريمس، ورأى منحوتات

جميلـة، وأشـكال أبـواب فائقـة الروعـة، وهيـاكل خشـبية كبـيرة، وجذوع أشـجار عريضـة وطويلـة، انهمـك بعـض الفتيـة، بجهـد جبـار، ليجعلـوا منهـا ألواحًـا مصقولـة بمهـارة. تذكـر الغابـة، وتذكـر الحـادث المـروع الـذي تعـرض إليـه في مخرجهـا. تطـيَّرت نفسـه، ورهـب الخشـب وجـذوع الشـجر. هـرب مـن الموقـف مـن غـير أن يبحـث عـن صاحـب النشـارة ليسـأله إنْ كان في حاجـة إلى عامـل.

اجتـاز بضعـة محـالّ لم يعـرف مجـال اختصاصهـا، ولم يتوقـف عنـد المتسـوقين والعابريـن، الذيـن كانـوا يرشـقونه بنظـرات تعجّـب متواصلة، ولكـن لا أحـد جَـرُؤ عـلى الاقـتراب منـه، أو التحـدث إليـه، وهـو أمـر ارتـاح لـه مـن جهـة، ولكنـه انزعـج لعـدم تمكنـه مـن فهـم سـبب هـذا الاسـتغراب الـذي يُقابَـل بـه كلـما وقعـت عـين أحدهـم عليـه. لم يهتـم. واصـل سـيره، ووقْـع المطـارق الحـادّ في ورشـة حـدادة العجـوز السـيد كاجـي يصلـه مـن بعيـد، مختلطًـا بهديـل حمـام كان يحـط فـوق أحـد الأسـطح، وقـد تلبّـدت السـماء بسـحب الخريـف الداكنـة، ولعلـع الرعـد في الجهـة البعيـدة مـن المدينـة؛ حيـث البحـر ومراكـب الصياديـن وغنـاء النـوارس الكئيـب.

وجـد نفسـه -في الأخـير- يقـف أمـام شـيخ طاعـن في السـن، لحيتُـه بيضـاء، وحاجبـاه الناصعـان ينسـدلان حتـى يـكادان يغطيـان عينيـه. نظـر العجـوز إلى أنـير باسـتغراب هـادئ، واسـتمرت الضربـات الرتيبـة لمطـارق العاملـين تهـز ورشـة الحـدادة، وتصـمّ سـمع السـيد كاجـي. تحـدث أنير وسـط ضجيـج لا يمكـن أن يُسـمع فيـه شيء، ولكـن العجوز

كاجي أشار إلى عامليْه بأن يكفّا لحظة عن الطَّرْق. وبمجرد أن نظر العاملان إلى أنير شلت حركتهما، وظلاّ فاغِرَيِ الفمين، وبدا من الصعب إعادتهما إلى نشاطهما السابق، لو أمرهما بذلك السيد كاجي:

- «سيدي، هل يمكنني أن أجد عندكم شغلاً؟».. قال أنير، والعجوز كاجي ينظر إليه بحيرة، وبصمت أيضًا. انتظر أنير إجابة عن سؤاله، ولكنه لم يتلقَّ أي شيء:

- سيدي، ألاحظ أن الجميع هنا ينظرون نحوي باستغراب! هل لأنني غريب عن المدينة، أم إنّ المدينة لا تقبل الغرباء؟!

استيقظ السيد كاجي من استغرابه المؤقت:

- نعم؛ لأنك غريب! وهذا صحيح.

- ولكن ألاَ يدخل المدينة غرباء كُثُر سواء للتجارة، أو لمجرد النزهة، أو للعمل أيضًا؟!

- نعم.. يدخلون، ويوجد الكثير منهم الآن في المدينة.

- ولكن، لماذا أعامَل أنا بهذه الطريقة بالضبط؟!

التفت العجوز كاجي، ونظر إلى كل شيء حوله دون أن يستقر بصره على شيء محدد:

- لأنك الغريب الحقيقي من بين كل الذين ذكرت... ولأنك أمازيغي أكثر وسامة.. ونبوغا ربما من الرومان أنفسهم. هل فهمت أيها الشاب؟!

- لا يمكنني فهْم مثل هذا الكلام! هل تراني أبدو على هيئة مختلفة؟!

- لا، أنت- في المظهر- شخص عادي كأي شخص آخر، ولكنني أشعر، وعيناي تُصْدَمان بك، وكأن حريقًا مستعرًا يمور داخلك، وكأنك تحتاج إلى كل مياه الأرض والسماء لتطفئ ذلك الحريق!

- طبعًا، أنت لا تتوقع أن أفهم مثل هذا الكلام.

- نعم، أفهم أنك لن تفهمه.. إلا إذا كنتَ أنتَ آخرَ ينظر إليك.. وهي معادلة غير ممكنة كما ترى!

- يا سيد...؟

- «السيد كاجي».. هكذا يناديني الجميع، ولكن زوجتي الشابة، وهي الآن في الثالثة والستين من العمر، تحب أن تناديني تحبُّبًا «كاجيو». وكاجيو كلمة فيها رجولة أكثر.. وربما فحولة أكثر بحسب اعتقادها.

ضحك أنير لأول مرة منذ دخوله مدينة أرتو، وأعجب بالعجوز وروحه الطيبة الودودة:

- هل يمكنك أن تشغّلني في ورشتك يا سيد كاجيو؟

- لا أسمح لأحد بمناداتي بهذا الاسم غير زوجتي، ثم إنني أقتلك بساطور حادّ إذا تحرّشْتَ بها.. أنا محارب قديم، وأحمل قدْرًا زائدًا من الغَيْرَة على زوجتي.

- اطمئن! لن أفعل؛ فأنا رجل شريف.

- ولكنها ليست كذلك مع الأسف!. إنها عاهرة في آخر الأمر!

تنهد العجوز كاجي، وبدا وكأنه يعني ما يقول. وبعد صمت قصير، خاطب أنير:

- قلت إن اسمك.. ماذا؟!

- أنير.. يا سيدي.

- ولكنني، يا أنير، لست في حاجة إلى عامل، ثم حتى وإن شغلتك في ورشتي، فإنني غير مستعد لأدفع لك راتبًا! أنت بربري؛ كما يبدو من خلال اسمك، ونحن لا ندفع أجورًا للبربر! ربما منحتك وجبة أكل واحدة يوميًا.. وقد أعطيك كوخًا صغيرًا مرفقًا بالورشة لتبيت فيه، ولكن ماذا يمكنك أن تضيف إلى الحدادة؟.

- أثناء تَجوالي بوسط المدينة لاحظت شبابيك البيوت.. إنها من طراز عادي وبسيط، ولا توجد فيها نفحة إبداع!.

- الناس يطلبون الشبابيك فقط، وأن تكون متينة طبعًا، ونحن ننفذ طلباتهم.

- حسنًا! هذا جيد، ولكن ينبغي لورشة حدادة محترَمة أن تقدم الجديد دومًا والجميل، الذي يبهر الأثرياء؛ فيُقبلوا على شرائه بأثمان خيالية.

- تبدو شديد الثقة بنفسك، ولكن هل تمتلك مهارات لتدعّم بها هذه الثقة؟

- امتحِن قدراتي يا سيد كاجي.

- هل كنت حدّادًا قبل مجيئك إلى أرتو؟

- لم أعْمَل قط في الحدادة.

- يبدو أنك تضيّع وقتي.. وأعصابي أيضًا! أنا عجوز.. عجوز، هل تفهم ما معنى أن تكون عجوزًا..؟!

- لعل من المزايا القليلة جدًا التي أتمتع بها هي أنني أحب التحدي.. لدى شيء قليل من النقود، سأشتري به منك، يا سيد كاجي، بعض القطع الحديدية، وسأشكّل منها نموذجًا لشباك لتقف على مهاراتي.. ما رأيك؟

- حسنًا!. كل شيء في متناوَلِك.. إذا نال عملك إعجابي، فستستحق العرض الذي عرضته عليك، وإلا فإنك ستدفع ثمن المواد الأولية التي ستكون قد أتلفتها، إلى جانب التعويض عن الوقت الذي بدّدته في لا شيء.

- موافق.. أريد أداة للرسم، ومعاونًا يساعدني.

- نحن لا نشتغل بأدوات الرسم أيها البربري الغريب.. وبالمناسبة، هل تعرف لماذا ينظر الناس نحوك باستغراب؟. لأنك بربري، ولأنك بربري مختلف.. مختلف جدّا، وفي كل شيء!

قال كاجي، وهو يكاد يفقد أعصابه، لكن أنير هرول بسرعة، ودخل محلًا اشترى منه أداة كتابة، وورقًا مصنوعًا من جلد مُليَّن، وبدأ يشتغل في صمت غير مبالٍ ببعض أسئلة السيد كاجي. تذكر الإلهة فينوس، وتذكر ألقها الباهر، وحاول أن يرسم على الورقة

نموذجًا لشباك نافذة أنيق، استعمل فيه أشكالًا تحاكي حراشف سمكة الفرخ الأبيض، ولكنْ بطريقة أدقّ وأجمل، وتذكر فتاة أمازيغية، بارعة الجمال، تفوح برائحة ملح زكية، ولدت ذات يوم بعيد في البحر، وأن والدتها ماتت مباشرةً بعد ولادتها، وتذكر زهرة الجمر، والدفء المخيف الذي تبعثه أنفاسها الملتهبة. زرع أنير نجومًا بديعة على الشباك؛ نجومًا كانت تُخْرِج من روحه العميقة كل الإبداع الممكن. وفي الأخير، انتهى إلى رَسْم شكل مُبْهِر، وبقيت الخطوة الأهم، وهي تحويل الصورة إلى مجسّم شباك حديدي بحجم شبابيك البيوت المألوفة في المدينة. وهكذا بدأ يشتغل بمهارة خارقة، مدفوعًا بإلهام عجيب، استوحاه من جمال الفتاة الرومانية التي قادته إلى هذه المدينة، واستوحاه أيضا من وصية المعلم ماسين ومستقبل شعب الأمازيغ. وكان معاون أنير ماهرًا في تطويع الأشكال الحديدية، وإلصاقها ببراعة مع بعضها البعض بتعليمات دقيقة، ومتابعة صارمة من أنير.

عندما انتهى أنير من العمل، شعر وكأنه تخلص من شيء ثقيل كان بداخله منذ دخوله المدينة، وشعر بأنه أفرغ ذلك الشيء الذي قال عنه السيد كاجي:

- ولكنني أشعر، وعيناي تصدمان بك، وكأن حريقًا مستعرًا يمور داخلك، وكأنك تحتاج إلى كل مياه الأرض والسماء لتطفئ ذلك الحريق.

عرض أنير الشباك على العجوز كاجي بعدما لوّنه تلوينًا بارعا،

واحتاج السيد كاجي إلى بذل جهد مُعتبرَ ليتبيَّن التفاصيل الدقيقة المكوِّنة للجمال العام للشباك، لكنه- في النهاية- لم يستطع إبداء إعجاب حقيقي بإنجاز أنير، وسلم بأنّ ما يراه قد أثار البعض من إعجابه فحسب، ولم يكن مبعث ذلك البعض من الإعجاب سوى اكتشاف السيد كاجي، في الشباك الذي أبدعه أنير، شكلًا مغايرًا تمامًا للأنماط التقليدية المألوفة في صناعة شبابيك بيوت مدينة أرتو، والمدن الأخرى في البلدان التي زارها خلال سِنِيّ عمره الطويلة.

- يجب عرض هذا النموذج على أعضاء مجلس المدينة وأمنائه.

اقترح أحد العاملين بعفوية ساذجة؛ كما بدا الأمر لأنير، ولكن السيد كاجي ردّ بحماسة:

- إنها فكرة جيدة! لعل أحد هؤلاء الأثرياء تعجبه الفكرة، ويطلب منا إنجاز شبابيك جديدة لمنزله.

ذهب عامل كاجي حاملًا الشباك العجيب، وكان أنير قد زوّقه بألوان زاهية تنسجم مع اللون العام للبيوت في المدينة، وأشجار الرند الفتية النابتة على الأرصفة؛ الأشجار المعانقة تقريبًا بفروعها الخضراء الفواحة للشبابيك الصَّدِئَة لمدينة أرتو.

حماقة تواهي الجميلة

غادرت الأميرة سانيس القصر متوجهة إلى وسط المدينة. لقد شعرت منذ منتصف نهار أمس بصورة ذلك الطيف البهي للشاب

تقترب منها أكثر فأكثر، وتلحّ عليها إلحاحًا مستمرًا، بل أصبحت تلك الأحلام التي تداهمها في المنام واليقظة تنغّص عليها هدوءها النفسي، وتكدّر مزاجها على نحو كانت تلاحظه الخادمة بيرينة يتجلى في قلق غير مبرر يحرك تصرفات سانيس وانفعالاتها، لكن بيرينة لم تكن تهتم كثيرًا؛ لأنها تعودت دائماً من سانيس أشياء غريبة.

اجتازت شارع بناية الرئيس، وعَنَّ لها أن تعبر زقاقًا ضيّقًا لتصل وسط المدينة بأقل مسافة ممكنة.. لقد استشعرت حرارة غريبة تسربت هذه المرة إلى جسدها، وغمرتها حالة ارتباك لم تفهم سبَبَها. واصلت السير تحت جو خريفي بارد، وتحت ظلمة طقس ينذر بنزول الأمطار في أي لحظة، وسمعت طيور الدّورِيّ تشقشق بقلق متنقلة من سطح إلى آخر، ومن شجرة رند إلى أخرى. همّت باجتياز زاوية الزقاق، وفجأة وجدت أمامها فتى عريض المنكبين، متصلب عضلات الأرداف والذراعين. زمجر في وجهها كضَبُع جائع، ولم يكن ذلك الفتى سوى الفتى الأمازيغي تواهي، الذي كلفه الموسيقي لوطر، ذات يوم، بمرافقة زملائه لحراسة الأميرة سانيس حين زارت جبل الأمازيغ من أجل العرافة السيدة جيزيا. قال لها، وهو يضع رأس خنجره الحادّ تحت ثديها الأيسر:

– لا أريد سماع عويلك العذب، أيتها الذئبة الشهية.. تقدمي أمامي بصمت، وإلا فسيكون هذا الخنجر مغروسًا في قلبك.

سمعت الأميرة سانيس صوت تواهي المزمجر، الذي بدا لها

كسجع قمري ورأت في يده خنجرًا حادًا، ورفعت عينيها الراثيتين إلى عينيه المتقدتين بحماسة جهنمية، لكن عيني تواهي سرعان ما تراختا؛ فذبلت نظراته، وبدا ضعيفًا ويائسًا فجأة، حين اصطدمت نظراته بنظرات سانيس الحانية. ثم أخذت منه الخنجر، وقالت له بكل لطف:

- اذهب إلى كوخك، ويُستحسن أن تنام قليلاً.. تبدو مرهقًا جدًا أيها الفتى البربري الوديع.

فرّ تواهي راكضًا. كان يشعر بأنّ كل شيء في المدينة يطارده. اصطدم بحمار فلاح كان يحمل بضائع إلى سوق المدينة؛ فتدحرج على الأرض، ثم نهض بسرعة، وأخذ يجري من جديد، واجتاز كل الأزقة والشوارع بسرعة فائقة. لفت أنظار كل المارة والحراس. لا أحد اقترب منه أو أوقفه. لقد تذكروا بلاءه الحسن في معركة الذئاب، وظلوا يحتفظون له، منذ ذلك الحين، بذكرى بطل بربري منسي. وبمجرد دخول تواهي بوابة الجبل، سقط منبطحًا على بطنه، وكانت أنفاسه تتلاحق بوتيرة متسارعة، وتجمَّع حوله الرفاق والفضوليون من فتية الأمازيغ المتشردين؛ فقال أحدهم:

- تواهي يلفظ أنفاسه! لا بد أنه أسرف في الشرب.. ألا تشم قوة رائحة الخمر التي تنبعث منه؟!

فرد آخر:

- ومتى كان الخمر يقتل تواهي أيها الأحمق؟ إنه مرهق جدا.. هذا كل ما في الأمر.

حملـه أصدقـاؤه، وتوجّهـوا بـه إلى منزلـه، وألقـوا بجسـمه فـوق سريـره ككيـس مـن قطـع خشـب الـزان، وقـال أحـد الفتيـة:

إنه ثقيل كما لو أنه جثة بغل!

الخنجر

واصلـت سـانيس سـيرها وسـط المدينـة، والخنجـر في يدهـا، وكان منظرهـا يثـير اسـتغراب وروع كل الذيـن يرونهـا، وسـاد الاعتقـاد بأنهـا تطـارد الأمازيغـي الـذي رأوه يهـرب بـكل قُـواه. لم يتدخل الحـرس.. إنها الأمـيرة سـانيس؛ بنـت أوريليوس سـيبيو حاكـم المدينـة، وعليهـم التحلي بالحيطـة والحـذر في التعامـل معهـا. ورغـم ذلـك، وبتوجيهات من السـيد ماريـوس، الـذي أُبْلِـغ سريعا بالخبر، ظلـوا يراقبونهـا من بعيـد حفاظًا على سـلامتها الشـخصية. وبينما كانت الأميرة سـانيس تقترب من نشـارة السيد ريمس، شـعرت بقشـعريرة هـزّت كِيانها، وبـرْدٍ تسرب إلى نفسـها العميقة، وشـمّت رائحـة محبَّبـة، ولكنهـا رائحـة مُخِيفـة في الوقـت نفسـه، وأحسّـت بأنهـا لا تسـتطيع التقـدم إلى الأمـام، وبـأن رجليهـا لا تطاوعانهـا. توقفـت عـن المشي، ورأت في أحـلام يقظتها شـابًا بهـيّ الطلعة، منشرح الأسـارير، ينظـر إليهـا بتولّـه، ويتقدم نحوهـا بخطوات سريعـة، ولكنه لا يصـل إليها أبـدًا! وجـدت نفسـها في النهايـة تعـود بخطـوات تائهـة إلى المنـزل، وهـي تـرى السماء ملبَّـدة بغيـوم قاتمة متفرقـة، وتـرى أسراب الكَراكـيّ المهاجرة البعيـدة، وتشـم رائحة الرند، ورائحة خشـب السـنديان والسرو، وتسـمع هديـل اليمام النائح.

وحين ولجت بيتها، استقبلتها الخادمة بيرينة بسؤال ممزوج بهلع:

- سيدتي، لماذا تحملين هذا الخنجر في يدك؟!

ردت سانيس غير مبالية:

- أحدُهم أراد قتلي؛ فانتزعته من يده.

تساءلت الخادمة برَوْع متزايد:

- كيف استطعتِ أن تأخذي منه الخنجر؟!

- تسلمْته من يده، ولم يُبْدِ مقاومة.

- بهذه السهولة؟!!

- لم يكن شيئًا خطرًا! أراد فقط قتلي.. هذا كل ما في الأمر!

وبعد لحظة صمت قصيرة، أضافت:

- بيرينة، أنا متعبة.. أشعر به هنا في هذه الحجرة، أو في القصر، أو ربما في المدينة.. إنه هنا!

- تقصدين الشخص الذي حاول قتلك؟ يجب تنبيه الحرس حالًا.

- لا، إنه.. إنه.. إنه شخص آخر...

بدأ بعض العرق ينزّ من جبين الأميرة سانيس؛ عرق يشبه أريج عسل وردي فاتح، وشعرت بحرارة طيف ذلك الشاب البهي تُلْهبها.. تحرقها من الداخل.. تكْوِيها، ولم تكن تعرف ماذا تصنع! دخلت الحمّام بعدما طلبت إلى الخادمة بيرينة أن تُعِدَّ لها ماءً فاترًا،

وغطست بجسدها العاري في حوض ماء مغمور بالكافور وماء الورد ورغوة صابون أحمر. وبينما كانت تشعر بالماء الفاتر يقتحم جسدها بلطف، ويداعب بَشَرَتها الناعمة، كانت ترى فقاقيع صغيرة وكبيرة من الرغوة تنبت فوق فخذيها وساعدَيْها وصدرها، وأخذت تتلهّى بإطفائها الواحدة تلو الأخرى، وهي تفكر في شاب بهي الطلعة، منشرح الملامح، يبعث حرارة مخيفة يقترب من مجالها على نحو مستمر ومتواصل.

اسمع!

إني أرى انتصارَك قادمًا،

وسأرفع ترنيمةَ شكر،

وأتغنَّى عاليًا بمدحك.

الشباك المزوق

اقترب عامل كاجي من مقر مجلس المدينة في شارع بناية الرئيس، حاملًا الشباك الملون، فوجد على البوابة فارسين يمتطيان جوادين قويين، ويمتشقان سيفين من تلك السيوف الجيدة التي جلبها السيد ماريوس لجُنْد المدينة وحرسها. كان الفارسان ينظران بدهشة إلى الشباك العجيب المزوّق. وحين اقتحم العامل بوابة مجلس المدينة، لم ينتبها إليه.. لقد تماهت مشاعر الحارسين تماما مع سحر الشباك. وواصل العامل سيره، واقتحم -بالصخب والضجيج نفسه- قاعة الاجتماعات في مبنى رئاسة مجلس المدينة. وقف الحضور هلعًا واستغرابًا، وهم مذهولون للطريقة التي دخل بها العامل! وفي تلك اللحظة، ارتدّ الباب مُحْدِثًا دويًّا قويًا، تردد صداه في القاعة الواسعة الصامتة. اقترب العامل بعفوية، ووضع الشباك الملون على الطاولة الكبيرة، وسط دهشة أعضاء

مجلس المدينة وأمنائها ورئيسهم. اتسعت أعين الحضور، ولم يفهم أحد منهم ما يجري! وذهب ظن بعضهم إلى أن الحاكم أوريليوس سيبيو ربما أمر بصُنْع هذا الشباك، أو نائبه السيد ماريوس لغرض ما، لكن السيد ماريوس كان أكثر الحضور يقظة، واستطاع الخروج من ذهوله الشديد بسرعة؛ فسأل عامل كاجي:

- ما هذا؟

- كما ترى يا سيدي.. إنه شباك، وقد صنعناه في ورشتنا.

نظر السيد ماريوس إلى الشباك بانتباه شديد. وبعد لحظة صمت طويلة نسبيًا، سأل مرة أخرى:

- أي ورشة تقصد؟

- ورشة كاجي يا سيدي.

صمت السيد ماريوس قليلًا، قبل أن يواصل استجوابه للعامل:

- أعرف أنكم قد تصنعون حدوة بغل، أو حدوة حمار مثلًا، وبعض الأشياء البسيطة؛ كشحذ السكاكين والسيوف، وتستطيعون طبعًا صنع شبابيك نوافذ متواضعة، ولكن كيف استطعتم صنع هذه التحفة؟! لا أصدِّق في الواقع!

أجابه العامل بزَهْو:

- بلى يا سيد ماريوس.. لقد وفد إلى ورشتنا حدّاد بربري مدهش.. إنه يستعمل التصوير قبل صنع هذه الأشياء، وأنا مَنْ ساعدته.. لقد أنجزناه معًا.

أطال السيد ماريوس النظر إلى الشباك، وفكر في الحدّاد البربري، وتساءل باستغراب: متى كان البربر يَمْتَهِنُون مثل هذه الحِرف، ويبرعون فيها؟!! لقد بدا له الشباك جميلاً أكثر من أي شيء آخر، ويحتوي على قدر غير مألوف من الإبداع، بل شعر وكأنه أمام سجاد زينة مصنوع من خيوط حرير نادر، ومن نسج أنامل عذارى متمرسات في المهنة. وهبّت في نفسه رائحة الأميرة سانيس وأنوثتها المتحفزة، وشمّ رائحة فتاة مجهولة بارعة الجمال. وفي لحظة ما، أحس وكأنه أمام صورة سحرية تتحكم في مشاعره! لم يفهم السيد ماريوس تفاصيل الأشكال التي على الشباك، لكنها عكست في نفسه صورًا مألوفة بالنسبة إليه. وهذا الأمر هو ما أثار استغرابه وإعجابه أكثر من أي شيء آخر. كما أن الألوان جعلته يحسّ وكأنه في بيته، أو في مجال كان دائم الحضور في نفسه وأمام عينيه، وتساءل بصوت حائر كتمه داخله: كيف استطاع هذا الحِرفيّ صنع هذا الشباك الباهر؟!

- سأذهب لرؤية هذا الرجل لو سمحتم! يمكنكم إكمال الاجتماع، واتخاذ القرار الذي ترونه ملائماً.

رد أحد أمناء المجلس:

- خذ معك هذا الشباك يا ماريوس.. يكفي.. لقد رأيناه.

صمت السيد ماريوس قليلًا، وقال:

- لا، سيبقى هنا.

ركب السيد ماريوس جواده، وطلب إلى العامل الالتحاق به. مشى بهدوء وسط شوارع المدينة وأزقّتها، وبدا مغمورًا بإحساس غريب يجتاحه.. شعر بأن هناك لمسات سحرية غير عادية في الشباك، وأدرك أن الحرفي البربري لن يكون إلا شخصًا استثنائيًا جدًا، ومتمكنًا من صنعته إلى أبعد الحدود، وسيكون- لا شك- قد أخذ الصنعة عن حداد روماني ماهر. وفي الطريق إلى ورشة كاجي، كان السيد ماريوس يتلقى تحيات الحرس وضباط الجنود وعلية القوم في مدينة أرتو. وخيّم مساء رطب راسماً طقسًا كئيبًا على المدينة، التي فاجأها فصل خريف مبكر. على حين بدأ عمال المدينة وأصحاب المحالّ والمتسوقون يستعدون للعودة إلى منازلهم.

اقترب السيد ماريوس من ورشة السيد كاجي، التي تراءت له من بعيد مجرد ورشة عادية وصغيرة، تشغل بناية قديمة لا تكاد تلفت انتباه أحد لولا الضرب المستمر لمطارق العاملين اللذين يزاولان فيها عملهما اليومي. نظر السيد ماريوس حوله، وتأمل شجيرات الرند التي أصبحت أطول بفضل العناية المستمرة التي تحظى بها، وشعر بالزهو للجمالية الأخّاذة التي أضْفَتْها الأشجار على الأزقة والشوارع. وقف أخيرًا بجواده أمام حدادة السيد كاجي. وفجأة وقعت عيناه على شاب بهي الطلعة، منشرح الملامح؛ شاب يبدو موسيقيًا، أو شاعرًا قوّالًا أكثر منه حدادًا بعضلات مفتولة، يفترض أن تكون قوية، وبكتفين عريضتين جدًا. لكن السيد ماريوس ما كاد يتخلص من هذه التصورات حتى أحس باستغراب، وشعر بأن الشاب مختلف بالفعل، وبأنه غريب

في كل شيء! وبالتأكيد، فإنه لن يكون بربريًا من سكان جبل المدينة ولا من جِوارها. لفّه ذهول في الوهلة الأولى. ولمَّا كان مِنْ طبع السيد ماريوس السيطرة بسرعة على انفعالاته، فقد استطاع سريعًا الرجوع إلى صفاء ذهنه:

- كيف حالك يا سيد كاجي؟

رفع العجوز رأسه محاولًا رؤية الشخص الذي يحدّثه. وسرعان ما عرف، من خلال نبرة الصوت الواثق، أنه السيد ماريوس؛ نائب رئيس المدينة وقائد الجنود والحرس العام:

- بخير.. بخير يا سيدي...

- تلقيْنا شُبّاكك، ونريد أن نعرف من صنعه.. هناك تساؤلات وأشياء ينبغي تفسيرها.

أجاب العجوز كاجي مشيرًا إلى أنير متبرِّئًا:

- هذا البربري الغريب يا سيدي.. لقد طلب عملًا؛ فقلت له: بَرْهِنْ على مؤهلاتك. والنتيجة كما رأيت. ولقد بعثت إليكم الشباك؛ لكي لا أخرج عن قوانين الصنعة في المدينة.

نظر السيد ماريوس إلى أنير، وخاطبه بلهجة جادة، وبنظرة فيها البعض من الترفع البسيط، ولكن ذلك التصرف لم يبدر من السيد ماريوس إلا بسبب ضعف باطني شعر به حِيَال الشخص الغريب الذي يقف أمامه شامخًا كشجرة من أشجار الرند اليانعة:

- ما اسمك أيها.. الـ...؟

رد أنير الذي ظل طوال الوقت صامتًا، وهو مُدْرِك- بحسّه الثاقب- أن الرجل الذي يحدثه بهذه اللهجة لا يمكن إلا أن يكون من كبار قومه؛ ولهذا أجابه على نحو مثير لدهشة كاجي وللسيد ماريوس أيضًا:

- دَعْني أخمِّن.. لعلك أحد جنود المدينة، ولعلك تكون بمرتبة قائد سرية تؤهلك لتتحدث بهذه اللهجة، ولكن هذا لا يهمّ.. اسمي أنير، وأنا ما جئت إلى مدينة أرتو إلا لغرض شريف، وإذا كان هناك ما يستدعي استنطاقي، فينبغي أن أعرف السبب.

رد السيد ماريوس بهدوء، وبحكمة ممزوجة ببعض الغمز الخفي:

- نحن لا نروم استنطاقك أيها الشاب، ولكننا نريد استفسارك عن أشياء معينة.. وهذا من حقي بوصفي نائبًا لرئيس المدينة، وقائدا عامّا لجندها، وقائدا عامّا لحراسها، وأكبر تاجر للسجّاد في المنطقة أيضًا.

نظر إليه أنير، وطيفُ ابتسامة ساخرة لطيفة ترتسم على وجهه بهدوء:

- أفهم أن هذه اللباقة في الحديث لا يمكنها أن تتأتى إلا لرجل بقدر مقامكم.. أقصد أكبر تاجر سجاد في المنطقة.

رد السيد ماريوس، وهو يتحفز للَكْز جواده استعدادًا للمغادرة.. لقد شعر بضيق لم يعرف كيف يتصرف حِيَالَه:

- على أيّ حال، قد يكون اجتماع أمناء وأعضاء مجلس المدينة

على وشك الانتهاء، ويجب أن ألحق بعض الأشغال هناك، وسيكون لي معك حديث مهمّ يوم غد.

ابتعد السيد ماريوس دون أن ينتظر رد فعل من أحد. وطَوالَ ذلك الوقت، ظل العجوز كاجي يرمق أنير بنظرات محمَّلة بغضب وأسى عميق؛ أسى لم يجد طريقه إلى عيون العجوز منذ أن ماتت زوجته الرائعة الأولى كيريا، قبل سنين عديدة جرّاء إصابتها بمرض الفالج، بعد سنة واحدة فقط من زواجهما. بلع ريقه بصعوبة، وأدرك أن هذا الشاب يحمل في ثناياه الشر والشؤم، وندم على إعطائه الفرصة لصنع ذلك الشيء الذي اعتقد أنه سيكون شباكًا، وها هو يلطّخ سمعته في مجلس المدينة، وربما أصبح بدوره متورِّطًا في جُرْم لا يعلم كُنْهه، ولا تداعياته.. لقد غادر السيد ماريوس غاضبًا، ولن يمرّ غضبه ببساطة طبعًا:

- انصرف أيها الغريب.. لا أرغب في رؤيتك هنا أبدًا، وإلا هشّمت رأسك.

لم ينبس أنير ببنت شفة.. لقد شعر بأنه خطا أول خطوة في الطريق الطويلة التي تفصله عن الفتاة الرومانية التي طالما تخيلها وكأنها إلهة فينوس، التي سيطرت على تفكيره زمنًا طويلاً. ولاحظ، على نحو مثير، أن نظرات استغراب ساكني أرتو نحوه قد هربت مع ريح المساء الباردة.. أي كيمياء كان يحملها جسده؟ وأي لعنة؟! لعل ذلك الحريق المستعر، الذي استشعره السيد كاجي يمور في أعماقه، قد خمد وضاع إلى الأبد في هواء المدينة؛ ولذلك لم يعد أنير مثيرًا

لاستغراب سكان أرتو الذين ألفوا رؤيته في أزقة المدينة وشوارعها، ولم يعد يثير دهشتهم بتميُّزه الواضح من الأمازيغ الذين يعرفونهم جيدا.

في السجن

ودّع أنير السيد كاجي الغاضب، وكذلك العاملَيْن اللذين تعلقا به، ولم يحبا أن تجري الأمور على ذلك الشكل. دفع للعجوز مقابل المواد الأولية الحديدية التي استخدمها، مع تعويض مناسب عن الوقت الذي استغرقه في ورشة الحدادة لصنع الشباك. وحين خرج من الورشة، وجد الظلام قد بدأ ينزل ثقيلا ومُمِلًا على المدينة. شمّ في نفسه رائحة الحديد والصباغة التي استعملها في تلوين الشباك، وشعر بأنه مقرف، وبأن هيئته توحي بكونه شحاذًا، أو بالأحرى متشرِّدًا كما هو في الواقع. أخذ يجوس الشوارع والأزقة المظلمة، اللهم إلا من مشاعل متفرقة بعيدة نُصبت في أهم وأكبر الشوارع. أحسّ بالتعب والجوع والنوم، ولم يكن معه ما يكفي لشراء طعام، أو لحجز حجرة في خان رخيص. بحث عن مكان آمن يبيت فيه في الشارع، لكن لسعات البرد القارس أبعدت بسرعة هذا التفكير عن ذهنه. جلس، حين انعدمت كل الحيل أمامه، في زاوية حائط بناية قديمة تحجب الريح الباردة، ثم انكمش على نفسه. حاول أن ينام، لكن البرد بدأ يلسعه بقسوة، برد لم يتعوّد عليه في بلدته الصغيرة البعيدة دريو. فكّر في الأيام الجميلة التي قضاها في كوخ

السيد بيكاو، وتذكر تيرينا التي حمّمته بيديها الناعمتين، وأسبغت عليه عناية أنثوية لا يمكنه نسيانها؛ تيرينا التي يشدُّه إليها حنين خاص؛ حنين لشخصها ولروحها الجميلة أكثر من كونه خوفًا عليها وعلى مصيرها؛ لأنه يعرف أنها نشأت هنا، وسيكون لديها معارف هنا بلا شك، رغم أنها أمازيغية؛ وبالتالي فأنير يعتقد أنها في مأمن، ولكن السؤال المحير الذي ظل يشغل ذهنه هو: لماذا هربت منه حين كانا فوق جبل الأمازيغ؟. هل افتعلت قصة مرافقته إلى مدينة أرتو كمبرر للهروب من عزلة خلاء لا يمكن لإنسان عاقل أن يعيش فيه؟! وبينما هو منشغل في هواجسه وتساؤلاته، أيقظه وقْع حوافر جياد قوي على الأرض.. إنها فرقة من بضعة حراس مراقبة يجوبون النقاط المظلمة في المدينة. وقفوا بمحاذاته تمامًا، حتى إنه شمّ في أنفاس الجياد رائحة شعير فاسد. خاف أن تدوسه حوافر الجياد، وترفس رأسه أو طرفًا من أطرافه. نهض بسرعة؛ فسأله أحد الحراس:

- ماذا تفعل هنا أيها البربري اللقيط؟

- لا شيء!. كنت أحاول أن أقضي ليلتي في هذا المكان. أنا غريب عن المدينة.. هذا كل ما في الأمر.

أطْبَق الصمت على الحراس، حين سلطوا عليه ضوء المشاعل التي كانت في أيديهم.. لم يتكلم أحد منهم. كانوا يتساءلون إن كان هذا هو الشخص الذي طلب السيد ماريوس اعتقاله، وإيداعه سجنَ المنحرفين عقابًا على سوء تصرفه ووقاحته. اعتقد أنير أنهم ربما يكونون في حالة

الدهشة والذهول نفسها التي كانت تنتاب كلّ من تقع عيناه عليه لأول مرة؛ ولذلك حاول الانسلال من بينهم مبتعدًا، غير أن أحد الفرسان أشهر في وجهه السيف، وخاطبه بحزم:

- تقدَّمْ أمامنا.. هناك مكان آمن تستطيع المبيت فيه. وفي الصباح سنَعْرِضُك على قائد الحرس لينظر في أمرك.

وبعد لحظات، ألفى أنير نفسه مرميا بين مجرمين وشحّاذين وقُطَّاع طرق.

لم يستطع أنير النوم؛ بسبب الجوع والبرد والرائحة النّتِنَة التي تفوح في المكان. ورغم كل شيء، تمدد على الأرض، ليجد نفسه وقد نام نومًا مضطربًا. غير أنه استفاق- في النهاية- مرعوبًا على وقع شلاّل من ماء نتن كان ينهمر على وجهه، ولم يكن ذلك الماء إلا بول ثلاثة صعاليك لم يتبيّن هيئتهم؛ بسبب ظلمة الصباح الباكر:

- انهض أيها البربري الوضيع، هيّا.. أرِنَا كم يوجد لديك من مال؟!

ولحسن حظ أنير، دخل الحراس في تلك اللحظة إلى السجن؛ السجنِ الذي لم يكن إلا مغارة صغيرة محفورة أسفلَ جبل صغير:

- هل يوجد هنا شخص باسم أني.. نير؟!!

هكذا نطق الحارس اسم أنير محرّفًا، ولكن أنير عرف أنه هو المطلوب:

- نعم.. أنا هو أنير يا سيدي...

تقدم إلى الخارج... السيد ماريوس يطلبك في مقرّه.

ولكي تجعلي عجينة سهلة الاستعمال
أضيفي عسلًا يتقطر من خلايا إغريقية
ومع أن البخور يهدئ الآلهة والأرواح الغضبى
فلا ضرورة أن تمنحيه كله لنار المذبح.

محنة أنير وتواهي

نهض أنير بصعوبة من مرقده في السجن، وتقدم نحوه أحد الحراس وسط عتمة تُغَيب كل الألوان والأشكال. تلمَّس الحارس يدي السجين الأمازيغي، ووضع عليهما أغلالًا حديدية ثقيلة:

- اللعنة! بوْلُك يشبه بول عجوز مريض بداء المعدة! أنت في هذا العمر وتفعلها في نومك؟!

قال الحارس بتأفُّف، وهو يشم رائحة بول نفذت إلى خياشيمه. وقبض على أنير من قفاه، ثم قاده كما يُقاد لص في سوق. وفي مخرج السجن، سمع أنير، وهو مغمض العينين، أصفاد الباب الحديدي الضخم تُغلق:

- هل صُنع هذا الباب في ورشة السيد كاجي؟

سأل أنير الحارس بعفوية ساخرة، وهو يداري أشعة شمس فاجأت بصره، الذي تخمرت فيه عتمة كثيفة طوال الليل والصباح.

- كُفّ عن هِزارك غير الظريف أيها البربري النَّزِق! فلولا تعليمات السيد ماريوس لكسّرت رأسك بعُقب هذا السيف.

فكر أنير في الوقت الطويل الذي فارق فيه بلدة دريو، واستحضر الأحداث الماضية، وتذكر سانيس؛ الفتاة الرومانية الفاتنة، التي دعته إلى زيارة مدينة أرتو، وها هو الآن- بعد مضي بضع سنوات- يصل المدينة، محاولًا البحث عن تلك الفتاة التي لم تفارق ذهنه أبدًا. إنه يشعر نحوها بجاذبية حبّ مختلف عن أي حب يمكن تصوره. لقد أحب زهرة الجمر، ولكن ذلك الحب لم يكن كافيًا ليجعله يتمرد على كل شيء، بما في ذلك التخلي عن حلمه الدائم، ومحاولة الارتباط بالمراهقة الأمازيغية الفاتنة التي لم تكتم مشاعر حبها الهادر تجاهه. والآن يجد نفسه في قبضة حارس فظّ، يقوده إلى الشخص الذي حدّثه أمس بتعالٍ، ويبدو أنه من كبار القوم وسادتهم في المدينة. تُرى كيف سيتعامل معه؟! وماذا يُبيّت له؟! هل يعيده من جديد إلى السجن القذر، وسيُنسى داخله إلى أن تأكله الديدان والبراغيث؟!! كيف يستطيع الوصول إلى سانيس؛ ابنة قائد الجيش الذي لم يعد يذكر اسمه:

- سيدي، أريد مقابلة سانيس.. إنها ابنة قائد الجيش.. لقد نسيت اسمه!

- «اُصْمُت أيها الوغد البربري!. كيف تتجرّأ وتطلب طلبا بليدا كهذا؟!».. قال الحارس، وضرب بعقب السيف كتف أنير.

شعر أنير بالألم والإجهاد. لم تقْوَ قدماه على حمله، وبدا فاقدًا تمامًا للقوة؛ بسبب شُغل أمس الشاق، وبسبب الجوع الذي يطوي مِعْدَته؛ حيث إنه لم يتناول طعامًا منذ ضحى أمس. كان الصباح يطل فاترًا على مدينة أرتو، والناس يسيرون بهدوء وسكينة، وطار سرب من الكراكي بعيدًا، وتحرّكت ريح خفيفة، ولكنها باردة.

وسط القمامة

قادت فرقة الحرس، المكوَّنة من خمسة أفراد، أنير مصفّد اليدين. وظل يبذل جهدًا جبّارًا كيْ يستطيع جَرْجَرَة رِجْلَيْه، ولكنه عجز في الأخير، ثم سقط تاركًا جسمه في يد الحارس القوي؛ الحارس العملاق الذي لم يتورع عن توجيه لكمة مُحْكَمة إليه، أسقطتْه على الأرض فورًا، وهو يتلوّى ألمًا. خاطبه الحارس الفظ:

- لا تَمُت الآن أيها الكلب الأجرب.. نحن في حاجة لتبقى حيًا، على الأقل إلى أن نسلّمك للسيد ماريوس. وفي النهاية، انهار أنير تمامًا.. لقد فقد كل قُواه دفعة واحدة، وفي تلك اللحظة مرّ السيد جينيو ومعاونوه على العربة التي تنقل القمامة من أمام أبواب المنازل والمحلات. وقبل أن تبتعد العربة، صاح قائد فرقة الحراسة مناديا:

- يا.. أنت، جينيو، تعالَ.. نحتاج إلى عربتك لبعض الوقت.

أدار السيد جينيو البغلين، اللذين يجُرّان العربة، في اتجاه فرقة الحراسة، وحينذاك لم يكن جينيو في حاجة ليفهم الموقف؛ فقد رأى الحارس العملاق يرفع أنير عاليًا، ويرميه في العربة فوق قشور الخضرة المتعفنة، وفوق أحشاء السمك النتنة، وبراز رُضَّع أصفر مائع تسبح فيه الحشرات، وقماش لنساء حائضات، وماء أسود هو عبارة عن عصارة لكل القذارة الممكن تخيلها. وبينما كان أنير يحاول تغيير وضعيته وسط القمامة، وجد رجْله تغرق في جسم جنين ميت متفسخ، حام حوله ذباب كبير الحجم، وأصبح عرضة للسعات البَعُوض، وكانت العربة تهتز في سيرها السريع، وأنير يترجرج وسط جحيم من الوسخ العجيب. وحين وصلت العربة إلى أمام باب بناية الرئيس، سحب الحارس أنير من العربة، وأنزله بعنف. واصلت العربة سيرها بعدما تركت في جسم أنير الكثير من قذارتها ورائحتها العطنة. أدخل الحارس، عظيمُ الهيئة، أنير، مُجرْجِرًا إياه من القفا، حتى أوْصَلَه إلى باب بناية الرئيس.

وبينما كان الحارس الضخم يجر أنير وسط البناية النظيفة، التي تلمع جُدرانها وأرضيتها البرّاقة، استمر خيطٌ من ماء متخثر عَفِن يتبع خطوات أنير، وكانت هناك أيضًا بعض بقايا القمامة، التي ظل الكثير منها ملتصقًا بوجهه وثيابه وشعره. أدخله الحارس بعدما استأذن السيد ماريوس، الذي لم يصدّق-

في البداية- ما يراه بعينيه أمامه. أشاح بوجهه، وراح ينظر بعيدًا من خلال النافذة العريضة، وقد ارتسمت على تقاطيع وجهه الوسيم، المدهون بزيت تزيين، علامات تقزُّز لم يستطع إخفاءها، رغم المجهود الجبار الذي بذله. وقال بلهجة متعالية من غير أن ينظر إلى أنير:

- من فعل بك كل هذا؟!

وقبل أن يجيب أنير، انبرى أحد الحراس قائلاً وكأنه يُفْشي سرّا خطيرًا:

- ثم إن هذا البربري القَذِر، يا سيد ماريوس، يسأل عن الأميرة سانيس!

نظر السيد ماريوس بفضول إلى أنير. صُدِم بكلام الحارس، واشتعلت داخله شكوك غامضة. منذ أن رأى هذا الغريب أمسِ، وهو يشعر نحوه بشعور متناقض.. شعور إعجاب وحسد، وها هو الآن يؤكد تخميناته بسؤاله عن الأميرة سانيس! تُرَى لماذا يسأل هذا البربري الوسيم الوافد من مكان بعيد عن الأميرة؟! تجاهل هواجسه، وتركها مؤقتا جانبا، ولكنه ركز نظره من جديد في أنير، وأعاد السؤال بحِدّة أكثر:

- من جعلك على هذه الحال أيها البربري؟! ثم لماذا تسأل عن الأميرة سانيس؟

أجابه أنير بصوت لا يعكس شكله التعيس:

- أنت مَنْ فعل بي كل هذا، يا سيد ماريوس. ثم إنني لا أسأل عن الأميرة سانيس.. أسأل عن سانيس أخرى!

التفت السيد ماريوس إلى أنير مستغربًا:

- حسنا! قد أفهم أنك تسأل عن سانيس أخرى، ولكن لماذا تحمّلني مسؤولية ما حدث لك؟!

- بسببك طردني السيد كاجي من الشغل، ولم يكن لديَّ مال لآكل شيئًا، أو لأحجز حجرة في خان متواضع، فوجدت نفسي متشردًا في الليل، وحرَسُك هم من قادوني إلى السجن، ثم أتوا بي في عربة جينيو مدفونًا وسط القمامة...

هَمْهَمَ السيد ماريوس، وقال بصوت خافت، وكأنه يخاطب نفسه:

- قد يكون ما قلته يا... صحيحًا! سآمُرُ مَنْ يأخذك حالًا إلى بائع ملابس، وإلى حمّام، ثم إلى مطعم، وسنَحْجِز لك غرفة في خان لائق مدةَ أسبوع.. يمكنك اعتبار ما نفعله مجرد تعويض بسيط عن المتاعب التي لحقت بك بسببنا.

وحين أخرج الحارس الفظ أنير من مكتب السيد أنير، ظل هذا الأخير يفكر في هذا البربري الغريب الذي لم يصادف مثله من قبل. لقد بدا له أذكى وأخطر بكثير ممّا يمكن أن يخطر على بال، وأخطر بكثير أيضا ممّا يوحي بأنه مجرد بربري وسيم وذكي؛ فقرّر أن يترك وراءه الجواسيس، وأن يشغله بشيء ليرى ما يخفيه، وليعرف ما يخبّئه من أسرار.

قذارة شاب

كانت العصافير الصغيرة تغرّد في حديقة منزل الرئيس أوريليوس سيبيو، وتصل سمع الأميرة سانيس تلك التغريدات البديعة؛ فتنشر في روحها إحساسًا بسعادة لا توصف. لقد حلمت، في الليلة الماضية، عدة مرات، بشاب بهي الطلعة يزورها في مرقدها، ورأته في منامها يرتدي ثوبًا أبيض ناصعًا، وكان يقول لها إن مدينة أرتو تكرهه، ولكنها كانت تغضب، وتردّ بعصبية: «لا، إنها لا تكرهك.. مدينة أرتو لا تكره أحدًا»، والشاب يقول لها: «ولماذا لا يعاملونني معاملة لائقة؟». وحين كانت سانيس تود أن تسأله توضيحات أكثر، كانت صورة ذلك الشاب الغامض تبتعد عنها شيئًا فشيئًا.. لتغيب في النهاية!

استحمت الأميرة سانيس بسرعة وسط رغوة صابون صلصالي أحمر، ولم تطفئ هذه المرة الفقاعات التي نبتت بكثرة على جسدها البضّ.. تركتها من تلقاء نفسها تنطفئ ببطء الواحدة تلو الأخرى. وبينما كانت تهمّ بمغادرة فِناء المنزل، رأتها الخادمة بيرينة، وكانت بيرينة على وشك إنهاء إعداد طعام الفطور؛ فطلبت من سيدتها الصغيرة البقاء لحظة؛ لأن الفطور جاهز تمامًا تقريبًا، لكن الأميرة سانيس قالت إنها ذاهبة لتستنشق هواء الصباح، وستعود- بعد قليل- لتتناول وجبة الفطور. لم تستغرب الخادمة مثل هذا السلوك من سيدتها الصغيرة؛ فقد تعودت عليه. وفي ذلك الوقت أيضًا، انشغل الرئيس أوريليوس سيبيو بمراجعة بعض التقارير، التي

جلبها معه أمس من مكتبه؛ ليتحقق من ضرائب الفلاحين والتجار، والقيمة المدونة على ورق جلدي ملين، والأموال التي عُرضت أمس في الاجتماع، وباقي الفلاحين الذين عجزوا عن دفع الضرائب؛ بسبب التلف الذي طال فلاحتهم، أو المحالّ التجارية التي أصابها الإفلاس، وكانت للحاكم أوريليوس سيبيو السلطة التقديرية لإصدار الأحكام بناءً على التقارير التي يتلقاها، وبناءً أيضًا، وفي كثير من الأحيان؛ كما كان يفعل في السابق حين كانت صحته جيدة، على وقوفه ميدانيًا على الحالات الواقعية ليرى مدى صحة ما يدوّن في التقارير، وما يوجد على أرض الواقع، غير أن صحته المتدهورة، منذ بضع سنوات، لم تعد تسمح له بمزاولة عمله ميدانيًا؛ ففوّض جل صلاحياته إلى بعض أمناء مجلس المدينة وأعضائه.

تناول أوريليوس سيبيو فطوره بمعية زوجته السيدة واري، ووجد ذلك اليوم جميلاً، وقال لزوجته إنه يشعر بصحته تتحسَّن، وإنّ آلام المفاصل قد خفَّت عليه، وإنه تغوَّط دون شعور كبير بالألم؛ فقد أصبح مرض البواسير، الذي يعاني منه منذ أمد بعيد، أقل شراسة من قبل. واستطاع الحاكم- بعد ذلك- أن يتجول قليلاً على طرف الجدول، الذي يجري خلف منزله الكبير، وراقه منظر الماء وهو ينساب بين الأحجار الملساء الملونة، وبين بعض أعشاب جميلة تُبْهِج النظر، وتناهت إلى سمعه تغاريد الطيور الفَرِحَة المتقافزة بين شجرة سرو وأخرى، ورأى من بعيد قطعان ماعز ترعى في الخلاء، وشعر لذلك بنشوة غامرة تتسرب إلى روحه العميقة، وعاين بعض

الجنود، وهم يتدربون في ساحة ليست ببعيدة، وكانوا بارعين في استعمال السيوف ورمي الرماح، وملأه الزهو.. لقد أصبح لأرتو جيشُها القوي الخاص، ولن يجرؤ- بعد اليوم- أحد على مهاجمتها. وفكر في السيد ماريوس، الذي استطاع- بحكمته وحماسة شبابه- أن يحوّل المدينة على النحو الذي أصبحت عليه الآن، كما استطاع أن يحمل عنه حملاً ثقيلاً، وكم تمنى الحاكم أوريليوس سيبيو لو رضيت ابنته سانيس بهذا الشاب الرائع زوجًا لها، لا سيَّما بعد معركة الذئاب، وبعد الوضع الاعتباري الكبير الذي أضحى السيد ماريوس يتمتع به في أرتو.

غادرت الأميرة سانيس المنزل من خلال باب الحديقة، وصادفت ذلك اليوم طقسًا مشمسًا عكْس أمس، واستطاعت أن تشم رائحة زهور الأقحوان وأريج الرند الفوّاح، ورائحة أشجار السرو البعيدة التي يحملها نسيم بداية الشتاء، الذي بدا لطيفًا ذلك اليوم. ورأت الطيور المهاجرة تعْبرُ السماء بأسراب كبيرة. مرت بمحاذاة مخزن سجاد السيد ماريوس، وهو مخزن مغلق دائماً، ولا يُفتح إلا حين سحْب كَمّيات من السجاد منه لتصديرها إلى خارج أرتو. وجدت الأميرة سانيس- في النهاية- نفسها في شارع بناية الرئيس، الذي لا بد لها من عبوره للوصول إلى وسط المدينة بمسافة أقلّ. وفجأةً بدأت تشعر بارتجاج عنيف يهزّ جسدها كلَّه، وأحسّت بجذب مغناطيسي غريب يجرُّها إلى مكان معين من بناية الرئيس! وحين أصبحت تقف قريبًا من البوابة الكبيرة، شعرت بدوخة، ولم تستطع أن تتماسك، وكادت تجد نفسها تنقاد إلى داخل البناية، ولكنها قاومت

بشدة حتى تمكنت من الاقتراب من شجرة رند، ثم أطبقت على جذع الشجرة بكلتا ذراعيها، وتمسكت به بقوة.

سمعت- بعد عدة لحظات- ضجّة وضوضاء أمام البوابة الكبيرة، فرفعت عينيها لتستطلع الأمر. وقبل أن تفقد الوعي تمامًا، كانت قد رأت شابا بربريا، يُدفع بفظاظة إلى الخارج، ويرتدي أسمالًا بالية، معفَّرًا بقذارة ووسخ في كل جزء من جسمه، وتنبعث منه رائحة عطنة لا تُحتمل. لكن الأميرة سانيس- في تلك الفترة القصيرة جدًا، الفاصلة بين يقظتها وفقدانها للوعي- كانت قد رأت في الشاب أيضًا إشعاعًا ينبعث من روحه العميقة كنور سماوي مرشوش بأنفاس الآلهة. وتسربت إلى روحها تلك الموجة الغامرة من النور؛ لتشعل داخلها حريق عاطفة هادرة نحو هذا الشاب.

استفاقت من دوخة قصيرة ألّمت بها، وشعرت برجفة تهزّ جسمها الرشيق، ونظرت تلقائيًا إلى المكان الذي رأت فيه ذلك الشاب.. ذلك الشاب البربري القذر الذي يرتدي أثوابًا رثة، وملطخة بالوسخ.. ذلك الشاب الذي تنبعث منه رائحة عطنة، ولكن روحه تبعث نورًا باهرًا تسرب إلى أعماقها كقطرة ماء باردة في يوم شديد الحر. نظرت إلى السماء؛ فوجدتها قد تحولت إلى لون رمادي قاتم، ورأت الطيور، التي تعشّش غالبًا في ثقوب أبنية المدينة، تهرب متوجسة إلى كل جهة. وهبت فجأةً ريح غبارية غير معتادة. نهضت سانيس، وقد احتواها خوف مفاجئ، ونظرت حولها؛ فرأت بضعة حرّاس في أمكنة متفرقة، وبعض العابرين

والعمال المنهمكين في تشذيب أشجار الرند وسَقيها بالماء، وبعض عمال نظافة الشوارع والأزقة. بدأ العَرَق ينزل من جبينها، وأحسّت بضيق يخنقها، وشعرت وكأنها ترى ذلك الشاب ينظر إليها من بعيد، ويبتسم بكآبة، وكان مرحًا وحزينًا في الوقت نفسه، قبل أن تضيع تفاصيل ملامحه في النهاية. ركضت في الأزقة عائدة إلى منزلها، واندلعت داخلها حرارة غير عادية اجتاحت كل جسدها في الأخير، وسرعان ما اختفت هذه الحرارة حين ابتعدت عن وسط المدينة. وفي النهاية، وجدت نفسها قريبة من القصر، وواصلت الركض بقوة إلى أن ولجت الفِناء:

- «سيدتي سانيس، هل طاردك من جديد؟!».. قالت الخادمة بيرينة، وهي تقصد الفتى الأمازيغي تواهي، الذي حاول ذات مرة أن يختطفها. أجابتها سانيس، وهي ترمي جسدها المشوق على السرير:

- نعم.. إنه يطاردني دائماً، بل أشعر به هنا والآن، وفي منامي أيضًا!

أيقنت الخادمة بيرينة، حينذاك، أن سيدتها الأميرة تتحدث عن ذلك الشخص المجهول، وغير الواقعي؛ ذلك الشخص الموجود فقط في مخيِّلة سانيس، واطمأنت؛ لأنها كانت متوجسة منذ أن أخبرتها سيدتها عن ذلك الفتى الذي انتزعت منه الخنجر؛ لأنه حاول قتلها. أعدّت بيرينة حمّامًا فاترًا لسانيس، وأفرغت في حوض الماء بعض الروائح المنشِّطة وماء الورد. نزعت سانيس ملابسها

قطعة قطعة، وتدلّى شعرها مجعّدًا أشقرًا كأمواج هادرة، وبدت كإلهة فينوس في ألقها وأبّهتها. وضعت قدميها بهدوء في حوض الماء، ثم استلْقت بارتخاء بجسدها الجحيمي، وأخذت الصابون الصلصالي الأحمر، وراحت تمسّد به جسدها تمسيدًا ليّنًا أدخل النشوة إلى نفسها. وخلال ذلك، كانت ترى الشاب بهي الطلعة ينظر إليها بإعجاب، وكان يبتسم، وكان قد تخلص من قذارته وكرهه لمدينة أرتو، وكانت الأميرة سانيس سعيدة لذلك. وحين تكونت رغوة كبيرة حولها، أخذت فقاقيع الصابون تنبت على خصرها النحيف وفخذيها ونهديها، وسانيس تستمتع بإطفاء كل فقاعة ببطء وبنشوة لم تشعر بمثلها من قبل.

تجاهل

سمع صوتًا أجشّ، لكنه مَرِن على نحْوٍ أثار استغرابه:

- لن تهرب من المدينة.. لقد وضع السيد ماريوس وراءك العيون! إنه لا يريد بك شرًا طبعًا، ولكنه يحتاج إليك.

هكذا خاطب أنير أحدُ الحراس الذين رافقوه إلى محال الثياب، وإلى الحمام، وإلى المطعم، وإلى خان سيتو اللائق؛ حيث حجزوا له حجرة مدةَ أسبوع إلى أن يوفر له السيد ماريوس منزلًا محترَمًا يقيم فيه. كما زوّدوه بقدر من المال. وأرجأ السيد ماريوس محادثته إلى يوم آخر حين يكون أنير في صفاء ذهن كامل، وفي راحة تامة.

وجد أنير حجرته في الخان الجديد نظيفة، وتحتوي على سرير مُريح، وأغطية تكفي لصدّ موجات البرد، التي أصبحت أكثر حدّة مع بداية فصل الشتاء. خرج إلى المدينة. أحبَّ أن يتجول قليلاً، ويكتشف الأماكن والمعالم التي تستحق الاكتشاف. أرتو، كما حدثه عنها السيد بيكاو، مدينة جميلة، مبنية وَفق طراز معماري متناسق، تكاد المنازل فيها تتشابه، لولا الفخامة التي تتسم بها بعض البنايات، التي من السهل معرفة أنها إما لعضو أو أمين في مجلس المدينة، وإمّا لأحد الأثرياء الذين راكموا ثروات عبر سنوات طويلة من العمل المشروع أو غير المشروع، أو ورثوها أبًا عن جد؛ كما هو الشأن بالنسبة إلى بعض الصناعات المربحة؛ كمصنع الزجاج، وصياغة الذهب والفضة، وتجارة السجاد والحرير، ومعصرة النبيذ.

عَبَرَ أنير أحد الأزقة التي تقود إلى وسط المدينة. وفجأةً لَمَحَها كما في حلم عابر لا يمكن القبض عليه. تساءل ودقاتُ قلبه تتسارع:

- هل يمكن أن تكون هي؟! يا لها من مصادفة رائعة ستكون!

رآها تسير برفقة امرأة في حوالي الخمسين من عمرها، وظل أنير يراقبها من الخلف.. كل شيء يدل عليها، وكانت ترتدي ملابس فاخرة؛ ملابَس لا ترتديها إلا بنات عِلْية القوم في مدينة أرتو. قطع الزُّقاق بسرعة، وحاول أن يقترب منها أكثر. وفي الأخير، وجد نفسه على بُعْد أقل من عشر خطوات منهما. أصاخ السمع لعله يستطيع التقاط صوتها في حديثها مع المرأة البدينة، لكنهما كانتا تسيران صامتتين. اقترب منهما كثيرًا.. حينذاك تأكد مِنْ أنها هي بالفعل، ولم يكن في حاجة ليرى

وجهها ليتأكد.. هكذا عرفها دومًا بتلك النفحة المُشْرقة من الوهج الجميل، الذي يتفجر من ملامحها المليحة. ناداها بلطف:

- تيرينا.. تيرينا...

كادت الفتاة تلتفت إلى الوراء، ولكنها حافظت، فجأة، على هدوئها، وهي تسير بجنب المرأة الخَمْسينيّة البدينة. مرة أخرى ناداها باسمها. تجاهلته، ولم تُعِرْ مناداته أي اهتمام. ردد في نفسه: أأكون مخطئًا إلى هذه الدرجة؟! وهل تكون في أرتو فتاة أخرى شبيهة بتيرينا إلى هذه الدرجة أيضًا؟! تقدم إلى الأمام، ونظر إليها مليًا، وتبيّن تمامًا أنها تيرينا.. تيرينا التي رافقت رحلته الطويلة من كوخ بيكاو إلى مدينة أرتو طَوالَ أكثر من شهر، لتختفي فجأة من أعلى جبل حي الأمازيغ:

- تيرينا، أنا أنير...

نظرت إليه الفتاة مستغربة، وردت عليه بحدة:

- ماذا تقول أيها الأحمق؟ أنا لا أعرفك! اغْرُب عن وجهي، وإلا ناديت أحد أفراد الحرس، وحينذاك ستجد نفسك متورطًا في تهمة تحرش بفتاة رومانية في الشارع العام.

شعر وكأن دلو ماء مثلج قد أفرغ على جسمه في ذلك اليوم البارد. تساءل بحيرة:

- لماذا تجاهلتني تيرينا؟! ولماذا أيضا فرّت مني في جبل حي الأمازيغ؟! لا بد أن في الأمر شيئًا ما خطأ!

حاول المحافظة على توازنه قبل أن يقول لها في الأخير:

- أنا موجود لمدة أسبوع في خان سيتو.. إنه أكبر خان في المدينة.. تعرفينه ولا شك، وإلا يمكنك أن تسألي عني السيد ماريوس؛ قائد الجيش والحرس، وأكبر تاجر للسجاد في المدينة.. تيرينا.. إنه أكبر تاجر للسجاد في أرتو.

كان أنير يقدّم هذه المعلومات بشبه سخرية مُرّة، والفتاة تبتعد غير مبالية، إلى أن اختفت وسط الناس والمتسوِّقين، ووسط الأزقة الضيقة الملتوية، ولم يحاول أنير أن يلحق بها.

موت بطل

طغى الهدوء على الأجواء في قصر الحاكم أورليوس سيبيو، غير أن الخادمة بيرينة، التي لا تتوقف عن الحركة، ظلت وحدها منشغلة بأشياء لا أحد يستطيع تحديد ماهيتها، ولكنها كانت دومًا خادمة بارعة في طهي الطعام، وترتيب أفرشة حجرات النوم، وتنظيم قاعة الجلوس، وتنظيف أجنحة القصر نظافة تليق بمكانة حاكم المدينة وبسيدتها الأولى واري. وكانت الأميرة سانيس متمدِّدة على سريرها، غارقةً في أحلامها الهُلامية الجميلة، والواخزة بألم هادئ جوارحَها. أصبحت الآن تشعر بغرام حقيقي تجاه شخص حقيقي، وأيقنت أن ذلك الشخص لن يكون إلا ذلك المتشرد الوَسِخ، الذي رأته أمام بوابة بناية الرئيس، لكن حدْسها الداخلي أخبرها أن ذلك الشاب، الذي اقترن أخيرًا بهيئة الشاب الذي يزورها في أحلام

يقظتها ومنامها، سيكون أنيقًا وجميلاً وطيب الرائحة؛ تلك الرائحة السماوية التي نفذت إلى روحها العميقة، رغم أن نتانة لا تطاق كانت تنبعث منه. فجأة طرقت الخادمة بيرينة الباب، فأعطتها الأميرة سانيس الإذن بالدخول:

– سيدتي، هناك شخص غريب يريد مقابلتك.. إنه لا يكف عن البكاء منذ وقوفه بعيدًا عن حديقة المنزل.. إنه يبدو بربريا من حي الجبل!

استغربت الأميرة سانيس.. من يكون هذا الشخص البربري الغريب الذي يريد مقابلتها؟! ولماذا لا يكف عن البكاء؟! طبعًا، فهي متأكدة مِنْ أن هذا الشخص ليس هو ذلك الشاب، ولن يكون.. ذلك الشاب البربري الذي يعرض لها في المنام له نفسية فَرِحَة ومزاج رائق وسخي. وفي كل الأحوال، فارسُ أحلامها لن يبكيَ أبدًا.. هكذا فكرت، وهي ترتدي ملابس الخروج.

– احترسي سيدتي!. قد يكون ذلك القاتل. من الأفضل أن يرافقك أحد الحراس.

قالت بيرينة بروع، وهي تتذكر حادث الاعتداء، الذي تعرضت إليه سيدتها الأميرة سابقًا، فردّت سانيس بهدوء:

– لا شيء يدعو إلى القلق يا بيرينة.. اطمئنّي.

وعندما غادرت الأميرة سانيس المنزل عبر بوابة الحديقة، وجدت ريحًا خفيفة تهبّ، وأحست بنسائم بحرية بعيدة محملة

بأعـواد أشـجار يابسـة مُشْرَبـة بميـاه بحـر مالحـة، ومـذاق زبـد بحـري متيبِّـس عـلى أحجـار الشـاطئ، الـذي يمتـد طويـلاً، وكأنـه لا نهايـة لـه. وتخيّلـت بحّـارًا يَلْفِـظ أنفاسـه وسـط البحـر بعدمـا تـسرب المـاء إلى مركبـه الصغـير، ورأت النـوارس تصـدح بنُـواح كئيـب. وفي الأخـير، وجـدت نفسـها أمـام الموسـيقي الأمازيغـي لوطـر، يسـتند إلى حائـط مخـزن السـجاد الـذي يملكـه ماريـوس. بـدا في حالـة انهيـار شـبه تامـة. أشـفقت عليـه، واسـتغربت وجـوده عـلى تلـك الحـال. لقـد كان دائـماً موسـيقيًا حالمًـا؛ موسـيقيًا ينشـر الفـرح والحبـور في حـي الأمازيـغ كلـه، مـن خـلال معزوفاتـه الموسـيقية التـي تنسـاب مـن الجبـل كخريـر ميـاه بـين أكـواخ القصـب والقـشّ، وكرحيـق عبـق بالأريـج، لتصـل تلـك النـبرات إلى السـفح. رفـع الموسـيقي الأمازيغـي عينيـه الباكيتـين إلى الأمـيرة سـانيس، وخاطبهـا مفجوعًـا:

– مات الفتى تواهي!

فكـرت سـانيس قليـلاً، وحاولـت أن تجـد صلة مـا تربطهـا بهـذا النبإ، لكنهـا فشـلت. فهـي تعـرف الفتـى البربـري تواهـي، وتكـنّ لـه احترامـا خاصًـا؛ لأنـه قـاد فرقـة الحراسـة التـي شـكلها الموسـيقي لوطر لحراسـتها في حـي الأمازيـغ، وتـدرك أنـه حـاول اختطافهـا وقتْلهـا ذات مـرة عـلى نحـو بَـريء وجميـل جـدًا، ولكنهـا تعلـم أيضـا أنـه حـارب بشراسـة دفاعـا عـن مدينـة أرتـو في معركـة الذئـاب؛ مدينـة أرتـو التـي لفظتـه دائـما، كـما لفظـت باقـي السـكان الأمازيـغ بوحشـية بالغـة، ولكـن هـل يجـب أن تعلـم بموتـه أو تحـزن مـن أجـل موتـه؟!

- لتتغمده الآلهة برحمتها.

هكـــذا قالـــت الأمـــيرة ســـانيس، وهـــي تهـــمّ بالمغـــادرة، ولكنهـــا تداركـــت:

- وعليـك ألاّ تقتـل نفسـك بالبـكاء يـا لوطـر! لديـك زوجـة بارعـة الجـمال.. ابْـقَ حيًّـا لأجـل تـيرارا.

بهـذه العفويـة عـبرت الأمـيرة عـن رجائهـا، وكأنهـا توقعـت فعـلاً مـوت الموسـيقي لوطـر بسـبب البـكاء.

- سـيدتي الأمـيرة سـانيس، يجـب أن أشرح لـك الموقـف.. هنـاك وصيـة مـن تواهـي، أو بالأحـرى معـروف وَدَّ لـو تفعلينـه لأجلـه بعـد موتـه.. لقـد كان يحبـك.

ردّت بعفوية غريبة:

- لن يكون طلبه طبعًا أن أتزوّج جثته!

- ربـما كان الأمـر يشـبه ذلـك، ولكـن بطريقـة مختلفـة جـدًا.. لقـد حدّثنـي عـن حادثـة محاولتـه اختطافـك، وكيـف أنـك نزعـت الخنجـر مـن يـده، وكيـف أنـه فـزع عـلى نحـو غـير عـادي!

قالت الأميرة سانيس باستغراب:

- يا للآلهة!!. هل مات بسبب الفزع؟

- لا أعتقـد سـيدتي، ولكنـه ركـض وقلبُـه يـكاد ينخلـع مـن مكانه إلى أن دخـل حـيَّ الأمازيـغ. زرتـه في فراشـه بعدمـا أصيـب بحمّـى مباغتـة

لازمتْه أيامًا طويلة. فكلنا نعرف أنّ تواهي لا يمرض، وأنه كائن صلْب كما لو أنه صنع من حديد! لقد روى لي كل شيء، وقال إنه مُغْرَم بك، ولكنني أخبرته أنك الأميرة سانيس، بنت حاكم أرتو؛ فأصيب تواهي بيأس قاتل. خرج إلى الشارع شاردًا لا يكلِّم أحدًا، وظل يركض في أزقة حي الأمازيغ مدة يوم ونصف يوم من غير توقف، ودون أكل ولا شراب، وكان يردد اسمك في البداية بصوت مجلجل يهتز له الحي كله، ولكن هذا الصوت ظل يخفت- مع مرور الوقت- إلى أن انتهى تمامًا، وروى بعضُهم أنهم رأوا شفتيه تتحركان في آخر خطواته البطيئة قبل أن يتداعى، وفي الأخير سقط على الأرض سقطة نهائية. وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، طلبني، فذهبت إليه، وأوصاني بما يأتي:

- ادفن معي القضيب المصنوع من فرع شجرة السدر، وحاول إقناع الأميرة الرومانية بأنْ تدفن لباسها الداخلي بجنب جثتي في القبر، وحاول إقناعها كذلك بأن تفعل ذلك بنفسها، وقلْ لها بأنني أحببتها كما لم أحبَّ شيئًا آخر في حياتي!

ظلت الأميرة سانيس تستمع باهتمام بالغ، وبدا أنها تأثرت بقصّة موت تواهي الغريبة. قررت- في الحال- الذهاب مع الموسيقي لإلقاء نظرة أخيرة على جثمان تواهي الذي كان ممددًا في قبره، وعلى يِساره القضيب الشهير المصنوع من غصن سدر؛ ذلك القضيب الذي طالما زرع طقوس رعب عجيبة في حي جبل الأمازيغ. بدا الموسيقي حزينًا ومنكسر القلب.. لقد فقد أحد أشهر فتيانه، وأكثرهم نبلًا

وشـجاعة وإخلاصًـا أيضًـا. وبينـما اسـتمرت الأمـيرة سـانيس تمـشي بجنبـه شـاردة، رأتْ شـابًا غريبًـا عـن المدينـة، يرتـدي ملابـس أنيقـة، وتفـوح منـه رائحـة طيـب تنفـذ إلى روحهـا، وتنـشر داخلهـا إحساسًـا، يتزايـد مـع كل خطـوة، بالتعلـق بهـذا الشـاب الـذي أيقنـت أخـيرًا أنـه حقيقـة يجـب أن تكـون ملموسـة. قـاد الموسـيقي لوطـر الأمـيرة إلى صعـود زقـاق ضيّـق دفنـت عـلى جنباتـه قبـور قديمـة وحديثـة، بعضهـا منبـوش بطريقـة عبثيـة، واصطـف عـلى امتـداد الزقـاق عـدد هائـل مـن سـكان حـي الأمازيـغ جـاؤوا لإلقـاء نظـرة الـوداع الأخـيرة عـلى روح الفتـى تواهـي. وكانـت سـانيس تمـشي بأبّهـة أميريـة غـير مصطنعـة؛ أبهـة لصيقـة بشـخصيتها العفويـة، وقـد بـدت رائعـة بجاذبيتهـا التـي لا تقاوم، حتـى إنّ نسـاء حـي جبـل الأمازيـغ وحسـناواته، فغَـرْنَ أفواههـنّ، وهـن يريـن كائنـة بالغـة الحسـن، وطافحـة بسـحر خـارق!

– هـذا هـو القـبر، وهـذه جثـة تواهـي! قـد لا تتعرفـين إليـه، ولكنـه أصبـح عـلى هـذا النحـو بعـد يـوم ونصـف يـوم مـن الركـض تائهًـا وسـط أزقـة الحـي مـن دون توقـف، ومـن دون مـاء ولا طعـام!

نظـرت إليـه الأمـيرة سـانيس مسـتطلعة، وبـدا كلام الموسـيقي لوطـر صحيحًـا.. لم تكـن لتتعـرف إليـه لـولا ذلـك الشـعرُ الطويـل المميّـز المربـوط بسـلك نحـاس. لقـد يبـس جلـده، والتصـق عـلى عظامـه الناتئة، واختفـى اللحـم مـن وجهـه نهائيًـا؛ فـبرزت عظـام وجنتيـه، وبـدا رأسـه أشـبه بجمجمـة مغلّفـة تغليفًـا مُحْكـماً بجلـد ثـور محنـط. ورأت إلى يسـار جثـة تواهـي القضيـب الرفيـع المصنـوع مـن فـرع شـجرة سـدر.

أطبق صمت رهيب جمّد كل الأصوات في حي جبل الأمازيغ، واستمرت دموع الموسيقي لوطر تتساقط من عينيه بهدوء، واصطفت الجموع، على نحو منظّم وبطقوسية فريدة، وكأن الموت ألزم الأمازيغ بذلك النظام الصارم. كانت الأميرة سانيس ترتدي تحت ثوبها الخارجي ثوبًا داخليًا يصلح أحيانًا للنوم، وهو لباس شفاف أحمر اللون. أخذت أمام مرأى الجميع تنزع لباسها الخارجي. فغر الجميع أفواههم استغرابًا لِما يَرَوْنَه. وبعد ذلك، وبعفوية أكثر من غريبة، شرعت تسحب ثيابها الحريرية الداخلية قطعة قطعة، لتصبح- في الأخير- عارية تمامًا، وبدا جسدها شهيًا، يفوح برائحة رحيق عسل وردي فاتح. رتبت الأميرة سانيس ألبستها الداخلية بهدوء، وعلى نحو متناسق ليتناسب مع قامة جثة تواهي. أحدث عري الأميرة رَجّة في صفوف الحاضرين، فشُوهد بعض الفتية والشبان، وبعض الشابات أيضًا، يسقطون فاقِدي الوعي جرّاء رؤيتهم جسدًا تصوَّروا أنه لا يمكن أن يكون إلا لإلهة فينوس، التي تجسدت في هيئة الأميرة سانيس.

كف الموسيقي لوطر عن البكاء فجأة. بدوره كان ينظر مشدوهًا إلى جسد سانيس الفاتن. لقد شعر بحالة غريبة، وهو يعاين بلذة معذبة ردفي الأميرة وخصْرَها وثدييها وعنقها وسرّتها وساقيها وفخذيها.. إنه جمال مدهش وخارق؛ جمال أخذ أنفاس الموسيقي لوطر على نحو مريع.. كان قريبًا منها، فرأى جسدها ينز بقليل من العرق، وشم في إبطيها رائحة عسل قوية ومذهلة. لم يصدّق حاسة شمِّه، ولكنه كان أمام الحقيقة.. حقيقة عرق يفرز رائحة

عسـل لذيـذ. أنهـت الأمـيرة سـانيس مهمّتهـا بهـدوء، غـير مباليـة بـما يحـدث حولهـا، فارتـدت ملابسـها الخارجيـة، وحينـذاك عـادت موجـة أخـرى مـن وشوشـات خافتـة، سَرَتْ سريعًـا بـين الجمـوع المصطفّـة عـلى جانـب الزقـاق. عـادت الأمـيرة سـانيس برفقـة الموسـيقي لوطـر إلى أسـفل الجبـل؛ ومـن ثمـة إلى مدينـة أرتـو. ودَّعـت الموسـيقي، الـذي كان غارقًـا في موجـة ذهـول غـير مسـبوقة، ولم يسـتطع منـع نفسـه مـن التفكـير في جسـد الأمـيرة العـاري، ورائحـة العسـل الشـهي التـي شـمَّها في عـرق إبْطيهـا، وإعجابـه اللامتناهـي بجسـدها الحـارق، الـذي جعلـه يسـمع موسـيقى مذهلـة بـدأت منـذ تلـك اللحظـة تتسـرب مـن أسـفل قدميـه إلى جسـمه كلـه.

أيتها الإلهة الذهبية،

المكللة بسنابل القمح،

لماذا عيدك يكبت ابتهاجنا؟

إن أمم العالم تمجّد غلالك وما من إلهة تعطي البشرية مخزونًا أوفر.

أفولاي والقبر الأبيض

توقفت قافلة السيد أفولاي؛ تاجر الملح، بجنب وادي كيل، واد فيه كلأ وماء يجري من نبع يخرج من صخرة، ويسيل ليُشَكِّل بركة حولها أشجار نخيل غير جيدة الرُّطَب، ونباتات شوكية جافة. انشغلت البغال، التي أنزل من فوقها مساعدا السيد أفولاي أكياس الملح، بالشرب والاستراحة، بعد سير طويل مجهد. نظر السيد أفولاي ناحية الغروب، فاستشعر رجفة سرت في جسده، وفكّر في أنير، ورَوَّعَهُ هاجس أنْ لا يجده أبدًا، لكن خاطرًا ما جعله موقنًا بأنه في الطريق الصحيح إليه.

فتح كيسه الشخصي، فأخرج منه طعامًا، وأخذ يتناول خبزًا يابسًا مع ماء، على حين استسلم ساريل المساعد الأجير لغفوة طويلة، وكان مساعده المخلص الدائم، الشاب أسافو، يحدّق في

السماء، ويتابع بعينيه طيورًا متفرقة، ويترنم بأغنية تخرج منسابة وعذبة من خلال صوت جميل. وفجأةً تذكّر السيد أفولاي أيقونة ثفوشت. بحث عنها بارتباك في الكيس الذي يحفظ فيه أمواله وأغراضه النفيسة. وارتاع حين لم يجدها، فتلون وجهه برعب استبدّ به فجأة، وتخيل لعنات مريعة ستعصف بأنير وبالقافلة، وانتابه إحساس بأنه خان وصية المعلم ماسين، وخان شعب الأمازيغ! هرول بخطوات عرجاء إلى مساعده أسافو، ووضع على كتفه يده المرتعشة، وقال بصوت يعتصره إحباطٌ مهولٌ:

- أسافو.. أسافو، أيقونة ثفوشت ضاعت.. ولا أعرف كيف أجدها!

حوَّل أسافو بصره إلى أفولاي، وخاطبه بوُدٍّ صادق:

- سنعرف أين نجدها يا سيدي، ولكن- قبل ذلك- يجب أن نهدأ ونفكر بصفاء.

شبَّك السيد أفولاي يديه، وتحرك قليلًا في مكانه، ودوَّامة من حيرة كبيرة تطوّح به. نهض أسافو، ووقف أمام السيد أفولاي، مخاطبًا إياه بلهجة واثقة:

- أعتقد أنني أعرف مكانها.

تهلل وجه تاجر الملح، ولمعت عيناه ببريق تفاؤل كان قبلَ قليل شبه مفقود:

- ليتك تعرف أيها الشاب المخلص!

- رأيتها في يدك يا سيدي في آخِر استراحةٍ لنا، وكنتَ تتأمّلها تحت ضوء البدر، ورأيتك تنام في النهاية، ولستُ أدري مصير الأيقونة بعد ذلك، ولكنها إذا لم تكن ضمن حاجاتك الخاصة جدًا، فإنها ستكون قد وقعت من يدك قبل استيقاظنا في الفجر لنكمل رحلتنا.

تنهّد السيد أفولاي، ثم مسح عرَقًا خفيفًا غطى جبينه، وقال كالحالم:

- يلزمنا يومان كاملان للعودة إلى المكان، وإحضار الأيقونة!. ولا مناص من أن نفعل.

- لترتحْ أنت يا سيدي.. سأقوم بالمهمة وحدي. سنربح وقتًا كثيرًا. سيبقى معك ساريل كي لا تشعر بالوحدة، ولكي يساهم معك في حماية القافلة.

- لا يا أسافو، لا ينبغي أن نتركك تذهب وحدك!. الطريق طويلة.. وقد تعترضك مصاعب جمة.

- ليس هناك من حلّ إلا أن أذهب وحدي.. لن نستطيع، على أيّ حال، الاتكال على شخص آخر. ثم إنه لا يمكننا العودة بكل القافلة.. سنُرْهِق البغال، وهي مُحَمَّلَة بكل هذه الكمية من الملح.. وسنخسر الكثير من الوقت أيضًا.

- حسنًا.. كان بوُدّي أن أمنعك، ولكنك تعرف قيمة هذه الأيقونة، وتعرف ماذا يمكن أن تعنيه للشعب الأمازيغي.

- سأنطلق من فوري.. وتوقعْ عودتي في أقل وقت ممكن.

- لترْعَاكَ الآلهة يا أسافو.. أنت شابّ طيب.. لن أنسى لك هذا الصنيع الجميل العمْرَ كلَّه.

جمع أسافو، بعجالة، بعض الأكل والماء، ووضع سيفه في الغمْد. كان يعرف صعوبة المهمة وخطورتها، ولكنه يحفظ للسيد أفولاي معروفا لن يستطيع أن يرد له ولو نزرا يسيرًا منه مدى العمر.. لقد أنقذ حياته من لدغة ثعبان قاتلة. جد أسافو في السير، قاطعًا مسافة طويلة وسط خلاء صعبِ التضاريس. وظل السيد أفولاي يعتصر ألمًا صامتًا؛ ألمًا بدا واضحًا في ذبول عينيه، وفي الشحوب الذي طال سحنته المجعّدة. خاف على الشاب أسافو، الذي ساعده سنواتٍ طويلة في تجارة الملح، وعاونه مرات كثيرة على تدوين مخطوطات نادرة، وترميم أخرى. لقد بدا الكهل أفولاي مجهدًا، ولم يفهم كيف أنه سمح للشاب بخوض هذه المغامرة المَهُولة وحده، ثم أيّهما الأوْلى بالمجازفة؟! البغال والملح، أم الشاب أسافو؟! تساءل بِلَوْعَةٍ مُرّة ومحيّرة، ولم يستطع لملمة إحباطه الشديد، لكنه استمر محتفظًا بتفاؤل حذر.

استفاق المساعد الأجير ساريل، فلاحظ الانهيار البادي على السيد أفولاي، وبحث بعينيه، اللتين تشبهان عيني ذئب شرس، عن أسافو في الواحة، لكنه لم يَرَه:

- أين أسافو؟

ولّما لم يتلقّ جوابًا عن سؤاله من السيد أفولاي، قال ساخرًا:

- هل ذهب للصيد؟. لا يوجد هنا إلا الضباع والثعابين السامة.

- اصمتْ يا ساريل.. اصمت، لا أريد سماع مثل هذا الكلام!

ضحك ساريل، وقهقه عاليًا:

- هل تخاف الثعابين والضباع... أيها العجوز الطيب؟!

نظر إليه السيد أفولاي نظرة غاضبة، ولكنه كظَم غيظًا عارمًا داخل نفسه.. لم يكن السيد أفولاي سريع الغضب في العادة، ولكنه يجد نفسه أحيانًا في حالة انفعال شديدة ومفاجئة تلمّ به...قال بهدوء:

- أسافو ذهب إلى الموقع الذي استرَحْنا فيه آخِرَ مَرّة، وسيقطع مسافة طويلة، وأنا خائف عليه يا ساريل!

- لا تخف أيها العجوز.. أسافو شاب شجاع، يتقن استعمال السيف، ولن يخاف من الضباع والثعابين السامة... نَمْ.. نَمْ بهدوء.. لا تشغل بالك به.

حَلَّ الغروب سريعًا، وتضاعفت مخاوف السيد أفولاي على رفيقه الدائم الشاب أسافو؛ فجالت بخاطره هواجس، ولاحظ سربًا من طيور سوداء غطّت فجأةً السماء؛ فشعر بشؤم وتطيُّر، وندم ندمًا شديدًا على سماحه لأسافو بالعودة وحيدًا في هذا الليل إلى المكان البعيد المفترَض أن توجد فيه أيقونة تفوشت. نزل الظلام ثقيلًا؛ فسكنت الحركة إلا من نقيق ضفادع، وأصوات هوامّ ليلية غريبة. تمدد ساريل على الفراش، ثم غَطَّ في نوم بدا عميقًا جدًا. على حين ظلّ السيد أفولاي يراقب النجوم، ويفكر في خطوات أسافو

في الخـلاء الموحـش، واجتاحـه مـوج هـادر مـن الذنـب؛ فلـم يسـتطع إغـماض جفنيـه. وفي الوقـت نفسـه كان شـخير سـاريل يتعـالى، وحَـنَّ السـيد أفـولاي إلى صديقـه المخلـص المعلـم العجـوز ماسـين؛ صانـع الأحذيـة، وأيقـن بحـسٍّ غامـض أنـه سـيكون قـد فـارق الحيـاة، وسرَّه أنـه لم يعـش اللحظـة المـرة والمؤلمـة، التـي قـد يكـون المـوت اختطـف فيها صديقـه الحميـم، وارتـاح لكونـه لـن يسـتطيع أبـدًا أن يعـرف بسـهولة مـا إذا كان المعلـم ماسـين قـد مـات فعـلًا أم لا. شـعر السـيد أفـولاي بالتعـب، وتثـاءب عـدة مـرات، وهاجمـه النـوم بـضراوة، لكنـه كان يَجِـدُ نفسـه في كل مـرة مضطـرًا إلى اسـتحضار صـور متذبذبـة لأسـافو، وهـو يسـير في الظـلام، وخيـل إليـه وكأنـه يسـمع خطواتـه السريعـة عـلى الأرض. وحلـم، في غفـوة قصـيرة، بذئـاب جائعـة تحيـط بأسـافو؛ ذئـاب تزمجـر وتسـتعد للانقضـاض عليـه، وكان أسـافو يُشْـهر السـيف متحفِّـزًا لمعركـة لـن تكـون متكافئـة، وحـين انقـضّ أول ذئـب عـلى أسـافو صـاح السـيد أفـولاي:

- احذر يا أسافو.. احذر، هناك ذئب.. هناك ذئب.. هناك...

استـيقظ أفـولاي مـن الغفـوة، وشـعر بكآبـة جثمـت كطمـي ثقيـل عـلى صـدره. حـاول بجهـد جبـار أن يبعـد عـن ذهنـه كل الهواجـس المزعجـة، ولكنـه لم يسـتطع. غـير أن سـلطان النـوم جرفـه في لحظـة ضعـف شـديدة، فنـام الكهـل الحزيـن متوسِّـدًا كيسـه الـذي يحتـوي عـلى نقـوده ونفائـس مخطوطـات لا تفارقـه... وفجـأةً شـعر بيـد تهـزّ كتفـه برفـق.. لقـد كانـت يـد الشـاب أسـافو.

تهلــل وجــه الكهــل بفــرحٍ تقافــز مــن تجاعيــد وجهــه كطفــل، وارتســمت عــلى فمــه ابتســامة عريضــة:

- مرحبـا يـا أسـافو.. أرجـو أن تغفـر لي هـذا الخطـأ.. مـا كان ينبغـي أن أجشّـمك عنـاء السـفر وحيـدًا في ليـل خـلاء موحـش!. يبـدو أننـي نمـت طويـلاً.

جال أسافو بعينيه حول الوادي، وتساءل بروع:

- ولكن أين ساريل، وأين قافلة الملح؟!

- ساريل!!.. قافلة الملح!!

وضع أسافو أيقونة ثفوشت في يد أفولاي، ثم خاطبه بوُدّ:

- ابْـقَ هنـا.. سـأحوم حـول الـوادي لأسـتطلع الأمـر، وسـأعود سريعًـا.

نظـر السـيد أفـولاي إلى الأيقونـة، وقبَّلهـا بحنـوٍّ بالـغ، وسـقطت مـن عينـه دمعـة احترقـت بسرعـة فـوق الأيقونة، وشـعر بـدفء ينبعـث منها؛ دفءٍ سرى في جسـده وكأنـه خـرج مـن صهريـج مـاء بـارد جـدًا؛ ليجـفّ جسـده بسرعـة تحـت شـمس حـارة. لم يكـن قـد اسـتيقظ تمامًا مـن دوخة النـوم، ومـن فرحـة اسـترجاعه الأيقونـة. لذلـك، لم يبـال لسـؤال أسـافو حـول سـاريل وقافلـة الملـح. عـاد أسـافو، بعـد وقـت وجيـز بخطـوات مجهـدة، وقـال بصـوت محبـط:

- فَرَّ ساريل ليلًا أثناء نومك.. النذل سرق البضاعة!

نهـض السـيد أفـولاي مـن مكانـه بتثاقـل. ارتـجّ بسـبب انفعـال سريع

سرى في جسده. لم يصدّق ما سمعه من أسافو، ولكنه وقف على الحقيقة المُحْزِنة حين لم يرَ المساعد الأجير ساريل، ولم يرَ البغال، ولم يرَ أكياس الملح سوى ثلاثة أو أربعة أكياس يبدو أن ساريل؛ بسبب تسرعه وخوفه من رجوع أسافو المفاجئ، لم يتمكن من حَمْلها على البغال. قال السيد أفولاي مواسيًا أسافو الذي غمره إحساس بالذنب حوَّل وجهه إلى شبه كتلة غامقة غير واضحة الملامح:

- لا بأس.. يمكننا شراء بضاعة جديدة من الملح، وعدد من البغال عند وصولنا إلى أول مدينة.

بدا الإرهاق الشديد على أسافو؛ فجلس على الأرض، وأخذ يعبّ من جرّة ماء. لاحظ السيد أفولاي الشحوب الذي يغطي وجه أسافو. اقترب منه، ونظر إليه مليًا، وصاح بروع:

- أنت لست على ما يرام أيها الفتى.. كيف أستطيع مساعدتك؟!

سال عرق خفيف على جبين أسافو، ودهمته حمّى مفاجئة، واقشعر بدنه بردًا؛ فسارع الكهل أفولاي، وخلع رداءه، ووضعه على جسم أسافو الممدّد على الأرض.

- كُلْ شيئًا.. لا ريب في أنك جائع، وتحتاج إلى مقوّيات.. لدي خبز ولحم مجفف.. هيّا كلْ واشربْ.

لم يَبْدُ على أسافو أي رد فعل. غرق في غيبوبة خفيفة، كان يسمع خلالها فقط صوت خرير الماء، الذي يتفجر من صخرة الوادي، وصوت الكهل أفولاي الذي يتردد في أذنيه كصدى كلمات مخطوطة

قديمـة قرأهـا في زمـن بعيـد، ورأى نفسـه يمـشي في الظـلام ويهـرول، متعثـرًا بالحجـارة والحفـر قبـل أن يصـل إلى المـكان الـذي قضـوا فيـه اسـتراحتهم الأخـيرة، ورأى مـن بعيـد، تحـت نـور بـدر بديـع، إشـعاعًا خارقًـا ينبعـث مـن مـكان محـدد، وحـين وصـل إلى المـكان خبا الإشـعاع، لكـنّ لمعانًـا أخّـاذًا خطـف بـصره، وكان ذلـك اللمعـان يصـدر مـن الأيقونـة. لقـد وجـد أيقونـة ثفوشـت أخـيرًا. مـدَّ بفـرح يـده المرتجفـة، والتقـط الأيقونـة مـن الأرض، فأحـسّ بهـا مفعمـة بـدفء عجيـب؛ دفءٍ تـسرّب إلى نفسـه، وشـحنه بموجـة غريبـة مـن شـهوة عارمـة؛ شـهوة أغرقتـه في عـرق تصبّـب منـه في الحـال. أفـرغ جسـمه مـن الشـهوة كلهـا دفعـة واحـدة، وشـعر بإنهـاك وبلـذة رَجّتـه رجًّـا عنيفًـا.

عـاد أدراجـه مسرعًا، والأيقونة في قبضته. شـعر وكأنهـا تتحرك، وكأنها كائـن حـيّ يتململ في يده، كما لو أنها تقـول له شـيئًا. لم يفهم، لكـنّ خوفًا اسـتبدّ بـه، وخطـر بباله أن السـيد أفـولاي في وضع غـير مريح، وأن شـيئًا فظيعًـا مـا يحـدث في وادي كيـل؛ فـأسرع المشي، وهـرول، وركـض، إلى أن وصـل مجهـدًا جـدًا، وفاقـدًا كلَّ قُـواه، إلى الـوادي، وأصيـب بخيبـة أمـل مريعـة؛ إذ رأى الكهـل أفـولاي ينـام وحيـدًا، ولا وجـود لسـاريل ولا لأكيـاس الملـح والبغال، وفهـم كل شيء!

- أسافو.. أسافو، أيها الفتى الرائع، هل أنت بخير؟

لم يقـل أسـافو شـيئًا، لكنـه حـاول النهـوض. خانتـه قـواه. عـاود الكَـرَّةَ؛ فاسـتطاع أن يرفـع جسـمه ليقـف عـلى رجليـه، وهـو يرتجـف. أمسـك بـه الكهـل أفـولاي، وخاطبـه بصـوت حـانٍ:

- يا ولدي، ماذا تريد؟

رد أسافو بحروف واهنة ومتقطعة:

- أريد أن أمشي.. أنا في سفر، ويجب أن أموت وأنا أخطو.

شعر السيد أفولاي بالاضطراب، وأدرك أن أسافو على حافة النهاية، ولكنه احتفظ بالقليل من الأمل في نفسه:

- لن تموت يا بني.. ستكتب لك الآلهة عمرًا طويلاً إلى أن نلقى أنير، وربما عدنا ذات مرة إلى دريو؛ بلدتنا الرائعة، وبرفقتنا أنير.

اتكأ أسافو على كتف الكهل أفولاي، وخطا مترنّحًا مُلْقيا أكثر ثقل جسمه على كاهل أفولاي، وتسارع لهاثه، وبدا مرهقًا جدًا. وفجأةً فقد توازنه؛ إذ تعثر بطرف كيس ملح، ولم يستطع السيد أفولاي أن ينقذه من السقوط، ودارت أمام عيني أسافو عدة صور؛ فرأى وراء غمام شفاف يغشّي بصره أنير، ولم يَبْدُ له أنير في أفضل أحواله... ثم أغمض عينيه، وحاول أن يقول شيئًا للسيد أفولاي، لكنه لم يستطع تحريك شفتيه!. وفي الأخير، افترَّ فمه عن ابتسامة هادئة، وارتخت أوصاله، وبدا كما لو أنه مات. لكنه ما فتئ أن فتح عينيه من جديد، وحاول بجهد جبار النهوض من مكانه، واستطاع أن يقف بشبه معجزة، وسار بضع خطوات وهو يترنح، قبل أن يتهاوى على الأرض، وقبل ذلك كان قد انقطع نفَسُه كما لو أنه نور خبا ببطء سَيْرِ قمر مكتمل خلف سحابة.

جلس السيد أفولاي بقُرب رأس أسافو، وأجهش ببكاء هادئ..

استمر يبكي في صمت. وحين لملم شتات نفسه، نهض وسار بخطوات عرجاء، باحثًا في الجوار عن شيء ملائم للحفر، وسرعان ما وجد حجرًا ناتئًا رفيعًا قُرْبَ بركة الماء. عاد إلى جثمان الشاب أسافو المسجى قرب أكياس الملح، وبدأ يحفر قبرًا بمثابرة لا تكلّ، واستعمل في ذلك أصابع يديه أيضًا. انتهى من حفر قبر قَدَّرَ أنه سيُناسب جثمان أسافو. جَرَّ السيد أفولاي كيس ملح بصعوبة، ثم فتح الكيس، وأفرغ محتواه كاملًا داخل القبر، وأخذ يوزّع كمية الملح بإتقان ليغطي أرضية القبر كلها. وحاول أن يحمل جثمان أسافو، لكن قواه لم تسعفه؛ فجَرَّ الجثمان، ودحرجه بحرص شديد لينزلق داخل القبر. وتوجه من جديد بخطوات عرجاء مجهدة نحو كيس ملح آخر، فتحه ثم أفرغه على جثمان أسافو. ارتاح قليلًا، ولهاثه يتصاعد بوتيرة شديدة، والعرق يغسل وجهه، ويسيل على عنقه المغبرّة المجعدة، ويلطخ ملابسه المعفرة بالملح والغبار. وقبل الغروب بقليل، جر كيس ملح آخر، وأفرغه على جثمان أسافو، ثم إنبرى، بهمّة عالية، يغطي الجثمان من كل جهة بالملح، وفي النهاية أصبح جثمان أسافو مغطى كله بالملح. ونظر السيد أفولاي الكئيب نظرة مُغْرقة في الأسى إلى القبر، ثم أخذ حفنة من الملح، ووضعها في كيس صغير، قبل أن يغطي القبر بالتراب. وملأ جرّته من النبع، ورشَّ القبر بالماء. وجلس واجمًا ينظر، بعيون تائهة وموغلة في الحزن، إلى القبر. وحوَّل بصره صوب الشمس التي تتهادى بسرعة نحو الغروب، وجالت بذهنه اللحظات كلها التي عايش فيها الشاب أسافو؛ فشعر بحزن جرح قلبه المتعب. ثم نهض بتثاقل،

وأخـذ كيسـه وكيـس أسـافو، وتأمّـل السـيف الـذي لم يفـارق مسـاعده المخلـص الدائـم قـط. أدار ظهـره إلى القـبر، وردّد بخفـوت يعتـصر ألمًـا حارقًـا:

- لقد مات أسافو.. وأيّ فتىً مات!!

تأبـط كيسـه الـذي وضـع داخلـه كيـس أسـافو، ومسـك في يـده أيقونـة ثفوشـت؛ فتحركـت داخلـه رجفـة حارقـة، وشـعر بـدفء شـواه كـما لـو أنـه دفء نـار مـن ثلـج. واصـل السـيد أفـولاي السـير بخطـوات عرجـاء، وصعـد تـلاً بصعوبـة، وبانـت مـن ورائـه الشـمس تغـرق وراء الأفـق الأحمـر المتوهـج، واختلـط طيفـه البعيـد بطيـف الظـلام، الـذي بـدأ يصـبّ في نفسـه حزنًـا أكثـر مـن أي حـزن شـعر بـه السـيد أفـولاي في حياتـه.

لا تُعطِ، ولكن اظهر وكأنك دائما على وشك العطاء،

كالحقول القاحلة التي تسخر من حلم المزارع كالنرد الذي لا بد من

أن يقذفه المقامرون المتحمسون،

وهم مستمرون في الخسران ليعوِّضوا عن خسارتهم.

الشباك المعجز

ترك أنير خلفه، حين ولج بوابة البناية الكبيرة لمقرّ رئاسة المدينة، طقسًا مضطربًا. فكر للحظةٍ في لقائه بالسيد ماريوس.. هل يعكس الطقس المعكر في الخارج الحالةَ المضطربة التي ستتحكم في هذا اللقاء الذي بدأ يرى فيه، رغم كل شيء، مؤشرات أصبحت الآن أكثر واقعية، تقربه من الفتاة الرومانية سانيس؛ ابنة قائد الجيش الذي لا يذكر اسمه، وتقربه أيضًا من تطلع المعلم ماسين لمستقبل أفضل لشعب الأمازيغ؟ توجه إلى مكتب السيد ماريوس. لم يرافقه أحد من الحراس.. وكانت هذه أيضًا إشارة مطمئنة تعاكس الإشارة المشؤومة حول الطقس المضطرب في سماء أرتو. طرق الباب طرقات واثقة:

- ادخل.

دفع الباب، فوجد السيد ماريوس واقفًا أمام مكتبه متأهبًا لاستقباله. وكما العادة، فقد بدا وسيماً، يرتدي ثوبًا حريريًا فاخرًا، ويدْهن وجهه بزيت زينة نادر وطيب الرائحة. أقبل أنير بخطواته المعتادة غير المترددة، فخاطبه السيد ماريوس بابتسامة ماكرة:

- أهلًا بالشاب البربري؛ ضيف مدينة أرتو الكبير.

- شكرًا.. أيها السيد المحترم.

شبك السيد ماريوس أصابع يديه، وشعر ببعض الارتباك غير المعهود في طبعه، ولكنه في آخر الأمر قال:

- أعجبت بالشباك الذي أبدعت في صناعته!

- شكرًا! يسعدني أن أسمع هذا الكلام من شخص بمثل ذوقك.

- من اليوم فصاعدًا ستكون أكبر...

لم يكمل السيد ماريوس جملته. لم يجد كلمة «حدّاد» مناسبة. وضع سبّابته على طرف فمه، وشرد قليلًا، ولكنه- بعد تفكير قصير- أضاف:

-... أكبر مصمّم حِدادة في المدينة.

- أرجو أن أكون عند ثقتك.

- شبابيك بناية الرئيس قديمة، ومبنية بطراز عتيق.. نريد أن تصمم لنا حوالي خمسة وسبعين شُبّاكًا جديدًا لكل البناية.

- نعم يا سيد ماريوس، سأبذل كل جهد لتكون الشبابيك في مستوى قيمة البناية وجمالها.

- عليك أن تتفرغ لتصميم هذه الشبابيك.. خُذِ الوقت الكافي، وكن مرتاح البال! طبعًا، لن تشتغل في التصميم، وأنت في ورشة كاجي.. سيتسبّب لك ذلك في تشويش ذهنك.

- أرى العكس، أيها السيد ماريوس.. وجودي في الورشة، وسماعي مطارقَ الحدادين، ورؤيتي الحديدَ والشبابيك.. كل هذا سيحفز ملَكة الإبداع في نفسي.

- حسنًا! سيكون لك ما تريد. ثم إنني وجدت لك منزلًا جيّدًا كان لأحد الأمناء، ولكنه هاجر المدينة لأسباب أراد ألّا تشيع بين الناس، والمنزل أصبح في ملكية مجلس المدينة.. يمكنك السكن فيه ابتداءً من بعد غد.. لقد أمرت بتنظيفه جيدًا، وإعادة صباغته وتأثيثه.. ستحبه بلا شك!

- أشكرك، أيها السيد الكريم.

- تحدثتُ أيضًا مع السيد كاجي، وأخبرته بكل شيء، وحتما سيستقبلك هذه المرة بحفاوة كبيرة. سأبعث لك فورًا أوراق كتابة وأدوات تصوير.

حين خرج أنير من بناية الرئيس، حام حولها، ورسم كل أبعاد واجهاتها الأربع، وقاس، شبرًا شبرًا، طول الشبابيك وعرضها، ودوَّن في الهامش معلومات إضافية. ثم توجه نحو ورشة كاجي. كان

الطقس ملبدًا بغيوم سوداء، ورياح قوية تهب محملة برائحة البحر، ورائحة فتاة تفوح بطعم العسل. استقبله السيد كاجي بمودة غير طبيعية، ووجد لطفًا معتادًا من عامليه المخلصين. أخبرهما حول العمل الكثير الذي ينتظرهما، وأصدر أنير تعليماته المبدئية:

- ينبغي تشكيل ثمانية أنواع إطارات مختلفة في الحجم لنوافذ من نوعية حديد ممتاز، وسيكون القياس على الشكل والعدد الذي سأدوّنه لكما على هذه الورقة.

أخذ أنير قطعة من ورق جلد، وخطّ عليه مقاس الإطارات بدقة، مع الشروحات الضرورية، وأخبرهم بأنه سيختلي بنفسه ذهنيًا وسطهم لينجز الأشكال المطلوبة، وأي شيء استعصى على فهمهم، أو ساورهم شك حوله، ينبغي العودة إليه دون تردد. انهمك أنير يشتغل بوتيرة جادّة، وحاول استحضار كل الجماليات الموجودة في الكون، وفكر في جزئيات باهرة.. فكر في الإلهة فينوس وفي ألقها الباهر الذي يتجلى في كل مرة بصيغة، وفكر في فتاة بارعة الجمال رافقته في رحلة ممتعة من مكان بعيد إلى مدينة أرتو، وفكر أيضًا في المراهقة الدافئة زهرة الجمر. وحاول مزاوجة أشياء جميلة في الطبيعة مع ما يدور في خاطره وأحلامه. وفجأةً أحس برعدة هزت وُجْدانه، وشعر وكأنه وسط الخلاء في ليلة باردة يراقب نجمة فينوس، واستبدّ به قلق شديد لم يعرف مصدره! وحين رفع بصره، شاهدها.. شاهدها كما لو أن جرحًا صغيرًا انفتح في قلبه، وشعر بألم لذيذ، ولكنه لم يستطع

تبيُّن ملامح الفتاة المبهرة في جمالها. وأحس بطعم عسل يذوب في فمه، وكانت الفتاة حينئذٍ قد غادرت؛ فصاح أنير على نحو مباغت:

- هل رأيتموها؟

أجاب أحد عاملِي السيد العجوز كاجي:

- من؟. لم نرَ شيئًا!

- وأنت، يا سيد كاجي، هل رأيتها؟. هل رأيت شيئًا غير عادي؟. دعني أقول إنه شيء كما لو أنه يشبه نجمة فينوس!

- «نعم، رأيت شيئًا غير عادي، ولا يشبه نجمة فينوس إطلاقًا، ولكنه شيء مثير للسخرية.. لقد رأيتك أنت!».. قال العجوز كاجي متهكّماً. عاد أنير لإتمام شغله، وكانت تلك اللحظة التي رأى فيها الفتاة، في لمْح البصر، كافية لتضفي اللمسة السحرية التي كان يبحث عنها طويلاً؛ لإنهاء عمله الذي اقتنع- هو شخصيًا في النهاية- ببراعته. بدأ مطر غزير يتساقط؛ فسالت بعض المجاري وسط الشارع. وكان يلزم أنير، ليصل إلى بناية الرئيس، نحو ربع ميل، وكان عليه أن يخفي تصميماته في صندوق من حديد؛ كَيْلا يتبلل الجلد؛ فتسيح ألوان الصور.

أخذ الصندوق الحديدي، وهرول متوجهًا نحو بناية الرئيس، وقصد رأسًا مكتب السيد ماريوس، والماء يقطر من ملابسه المبللة. استأذنه في الدخول؛ فأذن له منَ الفور. استغرب ماريوس كيف

استطاع أنير إنجاز العمل خلال يوم واحد فقط، وهو الذي كان يتوقع أن يستمر إنجاز تصميمات معقدة كهذه عدة أسابيع:

- دعني أرى ما أنجزته.

فتح أنير الصندوق الحديدي، وأخرج منه أوراقًا جلدية ملينة، وعرضها أمام ناظرَي السيد ماريوس، وشرع يشرح، بإسهاب، التفاصيل الجمالية الدقيقة، التي لا يمكن فهمها فقط من خلال الصور، ولكنها ستبدو أجملَ حين تتجسد شبابيكَ ملونةً على جُدران بناية الرئيس.

- «إنه عمل بارع.. نعم.. هكذا يبدو، وأتمنى أن يتجلى على النحو الذي تصفه!».. علق السيد ماريوس، الذي لم يكن من عادته التسرع في إبداء الآراء، ولكنه- في قرارة نفسه- اقتنع اقتناعًا شديدًا بروعة العمل الذي أنجزه أنير على الورق، وتأكد- في الحين- أن هذا الشخص لا يمكنه أن يكون مجرد حدّاد عادي، أو حتى مصمِّم عادي، وساورته عدة شكوك وهواجس مخيفة.. فكر في أشياء كثيرة، وتساءل برعب عن وجود بربريّ غريب في المدينة؛ بربري يقدم نفسه بطريقة مختلفة، بل- أكثر من ذلك- يسأل عن الأميرة سانيس!!

- ألا يَحتمل أن يكون مدسوسًا من قبل الأعداء؛ من أجل تنفيذ عمل مريع في المدينة؟ ذكرى المعارك التي خاضها الحاكم أوريليوس سيبيو ضد ثوار مملكة ماسيسيليا لا تزال قريبة العهد!. هزّ السيد ماريوس رأسه، وقرر التخلص من أنير، بعد أن ينهي

إنجــاز الشــبابيك.. لــن يســتطيع أن يتصــور أي أذى قــد يلحقــه هــذا البربــري بالأمــيرة ســانيس، وبالمدينــة برمتهــا. وفي ظــل اســتغراق الســيد ماريــوس في أفــكاره، قــال أنــير مُواصِــلاً شرحَ بعــض التفاصيــل الجانبيــة:

– كــما تلاحــظ، أيهــا الســيد ماريــوس، فلقــد راعَيْنــا في عملنــا الأبعــاد المتعلقــة بعُلــو الطابــق الأول الــذي يختلــف عــن علــو الطابــق الثــاني، وأيضًــا واجهــة البنايــة التــي تظهــر فيهــا الشــبابيك للــمارّة أكثــر بكثــير مــن الزوايــا الثانويــة الأخــرى.

– حسنًا! هذا جيّد.. هذا جيّد.

قــال الســيد ماريــوس، وقــد هاجمتــه لوعــة حــب قديــم لا يريــد أن ينطفــئ مــن قلبــه، ورأى في الصــور أشــياء مرعبــة ســتظل تطــارده، وهــو في مكتبــه.. أيّ ســحْر تنطــوي عليــه صــور هــذه الشــبابيك؟!

شوقها

ســارت الأمــيرة ســانيس مترنحــة تحــت الأمطــار الغزيــرة، وكانــت رجْلاهــا ثقيلتــين، وشــعرت بتعــب ســنوات العمــر كلهــا. أخــيرًا تتعــب الأمــيرة، وتتمنــى لــو يأخذهــا أي حــارس مــن حــراس المدينــة عــلى صهــوة جــواده ليُوصلهــا إلى المنــزل. تبلّلــت ثيابهــا، وأصبــح المــاء يســيل مــن شــعرها، ويغــرق وجههــا، الــذي بــدا كــما لــو أنــه مغســول بعســل وردي فاتــح، وازداد ثوبهــا ثقــلاً بفعــل تشرُّبــه مــاءَ المطــر. مشــتْ في الوحــل، وفقــد حذاؤهــا لونــه وهيئتــه العاديــة. والواقــع أنهــا كانــت

تحمل في قدميها كومتيْ طمي. وراحت أنفاسها تتلاحق بوتيرة سريعة، ورعشة برد تسري في أوصالها. لقد رأته، ولقد رآها.. إنه هو! لم يكن هذه المرة قذِرًا ولا نتِنًا، ولم يكن يرتدي أثوابًا رثة؛ كما شاهدته في المرة السابقة. هذه المرة كانت تراقبه، وهي ترتجف ملتصقة بجذع شجرة رند.. لقد رأته منحنيًا، طوال الوقت، يدوِّن في ورق جلدي بتركيز شديد، وكان- من حين لآخر- يُعْطي بعض التعليمات للعاملَيْن اللذين كانا يشتغلان بصناعة إطارات حديدية ضخمة. أصرّت على البقاء في مكانها تحت وقع برد قارس، وريح هوجاء، ومطر غزير، إلى أن رفع رأسه بصدفة غريبة.. هل كانت صدفة؟! لا، هي من خاطبته في خاطرها، وقالت له برجاء ساحر:

- ارفع رأسك، وانظر نحو شجرة الرند المقابلة لورشة السيد كاجي، وستراني حتماً.

وما كادت الأميرة سانيس تكمل عبارتها حتى رفع أنير رأسه، والتقت عيناهما في لمح البصر، ولكنهما التقيا كما يلتقي نجم بنجمة في السماء. لقد ارتجَّ الكون كله حول سانيس؛ فغادرت فورًا متخفية وراء الناس والفرسان وأشجار الرند، إلى أن ابتعدت عن المكان.

- سيدتي، كيف تتركين نفسك في العراء في مثل هذا الطقس السيئ؟!

قالت الخادمة بيرينة، وهي تُهرَع نحو سيدتها الأميرة لتساعدها على المشي؛ لأنها رأتها تترنح، وتكاد تسقط في أي لحظة.

– لم يكن طقسًا سيئًا يا بيرينة.. لم يكن طقسًا سيئًا.. لقد كان أجمل طقس تمتعت به في حياتي.

أدخلت بيرينة الأميرة سانيس إلى جناحها في القصر، ثم نزعت عنها حذاءها الغارق في الطمي، وأزالت ألبستها المبللة، ثم غمرتها بغطاء دافئ، وطلبت إليها أن تنتظر ريثما تُعِدّ لها حمّامًا بماء ساخن.. أسرعت بيرينة، وجهزت كل شيء في وقت قياسي، تاركةً الأميرة وحدها. تخلصت سانيس من الغطاء، ثم نزلت إلى حوض الحمام عارية كما ولدتها أمها. لم تتمكن من التخلص من ذلك الوجه الذي اشتعل في عينيها كوهج خاطف إلى درجة لم تستطع معها تحديد ملامحه بالدقة الكافية، ولكنها رأت بدرًا مكتملاً نثر ذرّات نور باهر حوَّلها إلى كائن يهرب من نفسه. وخلال ذلك، أخذت تعاين اكتمال الدائرة، لكن الدائرة ظلت ناقصة، وظلت ثغرة فارغة كان يجب أن تغلق. غمرت جسدها بالصابون الصلصالي الأحمر؛ فتكونت حولها رغوة كثيفة، وأخذت الفقاعات الحمراء تنبت على جسدها، وانهمكت شاردة في عدّ الفقاعات واحدة واحدة، واستغرقت وقتًا طويلاً وهي تَعدّ من دون أن تدري ما تفعل، ولا ما يجري في مخيّلتها، إلى أن فاجأها صوت بيرينة الهادئ من خارج جناحها في القصر:

– سيدتي سانيس، هل أنت بخير؟

– نعم.. أنا بخير يا بيرينة.. أنا بخير.

أتمّت الأميرة سانيس استحمامها، ثم خرجت من حوض الماء،

وسارت بخُطى أنيقة، كخطوات يمامة وديعة، دون أن تنشّف جسدها البديع، وقطراتُ ماء تسيل على وجهها وثدييها وسرّتها، وتسيل من شعرها لتخترق ردفيها، وسانيس تشعر لذلك بنشوة حالمة، تنشر في جسدها رعشة عرضية لا تنتهي إلا لتعود من جديد. وبعد ذلك، تمّددت، بعُرْيها المضمَّخ بالماء واللذة، فوق السرير، وغطّت جسدها بملاءة حريرية، وغابت في أحلام بين اليقظة والنوم، ولكنها كانت تشعر بجوع غريب وفريد أكثر من أي وقت مضى من حياتها.

رَغبتُه

أكل أنير، في ذلك الجو العاصف الممطر، دجاجة كاملة في مطعم الطباخ سوسي في وسط المدينة، واحتسى قدحًا من النبيذ، ثم انطلق نحو حجرته في الخان. سار وسط الشارع، الذي احتلته عدة بِرَك مائية جرّاء الأمطار الغزيرة، التي تساقطت طوال الجزء الأكبر من النهار. وانتشر الظلام في أزقة أرتو وشوارعها. تأمل المشاعل التي تنير الشوارع الكبيرة. ولأول مرة انتبه إلى أنها جميلة، وإلى أنها تضفي على المدينة مسحة ليلية عبقة بالفرح وببعض الحزن أيضًا. لم ينْسَ ذلك الوجه النوراني الذي اشتعل في عينيه في لحظة خاطفة، وتذكر فجأة أنه سمع في أعماقه البعيدة، حين كان يشتغل برَسْم شباك معقد، صوتًا ساحرًا داعَبَ شِغاف قلبه بوداعة:

- ارفع رأسك، وانظر نحو شجرة الرند المقابلة لورشة السيد كاجي، وستراني حتماً.

نعم، لقد استجاب لنداء غامض جاءه من الغيب.. استجاب لذلك النداء العذب الذي باغت حواسَّه بمشهد لن يُمْحَى أبدًا من ذاكرته وقلبه. إنها هي.. سانيس الفتاة الرومانية التي سافر من أجلها، قاطعًا الفيافي والقفار والمَخاطر من بلدة دريو إلى أرتو. قلبُه أنبأه، منذ اللحظة الأولى التي وَطئت فيها أقدامه هذه البلاد، بأنها هنا، وبأنه سيلاقيها حتماً... وقد يتحقق بواسطتها ما تمناه المعلم ماسين لشعب الأمازيغ.

اقترب من خان سيتو، فلاحظ قافلة تحطّ الرحال للمبيت في الخان؛ قافلة من عدة بغال مُحَمَّلَة ببضاعة ما، ورأى رجالًا يبدو التعبُ على وجوههم الملفوحة بالبرد والإجهاد؛ فأشفق على حالهم؛ لأنه مر بظروفهم نفسها، بل بأشدّ منها. دخل أنير حجرته، وأشعل القنديل، فوجد سريره نظيفًا، ورائحة قرنفل تفوح في الأرجاء. تمدَّد على السرير بعدما بدّل ملابسه. لفّ حوله الغطاء. ولم يلبث طويلًا حتى كان قد غرق في نوم عميق، لكنه استيقظ فجأة، في وقت ما من الليل، على حلم بدا له، للوهلة الأولى، وكأنه واقع؛ فقد رأى فتاة مُشْرقة الوجه، جميلة الملامح، مراهقة دافئة وحَيِيّة ترتسم حولها هالة مخلوقة.. ملاك أو حمامة من الجنة! رآها تقترب من سريره، ثم جلست قرب قدميه، وخاطبته بصوت عذب:

– انتظرتك طويلًا، ولكنك خيّبت ظني، وارتكبت حماقة لا تغتفر في حقي، ومع ذلك سامحتك.. سامحتك؛ لأنك كنتَ –قبل

أن تولـدَ- لفتـاة أخـرى؛ فتـاة ربـما كانـت أجمـل منـي.. وكنـت لهـدف أسـمى، هـدف أكـبر مـن ألـف زواج.

قالـت الفتـاة وهـي مغمـورة بإشـعاع نـوراني انبثـق منهـا متوهجًـا كالجمـر، ثـم غـادرت الحجـرة مخترقـةً الجـدار كـما لـو أنهـا كائـن مـن طيـف غيبـي. وجـد أنـير وجهـه مغسـولاً بعـرق بـارد، ووجـد في فمـه عبـارة:

- لا! أنـت أيضًـا جميلـة.. جميلـة جـدًا، يـا زهـرة الجمـر! كل مـا في الأمـر أن هنـاك هدفًـا أسـمى كـما قلـتِ.

ظـل لحظـات طويلـة يفكـر في تلـك الحالـة الغريبـة التـي عرضـت لـه.. لم يسـتطع أن يتخيّـل أن يكـون مـا رآه كلـه مجـرد حلـم. أصابـه أرق شـديد، وشـعر بضيـق يخنـق أنفاسـه، وأحـسّ برغبـة للخـروج والتجـول قليـلاً في الجـوار. وحـين أصبـح خـارج الخـان، رأى ظلامًـا مطْبقًـا يغلّـف السـماء، ونجومًـا بديعـة تتـلألأ عـلى نحـوٍ يثـير كل أحاسـيس الجَـمال، الـذي يمكـن للإنسـان أن يحملـه في نفسـه. ورأى فرقـة مـن الحـرس الليـلي ترابـط غـير بعيـد في نقطـة مظلمـة، وفضَّـل التوجـه مـن خلـف الإسـطبل ليبحـث لنفسـه عـن مـكان معـزول يسـتطيع مـن خلالـه تأمـل النجـوم وحيـدًا، والاسـتغراق في ارتشـاف دفقاتهـا الطاقيـة العجيبـة، التـي تغـذي روحـه بموجـة هـادرة مـن العنفـوان. وبينـما كاد- في سـيره- يتجـاوز زاويـة الإسـطبل، اعترضـت طريقـه مجموعـة كلاب، أغرقـت في عـراك جماعـي شرس. ولم يكـن أمـام أنـير، لحمايـة نفسـه، إلا الالتجـاء إلى الإسـطبل ريثـما ينتهـي ذلـك العـراك. انـزوى داخـل الإسـطبل قـرب

البوابـة، وكان ينظـر، بفضـول لا سـبب لـه، حينًـا إلى الـكلاب المتصارعة، وحينـا آخـر إلى البغـال الواقـف بعضهـا، والبـارك بعضهـا. فجـأة أحـس بأصابـع حـادة تشـبه أشـواك مـذراة حديديـة غُـرزت في قفـاه، وبخنجـر يوضـع عـلى عنقـه:

- تحرك أمامي أيها اللص، ولا تتفوّه بكلمة!

حـاول أنـير أن يتلفـظ بـشيء، لكـن الشـخص الخشـن ركلـه بركبتـه حاثًـا إيـاه عـلى الصمـت. خـرج حـارس الإسـطبل، وأنـير في قبضتـه، غـير مبـالٍ بالـكلاب المتصارعـة التـي مـرّا وسـطها، ثـم توجـه إلى أول فرقـة حـرس.. قـال وهـو يدفـع أنـير بفظاظـة نحـو حـارس جامـد الهيئـة:

- أراد اختـلاس بضاعـة مـن خـان سـيتو، وكان لا بـد مـن أن أسـلّمه إليكم.

قال أحد أفراد الحرس بفرحة من استطاع أخيرًا اصطياد طريدة:

- لن يكون لعملنا جدوى من دون وجود أمثالك أيها الشقي.

أراد أنـير أن يـشرح للحـارس أنـه أيضًـا مقيـم في خـان سـيتو، وأن السـيد ماريـوس يعرفـه جيـدًا، وأنـه ليـس لصًّـا، لكـن الحـارس لكـزه برُمْحـه في مؤخرتـه لكـزةً آلَمَتْـه بشـدّة.. حينـذاك تبـيّن لـه أن الصمـت سـيجنّبه الكثـير مـن المتاعـب. وبعـد لحظـات، وجـد نفسـه مرميـا وسـط سـجن عطـن، تمـدد فيـه عـدد كبـير مـن الأشـخاص. وجـد في السـجن دفئًـا لاذعًـا عكْـسَ مـا توقـع، لكنـه كان دفئًـا عـلى أيّ حـال.

وشم رائحة عرق نتنة تفوح في المكان، ومع ذلك التفّ حول نفسه، وحاول أن ينام، غير أن شخيرًا لا يصدّق كان يكسر جُدران السجن، الذي لم يكن إلا حُفرة كبيرة حُفرت وسط سفح جبل، وكانت كل مقطوعة شخير قوية كفيلة بإسقاط بعض الغبار من أعلى الحُفرة. حاول أنير مرات ومرات أن ينام، لكنه لم يستطع. وحين داعب نوم طفيف أجفانه، شعر فجأة بفأر يعبر وجهه، وشعر بوقع أقدام ذلك الحيوان الصغير تترك أثرًا باردًا على خدّه وعينه وطرفٍ من شفته، وشعر بذلك الأثر يختلف عن كل شيء عرفه، وأحس به في حياته.

وفي موجز خمري،

حاول أن تطرح على المائدة أشياء ضئيلة رقيقة تعلمها أنها حسناؤك الفاتنة، أو حدق في عينيها بعينين من شغف. في وسع النظرات الصامتة أن تتحدث بعبارة مثيرة.

إعجاب وشك قاتل

وقفت في صباح الغد، وبعد طلوع الشمس بقليل، فتاة أمازيغية الملامح بالقرب من خان سيتو؛ فتاة أنيقة وجميلة تحمل في أنفاسها روح البحر وملْحه، وكانت تنظر بقلق إلى كل الاتجاهات، وقد لاحظ صاحب الخان السيد سيتو قلقها المتزايد، فذهب إليها، وبادرها بالقول:

- أيتها الآنسة، لعلك تنتظرين شخصًا أم إنك في حاجة إلى مساعدة؟

أجابت الفتاة بتلعثم واضح:

- هل عندكم هنا نزيل جديد؟. إنه شاب، وسيكون غريبًا أيضًا.

ضحك صاحب الخان، وقال بخفة روح:

- كل نـزلاء الخـان غربـاء! أعتقـد أنـك تقصديـن الشـاب البربـري أنـير.

- صحيح.. نعم هو ذاك.

أجابـت الفتـاة بحماسـة. لكـن جـواب السـيد سـيتو أغرقهـا في حـيرة غامضـة، ولم يكـن ممكنًـا، بالنسـبة إليهـا، هضـم حقيقـة تلـك الإجابـة بسـهولة:

- مـع الأسـف، لقـد توسـمت فيـه شـابًا رائعًـا؛ كـما يوحـي بذلـك مظهـره وكلامـه اللبـق، وكان يبـدو دَمِـث الخلـق، لكنـه انتهـز أول فرصـة ليقـدّم نفسـه عـلى نحـو مشـين جـدًا!

أصيبت الفتاة بدهشة، وسألت صاحب الخان:

- هل بَدَرَ منه ما يسيء يا سيدي؟

- لقـد حـاول اختـلاس بضاعـة مـن الإسـطبل، وكان هنـاك حـارس؛ فقبـض عليـه، وسـلمه مـن الفـور إلى الحـرس الليـلي، وأنـتِ تعرفـين، بـكل تأكيـد، عقـاب السـارق في مدينـة أرتـو.. كـما أن السـيد ماريـوس لـن يتسـاهل مـع جـرم كهـذا.

انخلـع قلـب الفتـاة، ووجـدت أن الموقـف بالـغ الخطـورة. كـما أنهـا لم تصـدّق أنْ يُقْـدِمَ أنـير عـلى تلـك الفِعْلـة الشـنيعة!. إنـه شـاب بـريء وخَـيِّر. لم تقتنـع الفتـاة بـكلام السـيد سـيتو صاحـب الخـان؛ فودعتـه ثـم مضـت، وهـي تفكـر في مـا يمكـن فعلـه لأجـل إنقـاذ

أنير، وقررت من الفور التوجه إلى بناية الرئيس، والحديث إلى السيد ماريوس في هذا الموضوع؛ لأنها تذكرت أنها سمعت أنير يقول لها، في ذلك اليوم، حين كانت برفقة زوجة والدها، إنه موجود مدةَ أسبوع بخان سيتو، ويمكنها أن تسأل عنه السيد ماريوس. ولكن كيف تسأل عنه السيد ماريوس؟ السيد ماريوس يكاد يكون الحاكم الحقيقي لأرتو. وما نوع العلاقة التي يمكن أن تجمع السيد ماريوس بشخص أمازيغي غريب عن المدينة؟!!

طرق أحد الحراس باب مكتب السيد ماريوس، واستأذن للدخول:

- سيدي، هناك فتاة تطلب مقابلتك.

وقف السيد ماريوس متأهِّبًا كعادته حين يواجه موقفًا غير مألوف، وقال:

- دَعها تدخل.

جالت تصورات كثيرة في ذهن السيد ماريوس. ظن أن إحداهنّ جاءت تشتكي لأجل شيء معيّن، ولكنْ هناك- لهذا الغرض- ديوان خاص! وهو، بصفته نائبًا للحاكم، غيرُ معنيّ بهذه الأمور الصغيرة. وظن أيضًا أن هذه الآنسة قد تكون ابنة أحد الأمناء أو الأعضاء في مجلس المدينة جاءت لتحمِل إليه رسالة من والدها، ولكن- في الأساس- لكي تجرّب، في الواقع، حظها عسى أن تحظى بإعجابه. غير أن السيد ماريوس لم

يستبعد إمكانية زيارة الأميرة سانيس العنيدة، ولكن لماذا؟! إنها الوحيدة التي تستطيع زيارته بهذه السهولة، إلّا أنها- في المقابل- لن تستأذن حارسًا أبدًا.. كانت ستقتحم عليه المكتب فارضة إرادتها على الحرس وعلى الجميع! وبينما السيد ماريوس غارق في هواجسه، صدمه هواء بحْري عليل، نفح وجهه بنسمات عذبة؛ فأحس وكأن ثيابه تهتزّ بفعل تلك النسمات الرطبة، وبدا له وكأن هذه الحسناء البربرية مرشوشة بأنفاس الإلهة فينوس. لقد رأى فتاة بارعة الجمال.. وجهُها مُضيء كالبدر، وشعرها منسدل حالم، وفمها مرسوم كوردة في بداية تفتحها.. أمازيغية الملامح: واسعة العينين، سوداء الشعر، نافرة الشفتين. اخترقت الفتاة روحَه من النظرة الأولى، وهي تتقدم نحوه بقوامها الرشيق، وبأردافها الممتلئة. ردّد السيد ماريوس، وهو يحملق في الفتاة:

- مرحبًا بك.

- شكرًا جزيلًا.

- أنا في خدمتك.

- شكرًا، جئتكَ لأمر مهمّ.

- تحت أمْرك.

- لماذا زَجَجْتَ بأنير في السجن؟!

قال السيد ماريوس باسمًا:

- تلك قصة قديمة، وقد طُوِيَتْ قبل أيام.. إنه الآن على وشك أن يسكن قصرًا.

- لعل أمورًا كثيرة تحْدُث في أرتو، دون علمك يا سيد ماريوس!

- مِثل ماذا أيتها الشابة اللطيفة؟

- تيرينا.. اسمي تيرينا.

- ماذا تقصدين يا تيرينا؟

- يقبع أنير حاليًا في السجن بتهمة محاولة سرقة بضاعة من إسطبل خان سيتو، وأنا على يقين بأنه لا يمكن أن يفكر في مثل هذا الأمر بالمَرَّة. أنير، يا سيد ماريوس، شخص ذكي ومتعلم، وهو ليس كأي شخص قد تتوقع منه مثل هذا الفعل. أنير، رغم أنه وفد حديثا على المدينة، إلا أنه على حظٍّ كبير من الفطنة لكي يفهم روح المدينة وقوانينها، ويستوعبها بسرعة، بل وإنّ بمقدوره أن يدخل أفكار الآخرين، ويسبر خبايا ما يجري فيها! إن أنير، يا سيد ماريوس، شخصية لا يمكنك تقدير مكانتها العالية إلا إذا عايشته أو عرفته جيدا، وقد تتاح لك مثل هذه الفرصة قريبا؛ لأن أنير لم يخلق ليكون مجرد شخص عادي.

فوجئ السيد ماريوس بهذا الكلام الذي أدخل إلى نفسه الروع!. إذًا سيكون أنير كما توقع.. شخصًا على حظ كبير من الخطورة! وإذا كان قد ترك وراءه العيون على مر اليوم، وأنه قد أُبلغ ليلة أمس بوجوده في السجن، وعيّن له شبه قصر

ليقيم فيه؛ فهذا كله لكي يبقى قريبا منه فقط، ولكي تكون خطوات هذا الغريب البربري على مرأى من العيون التي بثها حوله. ولكن قناعته الآن تتغير بالكامل.. هذا الشخص يجب أن يموت، وإلاّ تسبب في موت أشياء كثيرة في حياة ماريوس وحياة المدينة، وربما شكّل خطورة حقيقية على الأميرة سانيس، ووالدِها الحاكم أوروليوس سيبيو!

- أعلم أن أنير شخص لا يمكن أن تطاله الشكوك. خطأ ما سيكون قد حدث! سأحضره حالًا من السجن.

قال السيد ماريوس، ونادي بأعلى صوته:

- أيها الحارس، تعالَ.

حضر الحارس راكضًا، فأمره السيد ماريوس بإحضار أنير من السجن فورًا، ومن دون تأخير. ثم طلب إلى الفتاة أن تجلس على كرسي، في انتظار حضور أنير. حاول السيد ماريوس أن يستفسر من الفتاة، على نحو غير مباشر، عن نوعية العلاقة التي تربطها بأنير، ولماذا هي مهتمة بهذا الشاب كل ذلك الاهتمام البارز. لكن تيرينا كانت فتاة يَقِظة؛ فلم تسرّب أي معلومة قد تسيء إلى أنير من حيث لا تدري، وقد فعلت ذلك بحكمة كبيرة، وبلباقة ومهارة متناهيتين. وبفضل ذلك، تواصل إعجاب السيد ماريوس بها، وتساءل برهبة:

- هل ستُنسيني هذه الفتاة البربرية الرائعة حبي الدائم لسانيس، أم إنها ستعمّق مأساتي أكثر؟

وفجـأة سـمع ضجيجًـا في الخـارج، وجلبـة، وكلـمات اسـتُعملت فيهـا «أيهـا اللـص القـذر»؛ فتبـين للسـيد ماريـوس أن جُنْـدَه يقـودون أنـير بالفظاظـة المعهـودة، فخاطبهـم بحـدة:

- أدخلوه باحترام.

دخـل أنـير في حالـة سـيئة جـدًا، وقـدِ التصـق بِشَـعره بعـض القـش الملـوث بطـين أسـود نتـن، وتعفّـرت ملابسـه بوسـخ وتـراب ممـزوج بقـذارة تبعـث عطنًـا نافـذًا. لم ينظـر أنـير إلى الفتـاة، لكنهـا اقتحمـت بـصره عنـوة، وفاضـت كزبـد بحـر مالـح في روحـه. لم يَـدْرِ العلاقـة بـين حضورهـا وبـين مثولـه بـين يـدي السـيد ماريـوس، الـذي سـيكون غاضبًـا كـما توقـع، وسـيطبّق في حقـه عقوبـات قاسـية! هنـاك مواجهـة خفيـة بينهـما، وهـي ليسـت وليـدة اليـوم، بـل تعـود إلى أول لقـاء جـرى بينهـما. هـل تكـون زوجتـه الجديـدة؟. هـل تكـون خادمتـه؟. هـل تكـون...؟. لم يسـتطع الوصـول إلى يقـين، ولكنـه حافـظ طـوال الوقـت عـلى تجاهلـه التـام للفتـاة. اقـترب أنـير بخطواتـه الواثقـة، كـما العـادة، وكان السـيد ماريـوس ينظـر نحـوه بمزيـج فريـد مـن الحـيرة والشـك، والحقـد أيضـا! لم يسـتطع فهْـم كل هـذه الأحـداث التـي يعيشـها أنـير، ولم يطمئـنّ تمامًـا إلى بـراءة الشـاب، وكان شـكُّه في بـراءة الشـاب لا يتعلـق بقصـة محاولتـه سرقـة بضاعـة مـا مـن خـان سـيتو؛ فالسـيد ماريـوس يعـرف أكثـر مـن أي شـخص آخـر أن أنـير أذكـى -كـما قالـت الفتـاة البربريـة الحسـناء- مـن أن يجعـل مـن نفسـه سـارق إسـطبلات.

- كيف حالك؟.. أرجو ألاّ تكون قد عانيتَ كثيرًا في السجن.

نظر أنير إلى السيد ماريوس، وقال بصدق:

- لقد تعودت قسوة الحياة، وتعودت أكثر على مفاجآتها.. حياتي لم تكن سهلة، وبالتالي أعتقد أن شخصيتي قد تكيفت مع الظروف كلها، وسأستطيع تحمل دخول السجن في أرتو، من دون سبب معقول، مرة كل أسبوع طوال خمس سنوات على الأقل.. هذا إذا لم أُقتل غيلة في أي لحظة.

وردد السيد ماريوس في نفسه: قد يحدث ذلك أيها البربري، وقد تموت بالفعل. لديك فراسة الكلاب أيها البربري!. ثم أضافَ مخاطبا أنير بهدوء وحكمة أصبحت ملازمة لطبعه:

- هذا جيد أيها الشاب.. لم أصدّق أنك حاولت سرقة بضاعة من خان سيتو!

- أعرف أنك أكثر فطنة من أن تُصَدِّقَ فرية سخيفة كهذه، ولكنني سأحدثك بالتفصيل عن كل الذي جرى.

سرد أنير على مسامع السيد ماريوس والفتاة، التي لم يلتفت إليها منذ دخوله، القصة كاملة.. بدءًا بالحلم الذي لم يفصح عن تفاصيله؛ الحلم الذي أيقظه من النوم، ثم اللحظة التي ألقى فيها الحرس به إلى السجن... صدّقه السيد ماريوس كما هو متوقع، واقتنع تمامًا بصحة الرواية. لكن أنير أراد أن يبرئ ذمته عند السيد سيتو.. لا يحب أن يُوصَم بتهمة سرقة لم يَنْوِ

اقترافها قط. ولذلك، طمأنه السيد ماريوس إلى أنه سيرافقه بعد قليل إلى خان سيتو لشرح الموقف، وتسوية الوضع. وبعد ذلك، التفت السيد ماريوس باسماً إلى الفتاة، وخاطب أنير بلهجة مُحَمَّلَة بمكر خفي:

- هذه الشابة اللطيفة هي التي نبّهتنا إلى وجودك في السجن، ومن دونها لم يكن من السهل تكهُّن مكان وجودك، إلا بعد استجواب كل حراس الليل الذين سيكونون ربع يقظين؛ وبالتالي سنأخذ منهم، في أحسن الأحوال، ربع معلومة. التفت أنير لأول مرة إلى الفتاة، وشعر بوخز حالم يدغدغ حواسه الداخلية.. إنها تيرينا!! ياه! كم اشتاقَ إليها.. كم تمنى أن يراها في وقت سكنه اعتقاد رهيب بأنه لن يراها مرة أخرى أبدا، ولكنه- في المقابل- تمنى لو رآها في ظرْفٍ أفضل. وجدها مختلفة تمامًا عن الفتاة التي عرفها في منزل بيكاو؛ فهي الآن ترتدي حُلة حريرية باذخة، وتتزين بأساور ذهبية ثمينة، وتغرز في شعرها المعقوص وردة حمراء لا بد أنها تفتحت صباح هذا اليوم. شعرت تيرينا، من جهتها، بإحساس غريب، وهي تغرس عينيها في عيني أنير. بدا لها شخصًا قويًا وصامدًا، وبروح مليئة بالطموح والعنفوان. تنبّه السيد ماريوس إلى الموقف المَشُوب بعاطفة خفية تسود بين الاثنين. خاطبهما قائلاً بلباقة يُجيدها ببراعة:

- لدى شغل بسيط.. سأنجزه، وبعد ذلك نذهب جميعًا إلى خان سيتو .

وبينما كان السيد ماريوس يهمّ بالمغادَرَة، استدرك، والتفت فجأة إلى الوراء ليقول شيئًا، غير أنه رأى ثوب أنير ملطخًا بدم أحمر طازج في مؤخرته، فقال بهلع مصطَنَع:

- مَنْ فعل بك هذا؟! هل تعرضت إلى اعتداء جماعي من قِبَل نُزَلاء السجن؟! يا للفظاعة!!

ابتسم أنير، وردّ بهدوء:

- لا، يا سيد ماريوس.. لم يصل الأمر إلى هذا الحد. لقد تعرضت أمس للكزة جارحة في مؤخرتي من رمح أحد حُرّاسك، ولقد انفتح الجرح هذا الصباح، بينما كنت أُجَرْجَرُ إليك كبهيمة!

ردّ السيد ماريوس باستنكار مصطنع:

- هل يكون حرس المدينة بهذه الوحشية؟!

فأجاب أنير بنوع من الدُّعابة الساخرة:

- يجب أن تكون فخورًا يا سيد ماريوس.. لقد أحسنت تدريب حَرَسك.

قالت تيرينا بحس الأنثى الرقيق الذي يسكنها بتدفق لا ينتهي:

- سأنظف جرح أنير إذا توفرت لي بعض الزيوت والأعشاب النباتية.

فتح السيد ماريوس صندوقًا صغيرًا أخرج منه عبوة صغيرة خضراء، ومنديلاً نظيفًا، ووعاء ماء. ثم وضع كل الأغراض في مُتناوَل يد تيرينا قائلاً:

- لدينا مرْهَم خاصّ بالجروح، ومناديل نظيفة أيضًا.. تَصَرَّفي.

- شكرًا.

قالت تيرينا، وهي تشيّع السيد ماريوس بنظرة غامضة.

جرح لذيذ

عاودت النظر إلى أنير. بدت أكثر تعطشًا إلى النظر إليه، وشعرت بأن في نظراته اشتياقًا مماثِلاً، وأسئلة حائرة معلّقة على لسانه.

خاطبته على نحو بدا لأنير مفاجئًا:

- اكشفْ جُرْحك.

تردد أنير في البداية، ولكنه أذعن - في الأخير - لأمر تيرينا، وكان الجرح في ردفه الأيسر ينزّ، وتحيط به هالة داكنة من دم متجلط. مسحت تيرينا الجرح بالماء، ثم أخذت تغطيه بالمرهم الذي زودها به السيد ماريوس، وشمّت فيه الكثير من الأعشاب التي كان يستعملها والدها بيكاو في علاج الجروح الآدمية، وجروح الماشية.

- أنير، لعلك قد بحثت عني في حيّ الأمازيغ، حين اختفيت عنك فجأة في ذلك اليوم الذي وصلنا فيه إلى أعلى الجبل، وأنا أقدّر المجهود الذي لا بد أنك قمت به لأجلي. لم تجدني! وعليَّ الآن أن أشرح لك السبب.

- آه!. أرجوك تيرينا، المرهم يلهب جرحي.

لم تتفاعل تيرينا مع رجاء أنير، وأضافت:

- لعلك تذكر بأنني قررت أن أتخلى عن غريزة الأنثى في أحاسيسي، وكنت أتصور بأنني استطعت مقاومة أي اندفاع جنسي قد يدهمني، ولكن حصل شبه انقلاب في حياتي حين غسلت جسدك العاري في منزلنا.

- مؤلم.. مؤلم جدًا ما أشعر به.

واصلت تيرينا غير مبالية:

- وكنتَ مريضًا آنذاك، ومع ذلك اسْتُفِزَّتْ غرائزي الجنسية على نحو مبهم، وكادت تتفجر تلك الغرائز حين جئتني وأنا عارية قرب النهر الصغير، وحين لمستني، وجثوت على ركبتيك لتنظر إلى أسفلي.

- أرجوك تيرينا.. الجرح يؤلمني!

لم تبالِ تيرينا! وواصلت كلامها:

- وحين كنا نصعد الجبل، لمحْتُ شخصًا أمازيغيا يستحمّ عاريًا في الزقاق، فذكّرني بجسدك حين حممتك.

- ارحميني يا تيرينا.. إنني أتألم.

تجاهلت تيرينا كلام أنير؛ فأردفت قائلة:

- لم أتحمل الموقف؛ فوجدتني مرعوبة من المشهد.. هربت بكل قواي، ودخلت إلى أزقة ضيقة ووعرة، وأنا أنزل حي جبل

الأمازيغ، قبل أن أجد نفسي وسط مدينة أرتو. واصلت الجري إلى أن دخلت، دون وعي، منزل زوجة أبي السابقة كيسيا، وهي المرأة التي رأيتَني معها في وسط المدينة، وهي امرأة رومانية صعبة المراس، وقد اختلقتُ قصة غريبة، وقلت لها إن والدي أوصى بي قافلة كانت متوجهة إلى أرتو، وإنه كان مريضًا جدًا، ومن المفترَض أن يكون قد فارق الحياة بمجرد ابتعاد القافلة، واختفائها وسط غبش الغروب. أعْذِرْني! لم أكن أودّ أن تسير الأمور على هذا النحو!.

أنزل أنير ثوبه، وغطى مؤخرته، وقال وكأنه يلفظ آخر جهده:

- يا لها من قصة! ولكن- الحمد لله- أنتِ الآن بخير.

ردت تيرينا بصوت فيه غصة أسى لا ينتهي:

- لا.. لا يا أنير، أنا لست بخير!.

- أراكِ في أحسن حال، وترتدين ثياب الأميرات.

- زوجة أبي السابقة ثرية جدًا، وهي امرأة عاقر.. ورثتْ من زوجها الروماني الذي تزوجته بعد انفصالها عن أبي؛ زوجِها الذي توفي إثر رفسة من حصانه كسّرت عنقه في الإسطبل، أموالًا طائلة، وضيعاتٍ كبيرة جدًا. ولكنها تحتجزني في المنزل.. لا تريدني أن أتجول في المدينة، وإنْ حدث نادرًا، فبرُفقتها. وهي تخاف أن تقع عليَّ عين شاب من أبناء الأمناء وأعضاء مجلس المدينة؛ فيطلبني زوجًا له، وفي تلك الحالة لن تستطيع الرفض طبعًا. وأنا كما تعلم تربّيت حرة في تصرفاتي، وفي التعبير عن رغباتي، ولا أجد حرجًا في قول أو فعل

أي شيء لا يضير أحدًا، على حين تريدني هي خادمة، ومسلّية لها في منزلها.. مجرد بربرية لا تنفع إلا لذلك.

- كيف يمكنني أن أخرجك من المأزق الذي تعيشين فيه يا تيرينا؟! لقد أنقذت حياتي، وفعلت أشياء كثيرة لأجلي في عدة مناسبات، وأشعر الآن بأنني مَدين لكِ.

- الأشخاصُ الذين يحبون بعضهم بعضًا لا يتعاملون مع الواجب بهذا المنطق.

- رغم ذلك، أرغب في مساعدتك؛ وبذلك سأحرر نفسي أيضًا.. هي معادلة مفيدة لكلينا.. سيكون تحت تصرفي، بعد يومين، منزلٌ من طابقين، وهو منزل جميل جدًا، ومؤثث بأحدث الأثاث.. إذا شئتِ اتخذت لنفسك طابقًا مستقلًا. أنا الآن أشتغل مصمِّم حدادة، وهذا الشغل سيُدرّ عليَّ مالًا وفيرًا، وأطمح إلى ما هو أكثر في المستقبل القريب.

- لكنني لا أحب أن أكون عالة على أحد.

- إذًا، لنعملْ معًا.. ستكونين خير مساعد لي، وأنا أعلم المهارات التي تمتلكينها.

استأذن، في تلك اللحظة، السيد ماريوس، ودخل بخطواته الواثقة. شم من الفور رائحة توادُد جميل تتناثر في أجواء القاعة، ووجد مشاعر متوهجة تفيض لتكتسح كل شيء. أحس من ناحيته بغيرة مبطّنة لم تعلن عن نفسها بالقوة المُفترَضة، ولكنها غيرة كانت تختفي في جزء ما من أعماقه البعيدة:

– لنذهب إلى خان سيتو.. فلنسوّ وضعك في أسرع وقت. لا تنس يا أنير.. ينتظرك عمل كثير في ورشة الحدادة.

– تيرينا ماهرة في التلوين، وتحسن مزج الصباغة على نحو مدهش؛ ولذا ستكون خير من سيُساعدني في شغلي بورشة كاجي.

ابتسم السيد ماريوس، وقال بدهاء:

– حسنًا! هذا جيد.. يمكنها أن تشتغل في ظروف أفضل.. هنا مثلًا في قاعة مريحة. ويمكنك مواكبة عملها من حين لآخر من خلال زيارات يومية متكررة.

رد أنير بهدوء، قاطعًا أي محاولة من تيرينا للاعتراض:

– اطمئن يا سيد ماريوس.. الآنسة تيرينا تحتاج فقط إلى الألوان وأدوات الصباغة والتصميمات المصوّرة على الورق، ولها من المهارة والصبر ما يُغْنيها عني وعن سواي.

ردد السيد ماريوس في نفسه بانتشاء عبارة أنير: «الآنسة تيرينا». لاكَ العبارة في نفسه، كما لو أنه يلوك فاكهة تين مجفّف، فيتسرب مذاقها الحلو إلى نفسه المتحفزة: «إذًا هي ليست زوجًا له ولا لغيره!. هذا جيد.. هذا جيد.. أرغب في هذه البربرية.. أريدها في قصري».

نادى السيد ماريوس أحد حراسه المُخْلصين، وهمس له بعيدا عن سمع أنير وتيرينا:

– هل ترى ذلك الشاب البربري الذي يقف جنبَ تلك الفتاة

الحسناء؟. أودّ أن أسمع عنه أخبارًا طيبة في القريب، ولا أريد أن أشم أثرًا لرائحة جثته في المدينة أو في الجوار... لم أقل لك شيئًا أيها الحارس المخلص، ولم تسمع شيئًا مني.. هل تفهمني؟ أعرف مهارتك في إزهاق الأرواح. لن يُكشف سرُّك! وفي كل الأحوال، سأعرف كيف أجعلك في أمان.

إنها تحب الحقول الخصبة،

لكنها ليست فلاّحة وقلبها ليس غائبًا عن دروب الغرام.

أفولاي والأسرة الرومانية

نزل السيد أفولاي من فوق التل، فرأى قرية تناثرت أكواخها بين مزارع ملونة صغيرة، وشعر بإجهاد رحلة مضنية، وتدفق عرق يابس من جبينه امتزج بالغُبار، وتحول وجهه إلى شيء مبهم غير واضح المعالم. وضع كيسه على الأرض، ثم جلس فوق صخرة، وأخذ يسترجع أنفاسه بوتيرة سريعة. تأمل الغبار الرمادي الخفيف الذي يغطي سماء القرية، ورأى أشجارًا صغيرة تنبت في أرض صفراء، وبعضَ البهائم ترعى متفرقة بين الأكواخ الطينية الصغيرة.

أخرج أيقونة ثفوشت من كيسه الجلدي، وصادف أن كان رأس الأيقونة يتوجه نحو كوخ على أطراف القرية، فقرر السيد أفولاي التوجه نحو ذلك الكوخ البسيط. كانت شمس المساء قد أخذت تفقد شيئًا فشيئًا حرارة بداية الصيف الدافئة. ورأى طيورًا

حمراء تحلق في السماء، وسمع حفيف نباتات جافة وأزيز نحل وثغاء أغنام يأتي من بعيد. نهض بخمول مثقل بالتعب من فوق الصخرة، ووضع الكيس فوق كتفه، وأخذ يمشي مشية عرجاء متهالكة باتجاه الكوخ المنعزل قليلاً عن القرية. لم ير إلا قلة قليلة من الناس، وكانوا بعيدين، وبدا له أنهم إما ذاهبون إلى أشغالهم، وإما أنهوا أشغالهم. ورأى أطفالًا يرْعون ماعزًا وغنماً. ولم يفهم لماذا يتوجه نحو ذلك الكوخ بالذات! غير أن رغبة قوية كانت تدفعه دفعًا إليه، من غيرِ شعور بالتوجس أو محاولة جادة لاستشراف ماذا سيصادف في الكوخ، وأي نوعية من الناس سيلتقي هناك. ظل، منذ أن دفن مساعده ورفيقه الدائم أسافو في وادي كيل، واثقًا بحَدْسه. أخرج شيئًا من الملح فشمّه، وشمّ معه روح أسافو المفعمة بأريج حياة تندفع من مكان عميق جدًا، لكنه مكان شعر به السيد أفولاي قريبًا، وكأنه ينبعث من داخله تمامًا. تذكَّر إخلاص الشاب، وتفانيَه في المهامّ التي أوكلت إليه دائماً، وموتَه المفجع، وقبرَ الملح الذي دفن فيه. اقترب السيد أفولاي من الكوخ؛ فهُرع بعض الدجاج هربًا، وأطلق كلب هزيل نباحًا متكاسلاً، قبل أن ينكمش من جديد متكوِّرًا تحت شجرة خرّوب نصف ميتة. لم تعد خطوات الكهل المجهد أفولاي تُسْعفه.. أصبح يجرّ رجليه جرًّا، حتى إنه حفر بخفيه السميكين خطًّا متواصلاً على الأرض طيلة المسافة التي قطعها، بين الصخرة والكوخ، قبل أن يجد نفسه، من دون وعي، أمام باب خشبي عتيق. لم يطرق الباب.. دفعه، وأدخل جسمه المنهك إلى الكوخ، فرأى باب حجرة على اليمين، وآخرَ

على اليِسار بابُه مفتوح، وتشتتت من أمامه كتاكيت صغيرة، وفرّ قطّ إلى زاوية الكوخ متسلقًا بمهارة الجدار الواطئ ليختفي فوق السطح، وطارحمام من كل جهة، وشاهد قطع لحم يابسة معلقة على خيط من قنب. اقتحم السيد أفولاي الحجرة التي كان بابها مفتوحًا؛ فرأى، كما لو أنه في حلم عميق، رجلاً كهلاً نحيفًا، وامرأة في متوسط العمر، وفتاة يافعة، يجلسون حول مائدة فوقَها أكل متواضِع. أخذ السيد أفولاي جرّة الماء من فوق المائدة، وعبّ منها طويلاً من دون توقف، قبل أن يُحطّها من جديد فوق المائدة الخشبية الرديئة المصنوعة من خشب زان غير مصقول. وتدفقت قطرات ماء من أطراف فمه؛ فسالت على وجهه وعنقه، ولطّخت بعض ملابس صدره. نظر حوله بعيون مُوغِلة في اللامبالاة. رأى فِراشًا قريبًا مُعدًا للجلوس. وضع كيسه الجلدي على الأرض؛ فتوسده برأسه، وأحْكم قبضة يده عليه، وما لبث أن جرفه النوم، وتصاعد من الفور شخير هادئ، انساب بسلاسة، جارًّا تعب أيام طويلة، قضاها في سير منهك، وسط غابات موحشة وصَحارٍ خالية وتضاريسَ وعْرة. حلم السيد أفولاي بالطفل أسافو، وهو مُكِبٌّ بجدية وعزم على نسخ مخطوطات، ورآه يجري وراء فراشات بيضاء، اختفت مع الغروب، وواصل أسافو الجري في الظلام؛ ظلام حالك ومهيب، إلى أنْ غاب- في النهاية- عن أنظار السيد أفولاي؛ فشعر بأسى، وسالت دموعه على وجهه المتهدل، ثم لمح ساريل يضحك ساخرًا مسْندًا ظهره إلى شجرة يابسة، وفي يده جرّة خمر، وخلفه عشرة بغال محمّلة بأكياس ملح بلدة دريو. تشنجت عضلات

وجنتـي وجـه أفـولاي، وأصـدر أنينًـا خافتًـا. وظـل أفـراد الأسرة الرومانيـة، الذيـن يسـكنون الكـوخ، ينظـرون إليـه بحَـيْرةٍ واسـتغراب. لفَّـت الفتـاة درايـما المراهقـة دهشـة ممزوجـة بخـوف وفـرح خفيـيْن، وتوجّـس الأب روسـاب، ولكنـه سرعـان مـا قـرأ في وجـه الرجـل البربـري الغريـب، الـذي اقتحـم عليهـم الكـوخ، علامـات خـير تنبُـع مـن أعـماق بعيـدة تتوهّـج كالنـور مـن نفحـات روحـه، وشـعر بـأن هـذا الرجـل لـن يكـون عاديًـا. عـلى حـين التصقـت السـيدة صيـكان بزوجها، ودخلهـا روع، ورأت أشـياء عجيبـة تتراقـص عـلى وجهـه. حاولـت أن تفهـم تلـك الإشـارات الغامضـة، إلا أنهـا اسـتعصى عليهـا- في الأخـير- تحديـد شـعورها حيـال الرجـل؛ فهـو مـن ناحيـة يبـدو فقـيرًا ومنهـكًا، ومـن ناحيـة أخـرى يشـعّ منـه وهـج عجيـب لم تسـتطع تفسـيره!

انتظـر أفـراد الأسرة اسـتيقاظ السـيد أفـولاي طـوال المسـاء، وحتـى إلى سـاعة متأخـرة مـن الليـل، لكنـه لم يسـتيقظ مـن النـوم! وضـع عليـه روسـاب ربُّ الأسرة غطـاء بسـيطًا، ثـم سـد البـاب برفـق، وانضـمّ إلى زوجـه وابنتـه لينامـا في الحُجْـرة الثانيـة. ولم يسـتطع روسـاب النـوم؛ فـما فتـئ ينتبـه لأي حركـة أو صـوت يحـدث في الكـوخ أو خارجـه. وشـعر برهبـة حيـال الرجـل، ولم تكـن تلـك الرهبـة دليـل خـوف مـن السـيد أفـولاي بقـدر مـا كانـت تمثـل روعًـا مـن شـخصه المهيـب، الـذي تجـلى في شـكل قـوة داخليـة عجيبـة أحسّـها تنبعـث مـن أعـماق الكهـل. ولم تنـم الفتـاة درايـما أيضًـا؛ فقـد ظلـت مشـدودة إلى السـيد أفـولاي، ورأت في أعماقـه البعيـدة صـورة شـابّ متحفـز وبهـيّ، وتصورتـه مزيجًـا مـن ملامـح وخصـال كل مـن أنـير وأسـافو. وواصلـت بقيـة الليـل في

حلـم يقظـة دافـئ وطويـل، قادهـا إلى شـاب مسـتحيل، ولكنـه باهـر أشـبع فيهـا الرغبـة واللـذة في ليلـة اسـتثنائية، نقلتهـا فجـأةً مـن فتـاة عـلى خـط المراهقـة إلى فتـاة ناضجـة وواعيـة بخصائـص أنوثتهـا الناشـئة، وإلى ذكـورة تتخيّلهـا ولم تحتـكّ بهـا بَعْـد. جـرف النـوم سريعًـا زوجـة روسـاب؛ السـيدة صيـكان، تاركـة مصيرهـا في يـد إلهـة فينـوس، ونامـت بهـدوء دون أن تشـغل بالهـا، كالمعتـاد، بـأي شيء.

اسـتيقظ السـيد أفـولاي في وقـت متأخـر مـن صبـاح الغـد. فـرك عينيـه، وشـعر فجـأة بغرابـة المـكان الـذي يوجـد فيـه، إلا أنـه سرعـان مـا اسـتعاد أحـداث أمـس. اسـتغرب عـدم وجـود أشـخاص إلى جنبـه في الحجـرة، ولكنـه رأى ضـوء النهـار يتـسرب مـن الكـوة، ومـن البـاب المـوارب.. رأى صحـن طعـام مغطـى بقـماش، ووضـع عـلى المائـدة التـي أصبحـت قريبـة منـه، ومنشـفة، وجـرّة مـاء. غسـل رجليـه ويديـه ووجهـه، ثـم جفّـف نفسـه مـن المـاء، وجلـس صامتًـا أمـام المائـدة. جلـس طويـلًا مـن دون أن يـأتي بـأي حركـة، وكان يصغـي فقـط إلى أعماقـه البعيـدة، وتذكـر أشـياء كثـيرة، وسـمع حركـة خافتـة في الكـوخ، وأدرك أن سـكان الكـوخ موجـودون، لكـن ذلـك لم يغـيرّ في طبيعـة نفسـه شـيئًا. وسرعـان مـا رفـع الغطـاء عـن الصحـن، فوجـد حليبًـا وخبـزًا وعسـلًا. أكل بشـهية، اسـتلذ الطعـام. وفي النهايـة، غسـل يديـه، وسـوّى رداءه، وتفقـد كيسـه والحاجيـات التـي كانـت بداخلـه. وتحسّـس أيقونـة الشـمس ثفوشـت؛ فوجدهـا دافئـة، وعلـم مـن ذلـك أن اليـوم سـيكون معتـدل الحـرارة.

خـرج السـيد أفـولاي مـن الحجـرة محتضِنًـا كيسَـه، فقابلتـه شـمس ضحـى فاجـأت بـصره، ورأى من خلف أشـعة الشـمس الأب روسـاب، والأم صيـكان، والفتـاة درايـما يقفـون جنبًـا إلى جنـب، يحتويهـم صمـت بـارد مَشُـوب بحـيرة واسـتغراب. كان ظـل الجـدار يغطيهـم.. لقـد بَـدَوا كنُصُـبِ آلهـة مـن حجـر. لم ينظـر إليهـم السـيد أفـولاي طويـلاً. توجـه إلى خيـط القنـب، وتأمـل اللحـم المجفـف، وعـرف أنـه لحـم ماعـز، وشـمّ رائحـة الملـح، وتبـينّ لـه أن اللحـم المجفـف مُـلِّـحَ بملـح قليـل الجـودة. ثـم نظـر إلى جـدران الكـوخ؛ فأيقـن أن البنـاء غـير متقـن، وأن التبـن الـذي تـم عجْنـه مـع الطـين كان قليـلاً، ورأى تشـققات، وخمّـن أن المطـر يخـرّب سـطح الكـوخ تدريجيًـا، وأن المـاء- لا شـك- سـيجد ثغـرًا ينفـذ منـه إلى داخـل الحجـرات. وتصـور أن رب الأسرة، بمسـاعدة زوجـه وابنتـه، ربـما يجـدّدون تغطيـة السـطح بالطـين المخلـوط بالتبـن مـع بدايـة كل فصـل شـتاء.

وقـف عنـد البـاب الخارجـي. وقبـل أن يهـمّ بالمغـادرة، نظـر إلى أفـراد الأسرة.. حينـذاك سـارع روسـاب إلى فتـح البـاب. خـرج السـيد أفـولاي، ورأى حمـارًا مربوطًـا إلى جـذع شـجرة الخرّوب نصـف الميتـة. خطـا بضـع خطـوات في سـاحة الكـوخ. خرجـت الأم صيـكان، وتبعتهـا البنـت درايـما. وقـف السـيد أفـولاي مـن جديـد، ونظـر إلى أفـراد الأسرة الصامتـين؛ فأخـرج مـن كيسـه قليـلاً مـن الملـح نثـرهُ عـلى عتبـة بـاب الكـوخ، ووضـع يـده عـلى رأس درايـما، وقـال في نفسـه مـن دون أن يصـدر صوتًـا، لكـن شـفتيه كانتـا تتحـركان:

- لتباركك الإلهة فينوس، أيتها الفتاة الرومانية الخيّرة.

سارع رب الأسرة روساب، ووضع كيسًا به خبز وماء وفواكه جافة، على الحمار، ثم قدم الحمار إلى السيد أفولاي. تسلّم السيد أفولاي الحمار من روساب، وأخرج قطعتي نقد ذهبيتين، ومنحهما لروساب. أراد روساب أن يرفض القطعتين اللتين تعادل قيمتهما أكثر من عشرين حمارًا، لكنه، حين اصطدم بنظرات حانية وعميقة من السيد أفولاي، لم يستطع التفوُّه بكلمة، بل لم يستطع تحريك يده. تجمّدت أصابعه على القطعتين الذهبيتين، واجتاحته رهبة، وقرأ شيئًا غامضًا في نفس الكهل الأعرج الذي يشعّ منه نور عجيب. ودّعهم السيد أفولاي بنظرة امتنان صادق، شعر بأنه قد وصل فورًا إلى أفراد الأسرة الذين تهللت وجوههم، وارتسمت ابتسامات بهيجة على ملامح وجه السيدة صيكان المنكمش، الذي بدأت تهاجمه التجاعيد بشراهة مخيفة. ورأى وجه روساب يشعّ بفرح تقافز من أخاديد مرسومة بعمق في وجهه القديم، ولاحظ حيرة وشوقًا عجيبًا إلى شيء مبْهَم يشْرق من وجه الفتاة درايما، التي بدت وكأنها اخترقت جدار الزمان والمكان، وطارت إلى آفاق بعيدة جدًا.

امتطى السيد أفولاي الحمار، وتأمل المحيط من حوله؛ فرأى المشاهد نفسَها التي رآها أمسِ، ولكنها بدت له اليوم مغسولة بأشعة شمس ضحى دافئة، ومكفّنة بهدوء غريب غير متوقع. سار الحمار تلقائيًا، وأخذ مسارًا بآلية عجيبة، وفي الأخير ولج مسلكًا بدا أنه مسلك يعرف حركة سير دؤوبة. أخرج السيد أفولاي أيقونة ثفوشت، ولاحظ - مرة أخرى - أن رأسها يتجه إلى الوجهة التي

يسير نحوها الحمار. ولاحظ، خلال الطريق المستقيم الطويل، بغالًا تقبل من الجهة الأخرى، وبغالًا تأتي من الخلف وتتجاوزه بسرعة، ومشاة يصادفهم محمّلين ببعض الحاجيات، وعربات تنقل بضائعَ في اتجاهٍ لم يكن يعرفه، وليست لديه أدنى فكرة عنه، ولكنّ إحساسًا مَا كان يجعله يدرك أنه في الطريق الصحيح.

استرعى انتباه السيد أفولاي، وهو ينزل من أحد المنحدرات على حماره، عاملٌ أمازيغي في حوالي الأربعين من عمره، كان شديد النحافة، تظهر على وجهه الكالح علامات بؤس دائم.. رآه ينقل أحجارًا ثقيلة على ظهره المقوّس، ويوصلها إلى بنَّاء كان منهمكًا في تشييد بناية ليست بعيدة على طرف الطريق. أوقف السيد أفولاي حماره، وظلّ يتأمل الرجل الذي كان ينقل الحجر بمشقة واضحة. ولما أصبح العامل قريبًا من السيد أفولاي، أشار إليه بالاقتراب؛ فاقترب العامل تتلاحق أنفاسُه، وينزّ من جبينه وعنقه عرق بدا- للوهلة الأولى- وكأنه زيت ممزوج بغبار؛ فخاطبه باللغة الأمازيغية:

- مرحبًا بك أيّها العامل الطيب.

- مرحبا سيدي، هل أضعتَ الطريق؟

- لا.. استرعت انتباهي هذه البناية الجميلة، ورأيتك تحمل حجارة ثقيلة جدًا على ظهرك.. لا بد أن مثل هذا الشغل متعبٌ جدًا.

- هو كذلك يا سيدي، ولكنني لا أملك مصدرًا بديلًا للرزق.

- كيف؟!

- منذ زمن طويل، وأنا أشتغل مع هذا البنَّاء الروماني مقابل الغذاء.. وهو غذاء لا يكاد يملأ معدتي!.

- ألا يدفع لك أجْرَك كاملًا؟

- لا.. لا يدفع لي غير غذائي.

- لماذا لا تبحث عن عمل آخر؟

- لا أعتقد أن بمقدوري أن أجد عملًا أفضل من هذا! إنني، على الأقل، مع هذا البنَّاء، أضْمَن بعضَ قوت يومي.

- سأروي لك قصة أيها العامل المجتهد، وأرجو أن تفعل بها شيئًا ينفعك.. يُحكَى أن حَلْزُونة، أو ما يشبهها، كانت تعيش على غصن دفلى، ومع أنّ ما كانت تتغذى به كان مُشبَعًا بمرارة تكاد لا تحتمل، فإنها صبرت على وضْعها خوفًا من أن تفقد قُوت يومها، وتصبح- في الأخير- تائهة في الخلاء بلا عشب تتغذى به؛ فتموت جوعًا. لكن- لحسن حظها- جاءت ريح عاصفة، اقتلعتها من فوق شجرة الدفلى؛ لتجدَ نفسَها مرمية وسط جنة من المُروج الخضراء اليانعة.. ولأول مرة تذوّقت غذاءً جيدًا، وأحست بطعم الحياة الحقيقية. أنتَ، أيها العامل، لست في حاجة إلى عاصفة ريح قوية لتمنعك من العمل مع هذا البنَّاء الروماني غير النزيه.. يمكنك دائمًا أن تتخذ القرار الحاسم، الذي سيغيّر مجرى حياتك جذريًا.

- نظر العامل مذهولاً إلى السيد أفولاي، وارتسمت على وجهه المجهد علامات اكتشاف شيء جديد. التفت إلى البنَّاء، ثم إلى السيد أفولاي، وقال بصوت حمل نبرة مُفْعمة بالعزم:

- أنت، يا سيدي، تلك الريح العاصفة التي ستلقي بي في المروج اليانعة الخضراء.. أنت يا سيدي!.

لكز السيد أفولاي حماره، وواصل سيره في الطريق الطويل. نظر إلى الخلف بفضول غامض، ورأى، من بعيد، العامل يضع رداءه على كتفه ويتجه مفارقًا البنَّاء.

في أرض اللوتس الساكنة،

كن صالحًا؛ فالإله قريب.

ردّ ما استعرته،

وأكرم ناموس الفضيلة،

واحذر من الخداع،

ولا تلوِّث يديك بالدم.

قاتل في مخدع أنير

استقر أنير في منزله الفخم الجديد، غير البعيد عن بناية الرئيس، وتسلم من السيد ماريوس جوادًا رشيقًا من أفضل الجياد الأمازيغية التي تعود ملكيتها إلى رئاسة المدينة. شغل أنير الطابق الثاني من البناية، على حين فضلت تيرينا الطابق الأول المزود بمطبخ، وفرن من الخزف، ومخزن من الفحم الخشبي، وعدة حجرات للنوم، وحمّام. أحست تيرينا في البداية بالغربة والضياع في منزل كبير وفاخر ومزود بكل أسباب الراحة، وانتابها وخز ضمير لمفارقة زوجة والدها السابقة؛ السيدة كيسيا، التي اكتفت في وداعها بأن طالبتها بإعادة كل الألبسة الفاخرة والحلي الذهبية التي كانت تتزين بها تيرينا. لكن أنير حين تلقى أول دفعة من أجره، أنفقها كلها تقريبًا لشراء ألبسة تليق بتيرينا، والباقي أنفقه في شراء مؤونة

الطعـام ومسـتلزمات الطبـخ والتوابـل التـي تفضلهـا تيرينـا. ولم ينـس التوجـه إلى خيـاط مـن أشـهر الخياطـين في مدينـة أرتـو ليخيـط لـه، عـلى المقـاس، ثوبًـا أنيقًـا.

كانـت الأشـغال في عمليـة صنـع الشـبابيك تسـير بوتـيرة جيـدة، وبرهنـت تيرينـا عـلى قـدرات بارعـة في التلويـن؛ قـدرات أذهلـت السـيد ماريـوس الـذي لم يكـفّ عـن زيارتهـا، والاطمئنـان عليهـا في محـل شـغلها، ومـا فتـئ يطالبهـا بأخـذ كل الوقـت والراحـة التـي تحتـاج إليهـا. أعجـب تيرينـا اهتـمامُ السـيد ماريـوس، ورأت في شـخصه شـابًا مهذبًـا، وأحبـت وجهـه الأبيـض المـشرب بحمـرة خفيفـة، وشـعره المجعـد القريـب مـن الشـقرة، وظلـت باطـراد تسـمع، حـين تكـون بحضرتـه، دقـات قلبهـا، وهـي تنبـض بوتـيرة غـير عاديـة؛ فتلفهـا حالـة مـن التوتـر والانفعـال غـير المألوفـين في طبعهـا. وشـعر السـيد ماريـوس -مـن ناحيتـه- عـلى الـدوام بحاجـة ملحّـة تدفعـه إلى رؤيـة تيرينـا، ولـو مـرة واحـدة في كل نصـف يـوم! وتَكـرَّس في نفسـه اعتقـاد صـادق بـأن قلبـه بـدأ ينبـض عـلى إيقـاع صـوت الفتـاة الجميلـة ومشـيتها ووجههـا؛ هـذه الفتـاة، التـي اقتحمـت عليـه حياتـه خلسـة؛ فلقـد وجـد نفسـه غـير مـا مـرة يقطـع شـغلًا مهـماّ مـن أجـل العـودة سريعًـا إلى بنايـة الرئيـس؛ لا لـشيء إلا لكـي يـرى تيرينـا، وهـي منهمكـة في عملهـا بـكل جدّيـة، وكانـت تقابلـه بابتسـامة مخلصـة يشـعر بهـا تخـرج مـن تلافيـف قلبهـا البعيـدة. كـما أنـه قطـع ذات مـرة اجتماعًـا مهـماّ لأمنـاء وأعضـاء مجلـس المدينـة؛ بسـبب هاجـس غريـب عَـنَّ لـه فجـأة، ودعـاه إلى زيـارة تيرينـا، وكانـت صـورة أنـير لا تغـادر ذهنـه كلـما فكـر في الفتـاة التـي بـدأت

تستحوذ على مشاعره كلها. وحين وجدها منشغلة في تلوين الشباك، ألقى عليها تحية منشرحة، وتلقى من الفتاة الأمازيغية الحسناء تحية مرحة وجاذبة كذلك. لم يجد كلامًا يقوله لها؛ فقفل إلى الاجتماع، وكان في تلك اللحظة قد تشبّع مؤقتًا بأريج تيرينا، التي يصبو إلى الارتواء بروحها في كل حين ووقت.

برقة حُب

انهمك أنير في إعطاء تعليمات مهمة لعامليه، وشرح لهم بحماسة وبدقة شديدة كل التفاصيل الصغيرة، وحثهم على إنجازها بالمهارة التي لا ينبغي التهاون فيها، وشعر فجأة بحرارة تتسرب إلى جسمه.. في البداية، اعتقد أنها حرارة- لا شك- تنبع من الموقع الملتهب الذي يُصْهَرُ فيه الحديد، ولكن تلك الحرارة بدت صاخبة ودافئة وممزوجة برائحة عسل تغلغل في كيانه على نحو مدهش. فجأة غُمر بظل وارف غطى مجال الرؤية أمام ناظريه، وحين رفع بصره اصطدم بوجه سماوي فاتن.. قطعة من الفردوس.. معزوفة إلهية هزّت كل جارحة من جوارحه.. نجمة ساطعة أعمت بصره للحظة، وجعلته يكاد يُغمى عليه. وجد نفسه يشدّ على عضد أحد العاملَيْن، ويقول مداريًا الموقف:

- أشعر بحرارة.. وبـ.. وبدوار!

كانت الأميرة سانيس قد اخترقت جدار المغناطيس الذي يجذبها إلى أنير، ووقفت أمامه كشجرة رند يانعة وفوّاحة برائحة عسل

وردي فاتـح. وضعـت يدهـا عـلى جبينـه، ثـم قالـت لـه بعفويـة أذابـت كل جيـوب المقاومـة في أعصابـه:

- إنك لا تعاني حرارة.. أنت في أفضل حال.

نظـرت إليـه عـن قـرب. اصطدمـت بحقيقـة مـرة.. الأحـلام لا يمكنهـا أبـدًا أن تشـبه الواقـع.. لقـد رأتـه قبـل سـنوات، في بدايـة مراهقتهـا، بعـين أنوثتهـا الناشـئة، التـي كانـت عـلى وشـك التفتـح، ولكنهـا الآن، وهـي في هـذا العمـر، أضحـت تملـك رؤيـة ناضجـة لفـارس أحلامهـا، الـذي ارتبـط في ذاكرتهـا دائـما بشـخص يشـبه هـذا الشـاب البربـري البعيـد عـما كانـت تـراه في السـابق. لكنهـا- في الوقـت نفسـه- تـراه أقـرب بكثـير مـن أي شـخص آخـر مـن مشـاعرها.. للحظـةٍ شـعرت بحـيرة، ولم تسـتطع لململمـة أفكارهـا، لكنهـا- في الأخـير- وجـدت أن أنـير، الواقـف أمامهـا مشـدوها بسـحرها وفتنتهـا الخارقـة، قـد يمثـل- مـن جهـة أخـرى- نمـوذج الشـاب الوسـيم الأنيـق؛ الشـاب الـذي يفـرض هيبـة وحضـورًا قويًـا لا يمكـن تجاهلـه، وقـرأت في نفسـه قـوة خارقـة، وتصميـماً عجيبًـا أدهشـها.

العجـوز كاجـي، الـذي كان يتابـع المشـهد بعـين مجـرب ماكـر، ظـل يراقـب الموقـف بانبهـار كبـير! قالـت الأمـيرة سـانيس، مخاطبـةً الشـاب اليافـع الـذي يفيـض بالحيـاة:

- ما اسمك؟

أجاب بارتباك بدا واضحًا تمامًا؛ ارتباكٍ غير متوقع في شخصيته:

- أنير... وأنتِ؟

ضحك العجوز كاجي، وقال بتهكم لم يجده أنير ظريفًا قط في ذلك الموقف:

- هل في مدينة أرتو شخص يسأل مثل هذا السؤال الساذج؟

التفتت الأميرة سانيس إلى العجوز السيد كاجي، فسألته بعفوية:

- كيف حال زوجك؟. هل هي بخير؟ وهل هي في صحة جيدة؟

- عاهرة كما عرفتها دائمًا، وفي صحة بقرة بليدة.

انتحت سانيس جانبًا بأنير، وقالت له:

- اسمي سانيس... لقد سمعت من أبي أنهم يبحثون عن قَيِّم جديد لمكتبة بناية الرئيس. القيِّم الحالي أصبح عاجزًا عن النظر، ولا يستطيع مزاولة عمله على النحو المطلوب. بدأ تسجيل المتقدمين للامتحان اليوم. عليك أن تسجّل نفسك. التسجيل مفتوح للجميع، ولكن الأمناء وأعضاء مجلس المدينة حرَصُوا على إبقاء هذا الموضوع سرّا بينهم.. إنهم لا يحبون دخول شخص من خارج دائرتهم إلى البناية، التي تنطوي على أسرار في غاية الخطورة.

- وما الفائدة التي سأجنيها- برأيك- من تسجيلي في مسابقة غير مضمونة النزاهة؟

- لا أريد الانتقاص من مقامك، ولكنني أراك مفيدًا في المكتبة، وفي مجلس المدينة أكثر من أي مكان آخر.. هذا إذا أثبتَّ جدارتك.

- شكرًا جزيلاً.. سأقول لك شيئًا.. لقد رحلت عن دريو، وهي بلدة صغيرة، وبعيدة جدًا عن مدينة أرتو.. لعلك تذكرين لقاءنا القصير هناك، ولعلك تذكرين أنني أهديتك سلة من الكستناء المشوي، وفي المقابل وجّهت لي أنتِ دعوة مفتوحة لزيارة أرتو، وظل حلم تحقيق هذه الزيارة يراودني. وأكثر من ذلك، قادتني مشاعري، التي التهبت بمجرد رؤيتك في سوق دريو، إلى الهجرة عن البلدة هجرة أبدية، مخلِّفًا ورائي كل شيء جميل، ولكنني كنت أتطلع إلى الشيء الأجمل من ضمن كل الأشياء الجميلة التي صادفتني في الحياة. كنتِ آنذاك فتاة رائعة، يا سانيس، كما أنت الآن.. شقراء، تفاحية الوجه، بقوامٍ رشيق بديع، رومانية أصيلة من أجمل نساء الدنيا اللواتي رأيتهن.. جسدك المثير منحوت كإلهة! لقد تَبِعْت بصبر- لا يكلّ- حلماً غامضًا للبحث عن نجمة فينوس؛ نجمة مجسّدة في فتاة بألق خاص، ولم تكن تلك النجمة إلا أنتِ، يا سانيس، ولن يكون هذا الأمر صدفة طبعًا!.

صمت أنير قليلًا مسترجعًا اندفاعه الذي كبته سنوات، ثم قال فجأة:

- كم أحببت هذا العسل الذي يغمرك! أريد هذا العسل بجانبي دائما.. لو كان الأمر بيدي!

اندهشت الأميرة سانيس لكلام أنير. تلبّستها حالة غريبة من الحيرة. وبقدر ما أحبت الاقتراب من هذا الشاب البربري الوسيم، رغبت في الابتعاد عنه بأكبر مسافة ممكنة!. فكرتْ قليلاً وسألته مستغربة:

- لماذا تريد هذا العسل بالذات؟

- إنه عسل يبدو فريدًا واستثنائيًا!

- حسنًا! ربما يوجد قريبًا منكَ، في المنزل الذي تسكنه، أريج يشبه رائحة العسل الذي تتحدث عنه! وفي كل الأحوال، سأدلّك على التاجر الذي يبيع مثل هذا العسل.. أليست تسكن معك فتاة جميلة، تفرز عسلاً بطعْم خاص؟!

- بلى! ولكنها فتاة من نوع مختلف؛ فهي ذات تصور عجيب جدّا للحياة! وأنا أحترم هذا التصور. طبعًا، فالمصادفة وحدها جمعتْنا معًا حتى هذه اللحظة. لدى حلمي الخاص يا سانيس.. ربما يجب أن أقول إنه متعلق بكِ.

- ربما كان لكل منا حلمه الخاص.. ولكنني لن أجازف لأقول إنه مرتبط بك!!

انصرفت الأميرة سانيس تاركة رائحة عسل طغت على كل الروائح، وشَعَرَ أنير بإجهاد نفسي وجسدي، وتكاسلت عضلاته على غير العادة، ولم يستطع مواصلة العمل. وفجأةً شعر بخيبة وإحباط، ورأى حلمه، الذي عاش من أجله سنوات طويلة، يكاد يتحطم نهائيًا أمام واقعية هذه الفاتنة الرومانية. ركل سندانًا برِجْله، وقال بانفلات أعصاب لم يتحكم فيه:

- اللعنة.. اللعنة...

قال السيد كاجي متهكمًا:

- لعلك كنت تُمنّي النفس بزواجك منها أيها البربري الوضيع!

اعتذر أنير للسيد كاجي وللعاملَينْ عن تصرفه الأرْعَن، ولكنه، قبل أن يغادر، أعطى تعليمات دقيقة ومفصّلة لما يجب أن يُنجز خلال ما تبقى من ذلك اليوم. كان الوقت وقت عصر، والطقس طافحًا برائحة مُنْكَرَة لروث متخمّر في إسطبلات الخانات المنتشرة بكثرة في أرتو، ورائحة بقايا خضروات تعفنت بفعل الأمطار، التي جرفتها من السوق إلى وسط المدينة.

فكّر أنير، قبل أن يتوجه إلى المنزل، في أن يُبلغ تيرينا بأنه متعب قليلًا، وبأنه يريد أن يسألها عمّا إذا كانت في حاجة إلى شيء من السوق. وحين ولج المكان الذي تشتغل فيه، في بناية الرئيس، وجدها منهمكة في تلوين أحد الشبابيك، ووجد على مقربةٍ منها السيد ماريوس، وكانا يضحكان بمودّة لطيفة. استغرب أنير من الموقف في البداية، ولكنه سرعان ما أقنع نفسه بأن الأمر عادي. قال السيد ماريوس بحنكةِ مَنْ تدرب في محيط سياسي:

- أهلًا أنير.. أفضل مصمّم في المدينة، هل جئت لتراقب عمل تيرينا؟ إنها تقوم بمهمتها على نحو مذهل!

ضحك أنير شاردًا.. كان يفكر في سانيس، وكان يشم رائحتها التي ظلت لصيقة بحواسّه الداخلية. أجاب بعد لحظات تفكير أطول من اللازم؛ لحظات انشغل خلالها بتفحّص بعض الشبابيك الملونة من دون أن يكون مهتماً بها بالفعل:

- أعلم بأن تيرينا تعمل على نحو مذهل لا يدخله الريب،

ولكنني متْعب قليلاً، وقد جئت لأسألها عمّا إذا كان يلزمها شيء من السوق لأحضره لها قبل أن ينصرف الباعة.

نظرت إليه تيرينا بانتباه، وسألته بصفاء نابع من شغاف قلبها الرقيق:

- هل أنت متعب يا أنير؟! ماذا حصل لك؟

أجاب بعفوية غير مألوفة في طبعه:

- لا شيء! زارتنا اليوم فتاة في ورشة السيد كاجي، وبعد ذهابها شعرت بحالة غريبة، وأحسَسْتُ بأنني في حاجة إلى الراحة.

بعد صمت، أطبق على الجميع، انفرد أنير بماريوس، بعيدًا قليلاً عن تيرينا، وقال له:

- السيد ماريوس، أريد التسجيل في مسابقة منصب قَيِّم المكتبة.

دهش السيد ماريوس لهذا الطلب الذي لم يتوقعه! كيف سيتعامل مع الموقف؟ وبماذا يجيب؟

بعد تفكير قصير قال:

- إنها مسابقة تخص أشخاصًا متخصصين في علم اللاهوت والمخطوطات وفهرسة الكتب القديمة النادرة. السيد فينك العجوز لم يعد قادرًا على مزاولة نشاطه بعد سنين طويلة قضاها في الخدمة.. لقد ضعُفَ بصره. ولا أظنك ستجاري أصحاب الاختصاص، وهم كُثُر.. الأفضل أن تنأى بنفسك عن هذا الأمر.

- لا بـأس في أن أجـرب. أقـر بأننـي لا أمتلـك قـدرات تؤهّلنـي لأتقـدم لهـذا الإمتحـان، ولكنني -مـع ذلـك- أحـب خـوض هـذه التجربـة.

فكـر السـيد ماريـوس في هـذا الطلـب الغريـب، وأيقـن أن شـكوكه حـول هـذا الشـاب البربـري لـن تكـون إلا صحيحـة، ولكنـه حافـظ عـلى هـدوء نابـع مـن طبعـه:

- حسـنًا! سـأضع اسـمك ضمـن قائمـة المشـاركين.. لـن أرفـض لـك طلبًـا بسـيطًا كهـذا.

انشـغل بـال السـيد ماريـوس بمـن سَرَّب هـذه المعلومـة الخطـيرة إلى أنـير. وبعـد تفكـير عميـق، اسـتقر تفكـيره الذكـي عـلى الفتـاة، التـي زارت ورشـة حـدادة العجـوز كاجـي، ولكـن مَـنْ تكـون تلـك الفتـاة؟ لـن تكـون إلا إحـدى المُعْجَبـات بأنـير، وهـي- بـلا شـك- ابنـة أمـين أو عضـو في مجلـس المدينـة. قـرر السـيد ماريـوس أن يتحـرّى الأمـر بنفسـه، وقـرر أيضًـا أن يطـرد العضـو أو الأمـين؛ والـد البنـت التـي يُحتمَـل أنهـا قـد سرّبـت هـذا الخـبر الخطـير، وتسـاءل باسـتنكار: كيـف يمكـن لبربـري أن يتـولى منصـب قيـم المكتبـة؟! توجـه فـورًا إلى ورشـة الحـدادة، وسـأل العجـوز كاجـي عـن الفتـاة التـي زارت الورشـة، والتقـت أنـير. وجـد العجـوز كاجـي نفسـه ملزمًـا بإبـلاغ السـيد ماريـوس بـأن تلـك الفتـاة لم تكـن إلا الأمـيرة سـانيس. ألّمـت بذهـن السـيد ماريـوس دوخـة بعثـرت أفـكاره للحظـة. لم يصـدق في البدايـة، ولكنـه اسـتغرب كيـف تعرفـت الأمـيرة سـانيس إلى أنـير، وكيـف حصـل ذلـك بهـذه السرعـة؟!

حينـذاك شـعر بخطـورة أنـير الحقيقيـة؛ لقـد بـدأ هـذا الشـاب البربـري يتغلغـل في مجتمـع أرتـو الرومـاني الراقـي، ولـن يكتفـي بذلـك فقـط؛ كـما يمكـن أن يتوقـع أي شـخص بعيـد النظـر، أو قَصـيرِه، بـل إن طموحـه سـيمتد ليصـير خطـرًا عـلى كثـير مـن الجهـات. طبعًـا، فالسـيد ماريـوس لـن يسـتطيع فعـل شيء أمـام هـذا الواقـع.. لـن يسـتطيع الوقـوف أمـام طمـوح شـاب اسـتثنائي في كل شيء. ومـن جهـة أخـرى، لـن يسـتطيع فعـل شيء للأمـيرة سـانيس؛ فـإلى جانـب كونهـا بنـت الحاكـم أورليـوس سـيبيو، فهـي -في المقـام الأول- فتـاة مرعبـة اسْـمُها سـانيس، لا يمكنـه مواجهتهـا بـأي حـال مـن الأحـوال.. ولكـن مـا يسـتطيع فعلـه هـو القضـاء عـلى هـذا البربـري، قبـل أن يصبـح أكـبر مـن أن يسـتطيع القضـاء عليـه.

الامتحان

حـل- بعـد أسـبوع- موعـد الامتحـان الخـاص بمنصـب قَيِّـم مكتبـة بنايـة الرئيـس، ولقـد حـضر في تلـك الليلـة، وفي سرّيـة مطلقـة، جمْـع غفـير فـاق المائـة مـن الشـباب، وكان مـن ضمـن هـؤلاء أنـير، الـذي ظـل محـلّ سـخرية وتهكـم أبنـاء أعضـاء وأمنـاء مجلـس المدينـة؛ فراحـوا يتسـاءلون بينهـم باسـتعلاء وعجرفـة:

- مـن جـاء بهـذا البربـري الغريـب إلى هنـا؟ وكيـف سـوَّلت له نفسـه خـوض امتحـان خطـير، وهـو مجـرد حـدّاد لا يـزال الصـدأ ورائحتـه ملتصقتـين بلحمـه؟

من جهته، كان أنير يراقب الجميع، متلهّيًا بمداعبة لحيته الخفيفة، التي تعمّد عدم حلْقها لكي يعطي لشكله غرابة ومهابة غير متوفرة لدى المُمْتَحَنِينَ. حاول استحضار مجادلاته مع المعلم ماسين صانع الأحذية، وتاجر الملح الحكيم أفولاي. وحاول أيضًا استحضار ما حفِظه من الكتب القديمة الكثيرة التي قرأها في دريو. تلك الكتب والمخطوطات والأشياء الكثيرة، التي تعلمها من حكماء وعلماء بلدته البعيدة، هي سلاحه هذه الليلة؛ ففيها اطّلع على الكثير من العلوم، واستطاع من خلالها تكوين دائرة معرفية متنوعة سكنت فكره، وساعدته بقوة على تصميم تلك الأشكال البديعة التي أنجزها للشبابيك. ويرجو أن تُعينه تلك الكتب وتلك المعارف في هذه الليلة المشهودة أيضًا. لا يحب أن يخيّب ظن سانيس. لقد أرادته أن يكون قَيِّماً على المكتبة، وسيقدم لها برهان جدارته بحُبّها عبر نجاحه في هذا الامتحان، رغم ما يتسرب إلى نفسه من شكوك حول نزاهة نتائجه.

بدأ الامتحان في منتصف الليل بالضبط. جلس المُتَحَنون أمام لجنة التحكيم. وكانت صيغة الامتحان تتمثل في إلقاء رئيس اللجنة سؤالًا، وعلى مَنْ يجد في نفسه القدرة على الإجابة التقدم نحو اللجنة، وكتابة الجواب، وتوقيعه باسمه. وبعد نظر اللجنة، والمداولة، تقرِّر صحة الجواب من عدمه، وقد يحدث أن يعرف الجواب الصحيح سبعون مترشحًا؛ فيُرشحون إلى الدور التالي، وهكذا تستمر صيغة الامتحان... وبعد عدة أسئلة، فاقت العشرين، بقي أنير وحده مع شابّ بدا نابغًا متمكنًا. وتواصلت

الأسـئلة المتنوعـة في علـم اللاهـوت، وعلـم الفلـك، والفلسـفة، وعلـم الأعشـاب، والطـب، وغـير ذلـك ممّـا لا يخطـر عـلى بـال. وفي النهايـة، اتُّخِـذ قـرارٌ بتحديـد الفائـز مـن خـلال فـوزه بثلاث مـرات متتاليـة أكثـر مـن خصمـه، ولقـد افْتُعِـلَ هـذا البنـد في المسـابقة، حـين لاحـظ الأمنـاء والحـكام شـدة أنـير وقوّتـه في إحاطتـه بجميـع العلـوم، وكان الهـدف مـن هـذا الـشرط هـو تعجيـزه، بـل أعلنـوا، حين بـدأت خيـوط الفجـر الأولى تنتـشر في المدينـة، أن الامتحـان سـيتوقف بمجـرد بـزوغ قـرص الشـمس. شـمَّ أنـير رائحـة عسـل وردي فاتـح تنفـذ إلى روحـه، ورأى فتـاة باهـرة الجـمال، ورأى نفسـه يطـير في السـماء ليعانـق فينـوس التـي تجسـدت لـه دائـما عـلى هيئـة سـانيس، واسـتحضر الرومانيـة الجميلـة جوليـا، والمراهقـة الدافئـة زهـرة الجمـر، وتاجـر الملـح الحكيـم أفـولاي، والمعلـم العجـوز السـيد ماسـين... ورأى شـعب الأمازيـغ كلهـم يصفقـون لـه. انطلـق السـؤال الأخـير، وكادت الشـمس تبـزغ، وأعلـن خصـم أنـير عجـزه عـن الجـواب مُرْجئًـا التنافـس إلى الليلـة المقبلـة. ووجهـت لجنـة التحكيـم انتباههـا إلى أنـير بفضـول جـارف.. لقـد كان في حوزتـه جوابان صحيحـان. خَطَـؤه المتوقـع الآن في الإجابـة عـن السـؤال الأخـير سـيعني ضيـاع مكاسـبه كلهـا مـع خصمـه العنيـد، وسـيتحتم عليـه البدايـة مـن الصفـر ليلـة الغـد. لكـن جوابـه كان صحيحًـا إلى درجـةٍ أذهلـت لجنـة التحكيـم.

تـم في النهايـة تقديـم مفتـاح المكتبـة إلى أنـير بفتـور وغضـب بـيِّن. وبعـد رسـميات ضروريـة وسريعـة، انـصرف الحضـور دون إقامـة الحفـل الـذي أعلـن عنـه سـابقًا، ولم يَجْـر تنـاول الطعـام كـما كان مقـرَّرًا،

وظهـر الاسـتياء عـلى لجنـة التحكيـم وأعضـاء مجلـس المدينـة وأمنائهـا. ولم يتقـدم لمصافحـة أنـير إلا السـيد ماريـوس، مُبْدِيًـا لباقـة وتهذيبًـا يُجيدهمـا تمامًـا.

وقـف السـيد ماريـوس مشـدوهًا يراقـب الشـاب البربـري الـذي غـادر البنايـة بخطـوات واثقـة. لقـد سـجل أول انتصـار كبـير في المدينـة، وهـذا الانتصـار سـيمهد لـه الطريـق لكسـب انتصـارات متتاليـة، وهـذا الأمـر بالخصـوص هـو مـا كان يقـضّ مضجـع السـيد ماريـوس، الـذي نـادي حارسـه وكاتـم أسراره حاثّـا إيّـاه عـلى تنفيـذ تصفيـة أنـير في أسرع وقـت ممكـن:

– لا أريـده أن يدخـل مكتبـة بنايـة الرئيـس مـرة أخـرى.. يجـب أن تنهـش جثتـه الغربـان والجـوارح في الخـلاء قبـل أن يحقـق هـذا الهـدف.

عسل

عـاد أنـير إلى المنـزل في الصبـاح، وتمـدّد فـورًا عـلى سريـره مـن شـدة التعـب، في انتظـار أن تحـضر لـه تيرينـا الفطـور المتأخـر مـن الطابـق السـفلي، وشـعر بنـوم جـارف بعـد ليلـة مجهـدة، ولم يكـن قـد أخـبر تيرينـا بـشيء حـول امتحـان منصـب قَيِّـم المكتبـة.. اكتفـى بـأنْ قـال لهـا بنـبرة جـادّة، وهـي تفتـح لـه البـاب متسـائلة بجـزع عـن حالتـه المزريـة:

– لقد خُضت الليلة معركة ضارية.

فتساءلت بالجزع نفسه:

- ضدّ مَنْ؟

فأجاب بلا مبالاة:

- ضد مجرمين في المدينة.

فصدّقته تيرينا بعفوية عجيبة، ولكنها اطمأنت عليه؛ لأنه لم يكن مصابًا بجروح، وإن بدا عليه الكثير من التعب. وفجأة شم أنير، وهو مُسْتلقٍ على سريره، رائحة عسل وردي فاتح، وقال في نفسه باستغراب:

- كيف تفكر تيرينا في إعداد وجبة فطور بالعسل، وهي تعلم أنني لم أعُد أتناوله؟!

غير أنه سرعان ما أحس بذلك العسل الاستثنائي يتسرب إلى أوصاله، وشعر بدوخة حالمة داعبت مشاعره؛ فأسْلَمَ نفسه لغيبوبة خفيفة جدًا. وفجأةً غُمِر بشلال من الروائح الطيبة، وتخيّل نفسه يغطس في حمام من أريج عسل فريد. وحين فتح عينيه من شدة وهجٍ ذَكَّرَهُ بوهج نجمة فينوس، وجد أمامه وجه سانيس المنشرح، وهي تنظر إليه بعيون واسعة وباسمة:

- «جئتك بتاجر العسل».. قالت، والفرح يتقافز من تقاطيع وجهها مثل فراشات مزوّقة؛ فرَدَّ أنير كالحالم:

- أريد أن أشمّ بضاعته.

- اغمضْ عينيك.

أغمض أنير عينيه؛ فشعر برائحة عسل مستحيلة تكاد تطوح

بعقله، وسمع حركة متواصلة، قبل أن يصل إلى أذنه صوت رخيم كشدو عصفور بديع:

- افتح عينيك.

فتح عينيه، ولكنه فتحهما على قطعة من جمال مؤلم؛ جمال جسد منحوت يشبه جسد إلهة خرافية البهاء.. بياض حليبي مُشْرب بحمرة خوخ، وكأن ستارًا من ظل فردوسي يغطي جسدها الفاتن! وقفت سانيس أمامه عارية تمامًا؛ فقال لها بانبهار وبنبرة جادّة:

- هذا هو تاجر العسل؟!

- نعم، ولكَ الحق في تذوُّق بعضِ بضاعته، للحظة قصيرة فقط، وبمقدار بسيط أيضًا.

قدم لها مفتاح مكتبة رئاسة المدينة الكبير؛ لكي تتأمله:

- انظري.. ها هو المفتاح!

داعب شعرها وخدَّها بلطف، وأصابعه ترتعش، ثم خاطبها بنبرة مشحونة بعاطفة نبعت من أعماقه السحيقة:

- لقد احترقت ليلة أمس لأجلب هذا المفتاح، وكنت أدرك أنني سأستعمله لأجلك.

- هل تعلم؟. لم أنَم الليلة كلها، وانتظرت عودة أبي أوريليوس سيبيو، الذي حضر الامتحان، بوصفه حاكماً للمدينة، وكان مندهشًا؛ فقال إن شابًا بربريًا رائعًا، لم يَرَهُ قط في مدينة أرتو، استطاع، ببراعة

لا تُصَدَّق، الإجابة عن كل الأسئلة شبه التعجيزية. ولقد أُعْجِبَ بك.. وحينذاك أدركت بأنني وجدت المفتاح.

- قلتِ: أوريليوس سيبيو! لقد كان قائدا للجيش عندما التقينا في بلدة دريو.

- بعد عودته من المعارك التي خاضها ضد مملكة ماسيسيليا، استقر رأي عليّة القوم في أرتو على تعيينه حاكماً لها؛ لأن أحوال المدينة آنذاك كانت متدهورة جدًا، وكانت تحتاج إلى قائد حازم يضبط النظام فيها.

- حسنا! أنا إذًا إزاء أميرة... لست أدري.. هل أعتبر الأمر امتيازًا أم العكس؟

ردت سانيس بتلقائيتها المعهودة:

- لا أتصور أن هناك شيئًا يدعوك إلى التفكير في هذا الأمر بمثل هذا المنطق؛ فأنا لم أحدد بعْدُ كيف أجدك في مساحة نفسي، فهذا اللقاء يجسد فقط ذكرى جميلة تعود إلى سنوات غابرة. لقد أعجبت بك حين رأيتك في سوق بلدتك الصغيرة، وظلت صورتك في ذهني، ولم تفارقني أبدًا، ولكن أشياء كثيرة تغيرت منذ ذلك الزمن؛ فأنتَ لم تعد ذلك الفتى الذي رأيته منذ سنوات خلت.. أنت الآن شاب آخر، وعليّ أن أتأكد جيدا من مشاعري نحوك.. لن أوهمك بحقيقة غير موجودة في نفسي. وإذا كان يجب أن أكون واقعية أكثر، ينبغي أن أنصحك بمواصلة حياتك من دون أن تضعني في حساباتك.. فأنا أيضا لم أعد تلك الفتاة التي رأيتها في بلدتك.

لم يشعر أنير بالاطمئنان لكلام الأميرة سانيس.. لقد أدخلته في متاهة غامضة. سفره الطويل، وحلمه الدائم الذي تبعه بإصرار، يبدو وكأن مصيره سيكون الانهيار. انصرفت سانيس بعد أن أخبرته بأن هدية تاجر العسل التي قدمتها له ما هي - في الواقع - إلا شكر وامتنان، واعتراف أيضا بقدراته، وبإمكانية تحقيقه تغييرًا تأمَلُهُ في المكتبة، التي تختزن أسرارًا خطيرة تتعلق بمداخيل أمناء وأعضاء مجلس المدينة، والخروقات الفادحة التي يرتكبونها.

كانت تيرينا قد تركت وجبة الفطور في المطبخ.. لم ترغب في إزعاج خلوة سانيس وأنير، وقد شعرت ببعض الغيرة المبررة؛ فهي - في آخر الأمر - متعلقة بأنير، ثم إنها اكتشفت برعب أن نزعة الأنثى في نفسها لم تنتهِ، ولكن هذه النزعة - في المقابل - لم تعلن بَعْد عن نفسها بوضوح كامل. توجهت إلى محلّ عملها في بناية الرئيس، وكانت على وشك إتمام تلوين كل الشبابيك، ولم يرغب أنير في مساعدتها؛ لأن براعتها في التلوين تفوق براعته بكثير. وحين وصلت إلى المحل، وجدت السيد ماريوس ينتظرها بفرح استثنائي، وبدا واضحًا أنه يرغب في مفاتحتها في أمر مهمّ:

- كيف حالك يا تيرينا؟

- بخير، وأنت يا سيد ماريوس؟

- يمكنني أن أكون أفضل حالًا.

- ماذا تقصد يا سيد ماريوس؟

- أعلن حبي لك، وأريد أن أتقدم بطلب يدك.

صمتت تيرينا.. فاجأها كلام السيد ماريوس، مع أنها كانت تشعر بإعجابه المتواصل بها، ولكنها لم تتوقع أن يطرح طلب يدها بهذه السرعة. وبعد تفكير طويل وغير مستقر، قالت:

- لقد فاجأتني بهذا الطلب يا سيد ماريوس؛ فأنا إلى الآن غير متأكدة من مشاعري نحوك.. هناك أيضًا أنير. طبعًا، أعرف أنه أكثر اهتمامًا بسانيس، ولكن- مع ذلك- هو في قلبي.. كما أنت.

- ماذا يعني هذا؟

ردت تيرينا بجواب أدخل الكثير من الريب إلى نفس السيد ماريوس:

- أقصد.. ينبغي ألّا يوجد أحدكما في الحياة؛ لأرتبط بالآخر الباقي!

- ولكن، افترضي أن أنير ارتبط بسانيس، وهو أمر أعتقد أنه ممكن جدًا.

- لا يهم! سيبقى في قلبي، ولن أستطيع نَزْعه من مشاعري! والشيء نفسُه بالنسبة إليك.. أنت أيضًا تسكن الحيّز نفسه الذي يسكنه أنير في مشاعري، وبالتالي لن أستطيع الارتباط بأنير لو أتيحت لي الفرصة! في الواقع، أنا في وضع غير مريح تمامًا، أتصور وكأنني أحبّكما معًا بعنف، وبالقدر نفسه أيضًا.

قالت ذلك تيرينا، وصمتت لحظة قبل أن تتساءل ببراءة:

- هل يمكن أن يجتمع عشقان عنيفان في قلب واحد، يا سيد ماريوس؟!

- ربما! لم أسمع بهذا من قبْل، ولكنك تتحدثين بجدّية.

غادر السيد ماريوس، ومزاجه معكّر جدا.. لم يفهم كيف أن الفارس لم يُجْهز على أنير حتى هذه اللحظة، وفكّر بأن ينفذ المهمة بنفسه إذا اقتضى الأمر!. هناك تَحَدٍّ حقيقي يفرض نفسه عليه.. لقد قالت له تيرينا:

- ينبغي ألّا يوجد أحدكما في الحياة؛ لأرتبط بالآخر الباقي!

طبعًا، لا يجب أن يأخذ كلام تيرينا على سبيل الدعابة.. أنير شخص خَطِر، وقد يلجأ إلى كلّ الأساليب ليحقق الأهداف المجهولة التي يبتغيها. ولهذه الأسباب كلها، وجب قتله في أسرع وقت.. هكذا فكر السيد ماريوس، وهو يتأمل أشجار الرند، والنهار الشاحب، والوقت الذي يمر مرتبكًا على غير العادة. امتطى جواده، وبحث عن الفارس، وهو يردد في نفسه:

- ينبغي لجثة أنير أن تكون في البحر هذه الليلة، أو بعيدًا في الخلاء. ومن الغباء ترْك الشاب البربري طليقًا مساءً آخرَ أو يومًا آخرَ.

انتشر الخبر فجأة بين نخبة الجيش المقرّب من السيد ماريوس، وهم قلة، وكان فيهم واحد تعود أصول والدته إلى الأمازيغ، وكان مُعْجَبًا بشخصية أنير؛ فآلمه المصير الذي ينتظره. أخبر أحد أصدقائه

الحـراس، وطلـب إليـه بـدوره أن يخـبر الأمـيرة سـانيس إذا كان يرغـب في إسـداء خدمـة جليلـة لهـا. توجَّـه الحـارس إلى قـصر الحاكـم أورليـوس سـيبيو، وطلــب الحديــث إلى الأمــيرة. وبعــد انتظــارٍ لم يطــل كثــيرًا، خرجـت سـانيس بلبـاس منـزلي مثـير، غـير عابئـة بنظـرات الحـارس الـذي ارتبـك، وكاد ينسـى وصيـة الجنـدي، ولكنـه أخـيرًا تغلـب عـلى الموقـف:

- سـيدتي الأمـيرة سـانيس، أحْمـل إليـك خـبرًا، لعلـه مهـمّ بالنسـبة إليـك.. هنـاك مؤامـرة لقتـل أنـير.

صمتت سانيس قليلًا، ثم رفعت عينيها إلى الحارس متسائلة:

- ومن يقف وراء هذه المؤامرة؟!

- إنه السيد ماريوس، يا سيدتي الأميرة.

- شكرًا لكَ، ولكن..

بدت سانيس حائرة، ولا تعرف ماذا تقول:

- مــاذا عســاي أفعل!.أقصــد ليواجــه مصــيره. إنهــا صراعــات سياسـية أو شـخصية لا تعنينـي، كـما لا يعنينـي لا السـيد ماريـوس ولا البربـري أنـير.

قال الفارس معتذرًا:

حسـنا سـيدتي! ظننـت مُخْطِئًـا أن الأمـر يَعْنيـك. أقـدم لـك اعتـذاري سـيدتي.

- لا بأس أيها الفارس المخلص. هذا يؤكد وفاءك لحاكم المدينة، وهو نُبل يُحسَب لك. ولكن أنصحك بعدم نشْر هذا الخبر.. اكتمه لتحفظ حياتك.

انسحب الفارس، ودخلت الأميرة سانيس جناحها في القصر شاردة الذهن. استبدّت بها مخاوف انشغلت بها طَوالَ المساء.. فكرت في أشياء ستحدث، وتوقعت أن هذه الأحداث ستكون مقلقة ومؤثرة جدا!.

يا للعار! من أجل السلامة،

اجتنبْ أولئك الذين تثق بهم.

احترس من الإخوة والأقرباء والرفقاء الأعزاء..

إن هؤلاء يعطون الدافع الأصدق للخوف.

ليلة بالأبيض والأسود

أصبحت تيرينا تشتغل كاتبة في مكتب الضرائب في مقر يبعد بنحو ميل عن بناية الرئيس، وتم تلقين أنير كل شيء يتعلق بمنصبه الجديد قَيِّماً على المكتبة، ولكن أكثر المعلومات وأهمها تلقّاها من تيرينا، التي كان والدها بيكاو يشتغل نائبًا للسيد العجوز فينك المتقاعد، وقد أثار أنير استغراب معلميه، الذين كانوا يتصورون أنه بحاجة إلى تعلم كل شيء، ولكنهم وجدوا أنه في يوم واحد قد استوعب كل التعليمات على أكمل وجه. إلا أنه إضافة إلى المعلومات الدقيقة والحاسمة التي عَلِمها من تيرينا، أبدع فهرسة مُبَسَّطة للكتب والمخطوطات، وكان يسهل على موظفي بناية الرئيس الحصول على معلومات أي تاجر، أو صاحب حرفة، أو فلاح، بسهولة مطلقة، وبدون تيه في بحر من البحث الطويل، كما كان الشأن في السابق.

ومـع ذلـك كانـت هنـاك كتـب حُـرِّم عـلى أنـير الاقـتراب منهـا؛ لأنهـا، بحسـب رأي الأمنـاء وأعضـاء مجلـس المدينـة، مُحَرَّمَـة عـلى العامـة، ولأنهـا كتـب إلهيـة، وأي محاولـة لقـراءة هـذه الكتـب سـتودي بحيـاة صاحبهـا، وسـتغرقه في لعنـات أبديـة لا فـكاك لـه منهـا.

حـان وقـت الغـروب، وانـصرف الجميـع مـن بنايـة الرئيـس، ولكـن أنـير اسـتغرق مذهـولًا ينهـل مـن الكتـب والمخطوطـات المتوفـرة في المكتبـة. وبعـد منتصـف الليـل عثـر عـلى ملفـات سريـة غايـة في الأهميـة، واطلـع عـلى معلومـات خطـيرة تتعلـق بعمـل أمنـاء وأعضـاء بنايـة الرئيـس، وعـلى أملاكهـم التـي لا يمكـن أن يكونـوا قـد تحصلـوا عليهـا فقـط مـن خـلال رواتبهـم أو الأعـمال التجاريـة أو الزراعيـة القليلـة التـي يمتلكونهـا، وأهـم مـن ذلـك اكتشـف أنهـم لا يدفعـون الضرائـب، بـل يختلسـون مـن الخزينـة بطـرق ملتويـة ومكشـوفة، ولكنهـم يتغاضـون عـن بعضهـم بعضًـا بتشـجيع مـن أحـد أكـبر الأمنـاء الـذي بـدا لأنـير أنـه عـلى درجـة كبـيرة مـن النفـوذ، وأنـه يفـوق السـيد ماريـوس في كل شيء. لقـد اكتشـف بغرابـة أن السـيد ماريـوس مجـرد قائـد للحـرس والجنـد، ونائـب شرفي للحاكـم، ومثـل هـذه المناصـب كلهـا شـكلية، وأنـه في الواقـع لا يمتلـك صلاحيـات حقيقيـة؛ فقـد أُوكلـت لـه المهـام الجسـيمة في خدمـة المدينـة، بينـما كان الجميـع يتقاسـم خـيرات المدينـة بينهـم بجشـع، بخـلاف السـيد ماريـوس الـذي كان ملفـه نظيفًـا ولا تشـوبه شـبهات؛ فهـو يدفـع الضرائـب مـع أول كل سـنة، وحسـاباته واضحـة ومبيّنـة عـلى وجـه لا يدخلـه الريـب.

خرج أنير من بناية الرئيس مع الفجر. وفي تلك الأثناء كان شخص قد استنفد صبره في الانتظار داخل ممر مجاور لحجرة مبيت أنير، وكان قبل ذلك قد دخل الحجرة، وعبث بالأغراض الموجودة فيها، ولم يعثر على شيء ذي بال. انصرف ذلك الشخص قبل انبلاج ضوء الفجر، واختفى في العتمة والضباب الكثيف الذي نزل على أرتو في فجر ذلك اليوم.

دخل أنير مجهدًا إلى المنزل، ووجد هدوءًا طاغيًا يكتنف المكان. عبرَ ردهة الطابق الأول بهدوء، ثم صعد الدرج إلى الطابق الثاني، محاذرًا ألاّ يجعل تيرينا تستيقظ من النوم. وعندما دخل حجرته، وأغلق بابها بهدوء، وكان ضوء الصباح قد انتشر في الحجرة، تنبه فجأة إلى تغير ما حصل في أشيائه، التي كان يعرف كيف وضع كل شيء في مكانه المناسب. استغرب لهذا العبث البسيط الذي طرأ على تنظيم أغراضه وملابسه، ولكنه سرعان ما فكر في تيرينا، وتذكر أن لدى بعض النساء فضولًا زائدًا لمعرفة عالم الرجال، أو ربما دخلت تيرينا حجرته على أساس خلق مناخ حميمي بينه وبينها ولم تجده في الداخل، فأرسلت له هذه الإشارة علّه يلتقط مغزاها. واستقر رأيه في الأخير على أن الأمر لن يعدو فضولًا أو اهتمامًا من تيرينًا، وفي كل الأحوال وجب عليه أن يفهم هذه الإشارة، وأن يوليها الاهتمام اللازم. وبعد أن استغرق في النوم لبعض الوقت، استيقظ مذعورًا على صوت فاتر ورخيم؛ صوت سقط في نفسه كحلم جميل. اصطدم ذلك الصوت الدافئ بحالة النوم التي تعتريه، وحرره فجأة من تلك الحالة الثقيلة، فاستعاد يقظته دفعة واحدة:

- انهض أيها الكسول.. الوقت متأخر جدًا! كم أنا مجنونة.. تصور.. لقد اعتقدت أنك فارقت الحياة، وكان يجب أن أطمئن عليك. استحم، وسيكون الفطور جاهزًا. دعني أقترح عليك هذه الفكرة.. لماذا لا نفطر معا هذه المرة؟!

عندما قالت تيرينا ذلك، أيقن أنير أنها هي من دخل حجرته ليلًا، وأنها كانت ترغب في أكثر من زيارة عادية. وعاد بذاكرته إلى موقف بعيد عندما كان في منزل بيكاو في الخلاء، وعندما تبعها إلى النهر، ورآها تنزع ملابسها قبل أن يظهر جسدها الجحيمي ناضجا مكتمل الأنوثة؛ تلك النوعية من الأنوثة المشتعلة بالرغبة والإثارة. وتذكر أنه لمسها، وشعر أنه ما زال يعتريه ذلك الإحساس الفريد الذي شعر به في ذلك الوقت، وظل يشعر به إلى الأبد. تساءل أنير بجدية مطلقة: هل عليه أن ينسى الأميرة سانيس التي دعته إلى زيارة أرتو عندما كانت صغيرة، ويوجه اهتمامه كله إلى تيرينا التي لا تقل جمالًا عن الأميرة؟! لا.. شيءٌ ما أبقى كلام المعلم ماسين طاغيا في ذاكرته:

- نحتاج إلى أمازيغي في مدينة أرتو.

الفشل

وبّخ السيد ماريوس بشدة الفارس الذي كلفه بقتل أنير بسبب فشله في المهمة، ولكن الفارس شرح للسيد ماريوس الموقف، وأقنعه

بأنه لم يفشل، ولكنّ ظروفًا غريبة لم تسعفه، وشرح له كيف فتح المنزل بالمفتاح الذي سلمه إياه السيد ماريوس، وتتبّع التعليمات بدقة متناهية، ودخل بحذر شديد، وأيقن أن تيرينا مستغرقة في نوم عميق. وعلى سبيل التأكد، فقد أطل من بابها، تبعًا لتوجيهات ماريوس، ليتأكد من أنّ أنير لا ينام معها في الحجرة نفسها، ومن أنهما لا يتقاسمان الفراش كما توجس السيد ماريوس، لكن الفارس رأى تيرينا وحيدة في فراشها، مستغرقة في نوم هادئ، وفتش الغرف السفلى جميعها. وبعدما تأكد من عدم وجود أنير في الطابق الأسفل، صعد شاهرًا سيفه إلى الطابق الثاني، وظل مواظبًا على حذر شديد مخافة مفاجأة من أنير. وتمكن من الوصول إلى الطابق الثاني، وكان السيد ماريوس قد رسم له خريطة توضيحية لحجرات المنزل. فتح كل الحُجَر ليتأكد من خلوها من أنير، ثم توجه إلى حجرة النوم المفترَض أن يوجد بداخلها أنير، وظل يسترق السمع من خلف الباب لعله يسمع حركة، أو شخيرًا، أو أي شيء يدل على وجود طريدته داخل الحجرة، لكن الفارس احتار عندما لم يسمع أي شيء! وتشجَّع وهو يشهر سيفه الحاد، وفتح الباب بهدوء على أمل أن يتمكن من طعن أنير قبل أن يستيقظ. ودخل الحجرة بالهدوء نفسه، لكن الفارس دهش عندما لم يجد أنير في فراشه. خمّن أن يكون في الحمام الملحق بحجرة النوم، فانتظر في زاوية مظلمة لعله يخرج من الحمام، لكن لم يحدث هذا الأمر. تسلل الفارس في الأخير إلى الحمام على أمل ضئيل في العثور على أنير هناك، ولكنه لم يجده في الحمام. انتابه القلق، لاسيَّما وأن الوقت يمضي، وفكر في

رد فعـل السـيد ماريـوس إذا مـا عـاد إليـه خائبًـا مـن دون إنجـاز المهمـة التـي كلفـه بهـا. أعـاد البحـث في جميـع الغـرف، ولكـن مـن دون جدوى. وخطـر ببالـه في الأخـير أن ينتظـر في مدخـل الطابـق الثـاني لعـل أنـير يعـود مـن مـكان يُحتمـل أنـه قـضى بـه بعضًـا مـن ليلـه. ولكـن الفـارس في الواقـع، وهـذا لم يقلـه للسـيد ماريـوس، كان قـد تفتـق ذهنـه عـن فكرة بـدت لـه ملهمـة.. قـال في نفسـه: ربـما يتوفـر أنـير عـلى أوراق سريـة، أو أشـياء تدينـه قانونيًـا؛ فيتـم إلقـاء القبـض عليـه، بـدل طريقـة القتـل التـي لم يفهـم دواعيهـا، وتمنـى أن لا يكـون هـو منفذهـا، خصوصًـا وأنـه رأى دائـماً في أنـير شـخصًا طيبًـا، ويمثـل طموحًـا جميـلاً، ونفسـية محببـة. فتـش في أغراضـه وبـين ملابسـه لعلـه يعثـر عـلى دليـل دامـغ، لكنـه وجـد كل شيء عاديًّـا، ولا شيء يثـير الشـكوك. ظـل الفـارس مرابطًـا في مدخـل الطابـق الثـاني في زاويـة شـبه مغلقـة، منتظـرًا عـودة أنـير لكـي يُجْهـز عليـه حالمـا يمـرّ مـن أمامـه، ولكـن أنـير لم يظهـر. تعـب الفـارس. ورغـم ذلـك، اسـتمر مرابطًـا في مكانـه إلى أن باغتـه الفجـر؛ فانسـلّ بهـدوء مغـادرًا المنـزل، وحـيرة عظيمـة تكتسـحه.

تلقـى السـيد ماريـوس تفاصيـل القصـة باسـتغراب. لم يدخلـه أي ريـب في كل مـا رواه الفـارس.. أولاً لأن الفـارس لم يسـبق أن كـذب عليـه، وثانيًـا لأن ماريـوس متأكـد مـن أن الشـاب أنـير يتوفـر عـلى قـدرات خارقـة. تعاظمـت في ذهنـه المخـاوف، وتبـين لـه أنـه يحـارب شـبحًا مخيفًـا، وأن هـذا البربـري الغريـب، الـذي وفـد إلى مدينـة أرتـو لإنجـاز مهمـة غامضـة، لا يمكنـه إلا أن يكـون شـخصًا بطاقـاتٍ لا تتوفـر لباقـي البـشر. شـعر بالخطـر، ونـدم عـلى أنـه قـرر دخـول هـذه

المغامرة، ولكن الأمر أصبح واقعًا ملموسًا، والمواجهة أصبحت مفتوحة بينه وبين هذا الشاب الأمازيغي.

قرر السيد ماريوس زيارة أنير في مقرّ عمله. وقبل ذلك، كان قد أوفد من أيقظ كل الحراس الليليين ليسألهم واحدًا واحدًا عمّا إذا كانوا قد رأوا أنير، لكنّ جميعهم نفوا رؤيتهم الشابَّ البربري، وأكدوا له بيقين، لا ينفذ إليه الشك، أنه حتى رائحته لم تكن تعبق تلك الليلة في شوارع أرتو وأزقتها وحاناتها. توجه السيد ماريوس متوجسًا فوق جواده إلى مكتبة بناية الرئيس، ورأى من الفور أنير غامرًا وجهه في الملفات، ينسّقها ويعيد تنظيمها على نحوٍ أدهشه:

- لا يمكن! كيف لشخص بربري أن يتقن عمل الأرشيف والمكتبة؟! شيء لا يصدقه عقل.

حيّا السيد ماريوس أنير بتحية مرحة، ورد عليه أنير التحية بأفضل تحية يمكن الرد بها. لقد كان مرهقًا من الداخل، ولكن شغفه الشديد لمعرفة واكتشاف خبايا المكتبة جعله يخرج كل طاقاته الباطنية، ويتغلب على النوم والإرهاق:

- يبدو أنك خبرْت عمل المكتبات قبل مجيئك إلى مدينة أرتو؟

ابتسم أنير ابتسامة هادئة، وقال:

- أنت بهذا تنقص من أهلية المعلمين الذين كلفتهم بتعليمي.. إنهم مهرة!

- حسنا! يبدو أنك سريع التعلم.

- لن أنكر هذا، يا سيد ماريوس، ويشرّفني أنني أتعلم منك أشياء كثيرة كل يوم.

هذه العبارة العفوية من أنير أدخلت الريب إلى نفس السيد ماريوس:

- مِثل ماذا أيها الشاب البربري؟

استفزّت تسمية «البربري» أنير، وقال ليسترجع كرامته:

- يمكنني أن أتعلم من مقتحم لطيف لأرضي وأرض أجدادي الكثير، بما في ذلك مقاومتكم إذا اقتضى الحال؛ مثلما فعلتم أنتم مع إمبراطوريات رغبت في احتلال أراضيكم.

- أنير، نحن لا نتحدث في السياسة. ثم يجب أن تدرك بأننا أصبحنا نشعر، بعد مرور هذه الأجيال، بعدم وجود فوارق تُذْكر بيننا وبينكم.

- ولكن هل تستطيع أن تشرح لي لماذا هناك حي للأمازيغ في أسوأِ موقع في مدينة أرتو؟.. ثم لماذا يفرض على الفلاحين الأمازيغ الصغار دفع ضرائب ضخمة تجعلهم- في النهاية- يكفون عن زراعة الأرض، عكس الفلاحين الرومان؟

- على كل حال، لست أنا مَن سَنّ هذه القوانين، وأعتقد شخصيًا بأن هذا الأمر يجب أن يتغير.

- أنا مقتنع بأن نيتك صالحة يا سيد ماريوس، وبأنك شخص خيِّر.

- أشكرك.. كلام طيب ينشرح له القلب.

وبعـد صمـت قصـير، أضـاف السـيد ماريـوس مُغـيرًا مجـرى الحديـث:

- لم أكن أعلم أنك سكير.

- نعـم، لقـد جبـت كل حانـات المدينـة، وشربـت منهـا جميعهـا، وكان يجـب أن أخـرج بخلاصـة في النهايـة.

صمـت أنـير، وظـل السـيد ماريـوس ينتظـر إكـمال الـكلام. وبعـد لحظـات واصـل أنـير:

- لقـد اكتشـفت شـيئا ربـما كان مهـماّ.. هـذه المدينـة تبـدو هادئـة، تعمّهـا السـكينة ظاهريـا، ولكنهـا- في الواقـع- تعـجّ بالمتناقضـات.

اسـتغرب السـيد ماريـوس مـن كلام أنـير، وأيقـن أنـه يلمّـح إلى شيء مـا، وقـال مسـتوضحًا:

- لسـت أدري بـأي منهجيـة بنيـت هـذا المعطـى لتخـرج بهـذه النتيجـة؟

- ستعرف كل شيء يا سيد ماريوس.. وقريبًا جدًا.

دارت في رأس السـيد ماريـوس عبـارة «وقريبًـا جـدًا». تأملهـا، وقلبها عـلى أوجـه عـدة، وتذكـر أنـه طلـب إلى الفـارس قتـل هـذا البربـري الخطـر «قريبًـا جـدًا»، ولكنـه فشـل. غـير أن الفشـل غـير مقبـول في المـرة المقبلـة. هكـذا ردّد في نفسـه، ثـم انـصرف دون أن يـودع أنـير. وبينـما كان السـيد ماريـوس يهـمّ بامتطـاء جـواده، رأى الأمـيرة سـانيس تدخـل

المكتبة.. حينذاك أدرك خطورة الموقف، وتيقن أن الأمور ستسير نحو الأسوأ إذا لم يتخذ الإجراء الذي قرره في حق أنير في أقرب وقت. وعزم هذه المرة على أنْ يشرف بنفسه على عملية الاغتيال. نعم، لم يعد مهتماً كثيرًا بالأميرة سانيس؛ فميوله كلها تتجه نحو تيرينا التي تقاسِمُه قلبها مع أنير. ولهذه الأسباب وغيرها، يجب أن ينتهي هذا البربري من الوجود؛ لتصير تيرينا له وحده، وليُبْعد شبح هذا البربري المُخِيف عن المدينة.

دخلت الأميرة سانيس بخطوات واثقة عبر الردهة، ثم اقتحمت المكتبة على أنير. وجدته منهمكًا في ترتيب المخطوطات القديمة. فوجئ بأريج مدوّخ لرائحة عسل وردي تنتشر حوله. رفع رأسه ورآها. كانت تقف أمامه شامخة كوردة في أوج تفتُّحها:

- يبدو أنك خطوت الخطوة الأولى في اتجاه الوصول إلى هدفك، ولكن هناك خطوات أخطر بكثير يجب أن تتخطاها.. يجب أن تكون حَذِرًا جدّا.

لم يفهم أنير شيئا من كلام الأميرة سانيس، فسألها:

- قد أتحلى، في بعض الأحيان، بغباء بسيط أستطيع التغلب عليه، ولكن، في هذه الحالة، وأنا في حضرتك، يبدو أنني أفقد كامل فطنتي!.

- «ستفهم كل شيء في الوقت المناسب».. قالت ذلك، ثم انسحبت تاركةً أنير مغمورًا بحيرة لم يعرف كيف يخرج منها سريعًا. سانيس بدورها كانت تعيش حالة قلق عجيبة، لم تعرف القرار المناسب

الـذي ينبغـي أن تتخـذه!. لقـد أُبلغـت مـن قبـل حـارس أن أنـير في خطـر، وأن هنـاك مخططًـا، مـن إعـداد السـيد ماريـوس، لقتلـه. لم تهتـم!. اعتـبرت الأمـر امتحانًـا حقيقيًـا ينبغـي لأنـير أن يتعـرض لـه؛ فـإذا نجـح، فسـيكون- ولا شـك- جديـرًا بحبهـا؛ فهـي لـن تقبـل بشـخص تدافـع عنـه قبـل أن يخـوض تجربـة الدفـاع عـن حياتـه بنفسـه.. مثـل هـذا الرجـل لـن تجـده الرجـل المناسـب لهـا ولأحلامهـا.

اسـتغرق أنـير اليـوم كلـه، وهـو يدقـق في المخطوطـات، ويعيـد قراءتهـا، ويتأكـد مـن الحسـابات الـواردة فيهـا.. لم تكـن المهمـة سـهلة؛ فقـد انطـوى الأمـر عـلى كشْـف دقيـق لمنهجيـة مُخادِعـة قـد لا يتيـسّر فهمهـا لأي خبـير عـادي في عمـل المكتبـات. ولكـن أنـير تعلـم أشـياء كثـيرة مـن تيرينـا، التـي أخبرتـه عـن أمـور غايـة في الخطـورة، ولكنهـا لم تكـن تـدرك أبعـاد تلـك الأمـور؛ بسـبب تعوُّدهـا عـلى حيـاة بسـيطة، وبعيـدة عـن التعقيـدات. ولكـن أنـير شيء آخـر.. إنـه يحلم بتحقيـق كلام سـمعه مـن المعلـم ماسـين قبـل سـنوات.. «نحتـاج شـابًا أمازيغيًـا نبيهًـا، وعـلى قـدْرٍ كبـير مـن الحكمـة، ليقـوم بمهمـة في غايـة النبـل.. يجـب عـلى الأمازيـغ السـيطرة سـلميًا عـلى مدينـة كبـيرة؛ مثـل أرتـو.. لن نحتـاج إلى خـوض حـرب لطـرد الرومـان! لقـد أصبحـوا واقعًـا في حياتنـا، كـما لا نحـب أن تسـيل الدمـاء، ولكـن ينبغـي أن تسـود العدالـة الكاملـة بـين جميـع الشـعوب التـي تعيـش عـلى أرض الأمازيـغ". تُـرى مَـنْ يكـون هـذا الشـاب يـا أنـير؟!» لم يجـب أنـير عـن سـؤال معلمـه ماسـين، ولكنـه تأكـد مـن أنـه المقصـود بهـذا الخطـاب الواضـح، ووجـد في كلام معلمـه ثقـة يجـب أن لا يخيّبـه فيهـا. وجـاءت دعـوة سـانيس لـه لزيـارة أرتـو

في الوقت المناسب؛ حينذاك أدرك أنه يجب أن يجتهد لتحقيق هذا الأمل.. أحب زهرة الجمر، وكان يمكنه أن يدوس بأقدامه على كلام المعلم ماسين ليرتبط بالمراهقة الفاتنة، ولكنه لم يفعل.. لقد شعر بأنه يحمل آمال الأمازيغ جميعِهم على عاتقه، وأدرك بحسّ ملْهم أن هناك أشياءَ عظيمة تتعلق بحياة الشعوب والمجتمعات تفوق في أهميتها حياة فرد، أو مشاعر فرد واحد. الشعب الأمازيغي تحمّل بمضاضة المَيْز الذي يمارسه الرومان، وقنع بالتعايش السَّلبي معهم في أحسن الأحوال، وسكن الجبال وهوامش المدن... الشعب الأمازيغي شعب مُسالِم لا يحمل السلاح إلا مضطرّا. وحين يشتد الظلم عليه، فإن هذا الشعب ينفجر كالبركان، ويتحول مقاتلوه إلى مقاتلين أسطوريّين لا أحد يستطيع الوقوف في وجوههم. لقد سمع أنير عن البلاء الحسن الذي أبْلاه سكان جبل الأمازيغ في معركة الذئاب، ولكنّ قلبه يوجعه؛ لأن حاكم المدينة وأمناء وأعضاء بناية الرئيس لم يُكافِئوا هؤلاء المقاتلين الأصلاء بأي شيء!. لقد تركوهم في الجبل، يعيشون حياة فيها الكثير من الذل والمهانة.

أريد حبًا وحشيًا، ليحطم نومي الخفيف الكسول،

إن ثقلي ليس الوحيد الذي تحمله أغطية السرير.

ثم استعد للقتال ودعْ حبيبتي تدمرني،

إذا كانت واحدة قادرة على ذلك، وإلا سآخذ اثنتين.

زيارة سيفا والأخيرة

وقفت السيدة جيزيا في فناء كوخ انتصب في أعلى نقطة من قمة جبل الأمازيغ. كانت تسرح في ذلك الكوخ بعض السلاحف البرية الصغيرة، وبضع قطط، وثعابين غير سامة تتلوى على شجرة منخورة وميتة. كان فناء الكوخ يطل من جهة على الشروق، ومن جهة أخرى على الغروب؛ من خلال كوّتين فُتحتا في اتجاهين معاكسين. وكانت لحظات الشروق والغروب هي اللحظات التي تؤدي فيها السيدة جيزيا طقوسها اليومية الغريبة؛ فترى من خلال الغروب الأخبار السيئة المقبلة، وترى من خلال الشروق الأخبار التي تحمل البِشر والخير. وكانت السيدة جيزيا تشْرُد في تأملات وصلوات مغرقة في العمق لإلهة ثفوشت. تقودها أحيانًا تلك الصلوات إلى نوع من الصرع الصاخب لا تستيقظ منه إلا مع

الصباح، وقد لطخ جسدها العرق، أو تجد نفسها في غمرة هدوء يجمدها طوال الليل؛ فييبس جسدها العاري الملتصق بجدار الكوخ المبني بالقصب والعيدان، ورأسها يملأ الكوة، ولا تستفيق من موتها المؤقت إلا عندما تشعر بدفء الشمس يلفحها ويعيدها إلى وعيها، أو عندما تشعر بأنوار الشمس المشرقة خلف الغمام تلامس أعماقها بوداعة كاملة الصفاء.

ثبتت السيدة جيزيا مرآتين؛ الأولى جهةَ الشروق، والثانية جهة الغروب.. وعرّت جسدها كاملاً؛ كما تفعل دائما عند كل لحظة غروب أو شروق، وظهرت ملامح جسدها المتحفزة مختفية تحت ظلال الغروب الكثيفة، والظلام الأول لليلٍ بدأ ينزل بطيئا ناثرا ثقله بهدوء. كانت قد أشعلت قناديل قبل لحظات ستظل مضيئة مع استمرار غروب الشمس، ومع ظل وظلام الفناء، الذي يصبح- في الأخير- فضاء غريبًا يجمع كل المتناقضات في الآن نفسه. كان شعر السيدة جيزيا الطويل، الملقى على ردفيها المدورين، والملون بألوان نباتية، تتكون أساسًا من ماء شقائق نعمان مركز وقشور رمان، مما يجعله يكتسي لونًا عجيبًا ومهيبًا. ويبدو جسدها، الذي تختفي ملامحه تحت ظلال داكنة، منتصبًا وشامخًا أمام المرآة، بهيئة امرأة منبعثة من زمن عتيق لا يحد.

تتماهى السيدة جيزيا مع محيطها وقت استغراقها في صلاتها العجيبة، وتتوحد مع الكائنات والأشجار والتراب والحجارة القريبة منها؛ فتصبح شيئًا يجمع في نفسه كل العناصر الموجودة على

الأرض، وتتعايـش مـع مختلـف المخلوقـات التـي تعيـش فـوق هــذه البسـيطة، وحـشرات متنوعـة تمـلأ الكـوخ في الصيـف، وتحـط الطيـور عـلى السـطح، وترعـى بضعـة كائنـات في الباحـة الضيقـة؛ بحيـث كانـت تلتـف في تلـك الأمسـية بالـذات ثـلاث أفـاعٍ عـلى سـاقيها، وتلتـوي عـلى فخذيهـا، وتحيـط بخـصر السـيدة جيزيـا كحـزام مبرقـع يطلـق لمعانا يشـبه حراشـف سـمك، وتتـوزع عناكـب وعقـارب - صغـيرة وكبـيرة - عـلى سـاعدها وعنقهـا. عـلى حـين تظـل القطـط والسـلاحف تتجـول في فنـاء الكـوخ بحيويـة غـير معهـودة.

اسـتمر وهـج الشـموع يتراقـص، مغطّيًـا جسـد السـيدة جيزيـا بلـون أحمـر وكأن النـار تـكاد تشـب فيـه.. وبـدت عـدة صـور مضطربـة تتحـرك داخـل المـرآة التـي كانـت تقـف أمامهـا السـيدة جيزيـا؛ صـور تنقـل الضـوء والظـلام المنعكـس مـن كل شيء في الفنـاء.

رددت السـيدة جيزيـا كلامًـا مبهـمًا؛ كلامـا يختـزل كل لغـات الدنيـا في حـروف قليلـة مصحوبـة بعويـل عجيـب، وكانـت تخاطـب بكلامهـا أرواحـا بعيـدة، وتـرى بواسـطته أشـياء في الحـاضر والمسـتقبل. لقـد بـدا لهـا، وسـط غبـار أحمـر كئيـب، رجـل أعـرج، أمازيغـي نبيـل، يقبـل مـن مـكان بعيـد، وكان مجهـدًا وحزينًـا، ولكنـه - في الوقـت نفسـه - كان يحمـل في دواخلـه أمـلاً لا يُحـد. أشـفقت عليـه السـيدة جيزيـا.. بـدا لهـا تعيسًـا جـدًا، ويتبـع وهْمـا لـن يظفـر بـه مطلقًـا.. هكـذا تقـول النبـوءة التـي تمنـت السـيدة جيزيـا أن تخيـب هـذه المـرة.

صرخـت صرخـة مدويـة؛ فتشـققت المـرآة، وراقبـت بقايـا أشـعة

الشـمس الهاربـة نحـو الغـروب التـام. وبعـد وقـت، ألْفـت نفسـها وسـط ظـلام لا يكـسر حدّتـه إلا القناديـل التـي تشـتتُ نـورًا قليـلاً هنـا وهنـاك. شـعرت السـيدة جيزيـا بحـزن، وانتابهـا قلـق مهـول.. ورأت أشـياء مروعـة في الأفـق، ولم تسـتطع تحديـد شـكل هـذه الأشـياء المخيفة، ولكنهـا أيقنـت أن الأمـور لـن تسـير كـما يجـب بعـد اليـوم، وأنـه سـيأتي وقـت تتغـير فيـه أشـياء كثـيرة، وفي لحظـةٍ لم تسـتطع التقاطهـا بـأي شـكل مـن الوضـوح الممكـن.. رأت فقـط لونًـا أسـودَ يحـوم أو يحتـوي فضـاء حـي جبـل الأمازيـغ.

انـزوت السـيدة جيزيـا في ركـن الكـوخ، وتلفعـت بكتـل الظـلام الكثيـف الـذي سـقط مبكـرًا في تلـك الليلـة الشـتوية البـاردة. لقـد أصبحـت بعيـدة عـن القناديـل التـي كانـت تنـير التشـققات في المـرآة؛ تلـك التشـققات التـي كانـت، باسـتمرار، تعكـس صـورًا متباينـة وغـير واضحـة. اسـتبدّ بالسـيدة جيزيـا هيجـان لم تسـتطع التحكـم فيـه. لم تقـاوم تلـك الرغبـة الجامحـة في معرفـة أكثـر ممّـا رأتـه في المـرآة حـول مسـتقبل أرتـو.. لقـد تبيّنـت فقـط رجـلاً أمازيغيًـا نبيـلاً يُقْبـل مـن بعيـد، ولكـن النبـوءة توقعـت لـه الخيبـة في نهايـة الأمـر.

صرخـت مـرة أخـرى صرخـة مدويـة. سـحبت الثعبـان الملتـفّ عـلى عنقهـا، وقطّعتـه نصفـين بيديهـا، فسـال دمـه عـلى أصابعهـا، وأخـذت تلعـق ذلـك الـدم بنهـم عجيـب. فـرّت القطـط مـن فـوق السـور، واختفـت السـلاحف ببـطء، وتسـللت الثعابـين الأخـرى مختفيـة في جحورهـا. نهضـت السـيدة جيزيـا، والتقطـت سـلحفاة كانـت تبتعـد

عنها هاربة. قطعت رأس السلحفاة بخفة ماهرة، ثم مضغته، وسمعت العظام تتهشم في فمها، وكسرت بأصابع يديها القويتين قوقعة السلحفاة، وأخذت بطقوسية عجيبة تمصّ دمها ولحمها بلهفة وكأن بها جوع أيام طويلة.

خيم ظلام كثيف، وأشعلت السيدة جيزيا نارًا وسط فناء كوخها، وبدا جسدها المجعد -الذي لم يفقد من أنوثته شيئًا رغم تقدمها في السن- مثيرًا، ويفرز رغبة لا تقاوم. جلست، وانتصبت حلمتيها جرّاء رغبة جنسية اجتاحتها، واشتعلت في جسدها كحريق بارد. ورمتْ بها تلك الرغبة إلى زمن غابر مضى عندما تزوجت في عمر صغير، وعندما علّمها زوجها سيفاو، الطاعن في السن آنذاك، فنون قراءة الطالع، وفنون صناعة الجنس.. لقد كان فحْلاً يضاجعها خمس مرات في الليلة الواحدة على الأقل، رغم أنه كان في آخر أيام عمره.

تعلمت السيدة جيزيا من زوجها الوحيد في الحياة، الذي مات بعد خمسة أشهر فقط من زواجهما، كيف تستطيع إشباع رغباتها الجنسية بأنجع الطرق، التي لا يمكن لرجل أن يمنحها إياها. لقد كانت تستعيد ليالي زواجهما الماتعة، والزواج المبهر الذي باركته الإلهة ثفوشت، ذات ضحى ربيعي مغمور بدفء شمس ساطعة وسط سماء زرقاء خالية من الغيوم والطيور والرياح، جنب بحيرة يتصاعد بخارها الأحمر الحار؛ فيغمر الجسدين العاريَيْن بمزيد من الحرارة والرغبة؛ لتتحول غرائزهما

إلى بركان هادر يفجر جسديْهما، ويغمرهما بمتعة وكأن لا نهاية لها.

أبلغها سيفاو، وهو يلهث، بإيحاء عميق ارتجت له أوصالها الداخلية عندما وصلت إلى ذروة اللذة التي هزتها هزًّا عنيفا، بأنها لن تستطيع بعْدُ أن تمارس الجنس، ولن تشعر بغريزته أبدا، ولكنها- في المقابل- لن تعيش عمرًا لتفكر في الجنس ومتعه، وستركز كامل اهتماماتها في الأحداث التي ستجري بالقرب منها، ولكنها لن تستطيع فعل أي شيء لتغيير تلك الأحداث، كما أنها- خلال هذه الفترة- ستحافظ على أنوثتها المشهية، ولن تفقد جاذبيتها، ولن تستطيع التنبؤ بشيء؛ لسبب بدا معقولًا. لقد قرر سيفاو أن يموت.. موته الأول كان مجرد موت تجريبي مارسه في واقع وفي بُعْد آخر، ورافق فيه أرواحا تشبه روحه الهائمة الباحثة عن حقيقة مستحيلة؛ حقيقة تتمثل في خلود سرمدي، ولكنه فشل، وتبيّن له أن الخلود يتجسد في الفناء النهائي؛ لأن البقاء، بكل صيغه المختلفة، يلغي الخلود كقيمة وكجوهر في الحياة.

نامت السيدة جيزيا تلك الليلة مقرفصة في الركن الذي كانت تجلس فيه عارية. وفي الصباح أفاقت، فوجدت جسدها ملطخًا بذرق العصافير، وبالندى الصباحي الرطب، وبوريقات أزهار شجر سرو مبللة بالندى رماها الليل من أمكنة بعيدة.

أنشدْ أغنية النصر،

وردِّدْ الغناء من جديد؛

فالطريدة التي بحثتَ عنها طويلًا وقعت في الشّراك.

الطريدة والصياد الماهر

تناول أنير وجبة العشاء مع تيرينا، وظل منتبهًا لعله يلتقط أي إشارة تدل على رغبة الفتاة الجميلة في التقرب إليه، لكنه وجدها عادية كما كانت دائماً.. لم يَزد اهتمامها به، ولكن ذلك الاهتمام أيضًا لم ينقص. مع ذلك، بدا واضحًا أنها تخبّئ في أعماقها مشاعر حب ملتبسة نحوه، ولكن لم ترْق تلك المشاعر لتتحول إلى ما تصوره ليلة أمس من كونها تحاول الاقتراب منه حميميًا. الأمر الذي دعاه ليعيد التساؤل عمّا حدث في غرفته أثناء وجوده في المكتبة بالليل. حاول أن يفكر في جميع الاحتمالات، واستقر اقتناعه- في النهاية- على كون تيرينا دفعها فضول غريب لمعرفة عالمه الذي بدا لها متميزًا، أو ربما يحتوي على أسرار ما.

ودّع تيرينا، ثم صعد إلى الطابق الثاني. كان مرهقًا بعدما كان قد

اشتغل اشتغالاً شاقًا يومين من دون أن ينام إلا نزرًا يسيرًا. بدّل ملابسه، وارتمى على السرير. وبعد أنْ فكّر في أشياء كثيرة، وبعد أن وجد نفسه- في الأخير- لا يفكر في أي شيء محدد، جرفه النوم بسرعة. في الخارج، كان هناك أربعة رجال يُرابطون حول المنزل، يترأسهم عن بُعْدٍ السيد ماريوس، الذي أعدّ خطة مُحْكمة لاغتيال أنير.. خطة لا يمكن للشاب أن يفلت منها في كل الأحوال هذه المرة.. هكذا خاطب السيد ماريوس الفرسان الثلاثة، وهو يشرح لهم الخطة:

- سيدخل أولًا الفارس ميركو.. إنه يعرف خريطة المنزل جيدًا.. لقد دخلها ليلة أمس، وقضى فيها الليل كله تقريبًا. سيحاول بمفرده إنجاز مهمة قتل أنير، وإذا فشل في ذلك سيتبعه كيليو وتوباو. أعتقد أن شابًا بربريًا، يتميز بالذكاء والخبرة في علوم الحياة والطب والفلسفة، لن يكون أيضًا مقاتلاً من الطراز الذي يمكنه من مجابهة ثلاثة فرسان متمرسين، من أشرس جند أرتو، وأكثرهم تدريبًا.

كان السيد ماريوس قد بثّ عيونًا كثيرة تعقبت خطوات أنير طَوال اليوم، فأكدت له أنه موجود داخل منزله، ولم يغادره. وكان موقنًا أن الموقف أصبح على النحو الذي تمنّاه، وأنْ لا شيء سيقف في وجه القضاء على أنير. أشار السيد ماريوس إلى ميركو بفتح الباب الخارجي. فتح ميركو باب المنزل بهدوء، ودخل بخطوات حذرة كما المرة السابقة. صعد الدّرْج شاهرًا سيفَه. بدأ أنير في تلك

اللحظـة يتملمـل في رقدتـه، وشـمّ، وهـو نائـم، رائحـة مـوت تقـترب. اضطـرب عـلى نحـو مرتبـك، ورأى كـما لـو أنـه في حلـم حقيقـة المعلـم ماسـين يقـول لـه:

- لن يقتلك أحد إلّا إذا كنت أنت من سيساعده على ذلك.

انتفـض فزعًـا مـن النـوم، ورأى في تلـك اللحظـة بالـذات بـاب الحجـرة يفتـح، ثـم رأى طيـف شـخص يدخـل، ففكـر لأول وهلـة في تيرينـا، ولكنـه سرعـان مـا تبـيّن ضخامـة الطيـف. ارتـج مـن الداخـل، ورسـم عـدة تخيُّـلات، وبـدا أن الخيـارات أمامـه ضيقـة جـدا، وحتـى سـيفه لم يكـن في المتنـاول! ولكنـه مكـث هامـدا في مكانـه، مـن دون أن يحيـد ببـصره عـن الطيـف الـذي أصبـح أقـرب إليـه. وفي اللحظـة الحاسـمة، أدرك أنـير أن عليـه أن يسـتخرج طاقـة جسـمه الكاملـة، وفكـر أن بمقـدوره أن يكـون أسرع في رد الفعـل مـن الطيـف الـذي يبـدو أنـه سـيهاجمه بـكل مـا يملـك مـن قـوة. ظلـت عـين أنـير تراقـب الطيـف، وظـل الطيـف يقـترب بحـذر شـديد شـاهرًا سـيفًا. وعندمـا أصبـح طيـف الفـارس المجهـول قريبًـا جـدًا مـن جسـد أنـير، رفـع الفـارس السـيف عاليًـا، ثـم هـوى بـه بـكل قـوة؛ فغـار السـيف بنحـو نصـف ذراع أو أكثـر في السريـر. وفي تلـك اللحظـة بالـذات، شـعر الفـارس بأنـه يُرمـى فجـأة عـلى الأرض، وشـعر بـذراع قويـة تطـوّق خاصرتـه، وتشـلّ حركتـه شـلًّا تامًّـا، قبـل أن يجـد نفسـه قـد قيّـد مـن يديـه ورجليـه، وكـوم في الأخـير بمـلاءة مـن مـلاءات الفـراش.

رفـع أنـير في يـده سـيف الفـارس، واستشـعر خطـرًا متزايـدًا يحـوم

حــول المنــزل. أطــل بهــدوء مــن وراء ســتار نافــذة الحجــرة، لكنــه لم يلاحــظ شــيئًا غــير عــادي. واســتمرت رائحــة المــوت تتعاظــم مــن حولــه. وفجــأةً اقتحــم الحجــرة شــخصان غريبــان. كان الوقــت أضيــق مــن أن يســتطيع التفكــير في كيفيــة رد الهجــوم، الــذي يبــدو أنــه ســيكون كاســحًا. ظــل واقفًــا وســط الحجــرة، والســيف في يــده. تحــرك شــخص وأخــذ الميمنــة، وذهــب الثــاني إلى الميــسرة، وأصبــح أنــير عمليًــا بــين حــدّيْ ســيفي الفارســين.

في لحظــة متزامنــة انهالــت عــلى أنــير ضربــات الســيفين مــن الجهتــين، ولكــن أنــير كان مــن السرعــة بحيــث رمــى جســمه بعيــدًا. وفي اللحظــة التــي ســقط الســيفان في الخــواء، اســتطاع أنــير، الــذي أصبــح يمــلأ البــاب، أن يطيــح ســيفًا مــن يــد الفــارس الــذي كان عــلى يمينــه. وحــين حــاول هــذا الفــارس التقــاط الســيف، أسرع أنــير، ووضــع ســيفه عــلى رقبــة الفــارس، وأمــره أن يبتعــد عــن الســيف. حــاول الفــارس الآخَــر أن يُنــاور مــن الجهــة اليــسرى، لكــن أنــير خاطبــه بصــوت هــادئ:

- لا تكــن أحمــقَ.. ارْمِ مــن يــدك الســيف، وإلا ســتكون نهايتــك حتميــة.

فــزع الفــارس، ولكنــه حــاول المقاومــة، وعندمــا حــرك ســيفه باتجــاه أنــير، اســتطاع هــذا الأخــير أن يرمــي بــه بعيــدًا، مــن خــلال حركــة بارعة مــن ســيفه. وفي تلــك اللحظــة، تبــيَّن أنــير أن الرجــال المُعْتديــن ينتمــون إلى فرســان أرتــو؛ فقــال مخاطبًــا الفــارس الملثــم:

- كبِّــلْ رفيقــك بإحــكام. لا يجــب أن تخــاف. لــن أقتلَكــم عــلى أيّ

حال.. سأردّكم ثلاثتكم إلى مَنْ بعثكم آمِنين، بشرط أن تعلنوا لي عن الذي أمركم باغتيالي، وما السبب الذي دعاه إلى ذلك؟

سارع الفارس الملثم، فكبل رفيقه المستسلم تمامًا. ولما انتهى طلب إليه أنير أن يسلمه ملاءة من الملاءات الزائدة الموضوعة فوق الرف، ولما فعل، كبله أنير، وأحكم تكبيله. وكذلك فعل بصاحبه إلى درجةٍ لم يعد بمقدورهم سوى التنفس... تقريبًا.

- والآن ليقل أحدكم من بعث بكم لاغتيالي؟

أجاب أحد الفرسان:

- إنه السيد ماريوس.

- السيد ماريوس!. السيد ماريوس يريد قتلي!. لماذا يريد قتلي يا تُرى؟

- صدِّقني يا سيدي.. لا أعرف!

- فليعترف أحدكم، وإلا قتلتكم جميعًا.

صاحوا برعب:

- لا نعرف يا سيدنا.. قال لنا فقط: اقتلوه، ولم يكن من حقنا أن نسأل لماذا.

فهم أنير أن الفرسان الملثّمين لا يستطيعون معرفة لماذا يريد السيد ماريوس اغتياله؛ فمثل هذا السر الخطير لا يمكن إفشاؤه لفرسان عاديين. بل أكثر من ذلك احتار أنير لماذا يريد السيد ماريوس

اغتيالـه! ولكنـه-في الأخـير- لم يجـد كثـير اسـتغراب في الأمـر؛ فهـو أمازيغـي، والسـيد ماريـوس رومـاني.

المواجهة

كان الفجر يقـترب. لم يكمـل أنـير نومـه. ظـل مشـغول الذهـن بهـذه المؤامـرة الخطـيرة، ودار بخاطـره مـا قالتـه لـه سـانيس يومـا:

- ستفهم كل شيء في الوقت المناسب.

لم يكـن متأكـدًا مـن أنهـا كانـت تقصـد مثـل هـذا الأمـر، واسـتغرب كيـف لم تحـذره إذا كانـت عـلى علـم. ولكـنّ اسـتغرابه سرعـان مـا خفـت بشـبه إحبـاط حـين تبـين لـه أن الأمـيرة سـانيس لا توليـه- في الواقـع- أي اهتـمام يذكـر. شـعر بيـأس، وسـاءل نفسـه بتأنيـب: مـاذا يفعـل هنـا، وسـط قـوم ليسـوا هـم قومـه، ولـن يقبلـوا بـه وسـطهم أبـدًا، بـل أكثـر مـن ذلـك لـن يقبلـوا وجـوده في مـكان هـو حِكْـر عـلى الرومـان وحدهـم؟! مكانـه الطبيعـي، في نظـر هـؤلاء الوافديـن مـن وراء البحـر، هـو جبـل حـي الأمازيـغ.

عندمـا سـطعت الشـمس، وعندمـا تبـين لأنـير أن السـيد ماريـوس سـيكون في مكتبـه، وبعـد أن تنـاول الفطـور مـع تيرينـا، التـي غـادرت بعـد ذلـك، أمـر بحِصانـينْ، ثـم وضـع فوقهـما الفرسـان المكبلـين. أخـذ في يـده زمـام الحصانـين، وتوجـه بخطـوات هادئـة إلى بنايـة الرئيـس. وخـلال الطريـق التـي قطعهـا، لم يسـتطع أن يتجاهـل نظـرات

الاستغراب التي كانت تتطور أحيانا إلى نظرات استنكار من المارّة، بل هناك من قال ضاحكًا:

- هل هم للبيع؟. كم ثمنهم جُمْلة؟ أمنحك خادمة حسناء.. بربرية.

ثم قال آخر مستغربًا:

- بربري يقود، بمثل هذا الإذلال، فرسان أرتو، الذين أنقذوها من خراب محقق في معركة الذئاب!!

ولكن أنير لم يبالِ، بل استمر يجرّ الحصانين، وفوقهما الفرسان الثلاثة مكبلين. وصل بناية الرئيس، ولاحظ دهشة حارسيها. لم يستأذن، ولم يلق التحية. ودخل البناية، ووقْعُ حوافر الحصانين يدقّ الأرضية الرخامية، ويتردد صداها قويًا في كل جزء من البناية. توجه إلى مكتب السيد ماريوس، ووقف عند بابه، ولكن السيد ماريوس، الذي غادر ميدان المؤامرة مبكرًا، كان قد خرج يَسْتطلع الأمر حين سمع الجَلَبَة والحركة وسط البناية. استبدّت بالسيد ماريوس دهشة غامرة. كانت عيناه حمراوَيْن؛ بسبب التوتر الشديد الذي عاناه ليلة أمس، وبسبب أنه لم ينم الليلة كاملة، مع أنه كان مرهقًا. نظر إليه أنير، وحينذاك أدرك صدق الفرسان؛ فكل شيء في السيد ماريوس كان يشهد أنه هو الذي كان وراء المؤامرة. خاطبه أنير بمزحة وقعت مُرّة في نفس السيد ماريوس:

- في المرة المقبلة، إذا أفلحتَ في اغتيالي، سأعرف- على الأقل- أنك، أنت يا سيد ماريوس، مَنِ ارتكب الجرم.

انتزع السيد ماريوس من بين شفتيه ابتسامة ميتة، وقال بصوت مرتجّ:

- ما هذا المشهد الذي تراه عيناي؟ هل ارتكب هؤلاء ما يستحق سجْنهم؟ هل يكونون قد سرقوا شيئا؟

ضحك أنير بخبث، وقال وهو يتكئ على الجدار، وزمامَا الحصانين في يده:

- يجْدُر بكَ أن تسألهم عمّا فعلوه ليلة أمس. لقد أحضرتهم لتنظر في أمرهم.

قال ذلك، ونزع من على وجوههم الأقمشة التي كانوا يتلثمون بها:

- هيّا قولوا للسيد ماريوس ماذا جئتم تفعلون في حُجْرتي؟

قال السيد ماريوس بمراوغة ماكرة:

- هل وصلت بهم الوقاحة إلى اقتحام حجرتك يا أنير؟. أين كنت؟ ومن ألقى عليهم القبض؟. يجب أن أكافئ الحراس الذين ضبطوا هؤلاء الأوغاد في حجرتك.

ضحك أنير، ثم قال وهو يعبث بلجام أحد الحصانين:

- لا تستهن بقدراتي يا سيد ماريوس؛ فأنا أيضا فارس أمازيغي تدرّبت على القتال بمهارة لا تضاهَى.. صحيح نحن الأمازيغ لا نستعمل السيوف إلا نادرًا، ونجد في الرماح وسيلة أنجع للقتال، ولكنني- رغم ذلك- استطعت تعلّم أشياء كثيرة في القتال، ومنها المبارزة بالسيف، من معلم أمازيغي بارع اسمه ماسين.

- هـذا جيـد يـا أنـير! أعـرف ذكاءك ومهاراتـك، ولكننـي لم أقـف عـلى قدراتـك القتاليـة إلا الآن كـما تـروي.

- ولقـد لمسـتها بنفسـك يـا سـيد ماريـوس؛ فأنـت مَـنْ أرسـل الفرسـان لاغتيـالي!

- أتمنـى ألاّ يذهـب بـك الخيـال بعيـدًا! لا صلـة لي بالموضـوع، ويمكنـك أن تسـألهم.

- لـن أفعـل يـا سـيد ماريـوس، فأنـا متأكـد مـن أنـك أنـتَ مَـنْ أمَرَهُـم بقتـلي!

- هـراء يـا أنـير! أنـت أكثـر حكمـة مـن أن تفكـر عـلى هـذا النحـو. لقـد كنـت دائـماً شـابًا نبيهًـا، تعـرف كيـف تـرى الحقيقـة خلـف الأشـياء المظلمـة. وبالتأكيـد، فإننـي أتوقـع بأنـك لـن تصـدّق هـؤلاء الأوغـاد.. سـأعرف كيـف أؤدّبهـم!

- إنهـم مجـرد فرسـان أبريـاء.. لم يفعلـوا شـيئا يسـتحقون عليـه العقـاب.. تلقَّـوْا أمـرًا باعتبـار أنهـم جنـود، وكان عليهـم أن ينفـذوه. إننـي أتفهمهـم.. أتفهمهـم جيـدًا يـا سـيد ماريـوس.

ردد السـيد ماريـوس في نفسـه: «سـتقتل يومـا أيهـا البربـري القـذر، ولـن تعـرف مـن أي جهـة أو وسـيلة سـيأتيك المـوت، سـأمنحك فرصـة صغـيرة لتطمئـن».

غـادر أنـير بعـد أن أنـزل الفـارس المكبـل مـن فـوق حصانـه، ثـم امتطـاه، وخـرج إلى فضـاء المدينـة، وتسربـت إلى نفسـه روائـح بعيـدة

بـدت وكأنهـا تـأتي مـن بلدتـه دريـو، وتغـيرت في عيونـه ألـوان مدينـة أرتـو، فبـدت قاتمـة، وتصـور أشـباحا هائمـة تحـوم فيهـا مـن دون وجهـة محـددة، وبـدت لـه الأمـيرة سـانيس مضمَّخـة بعسـل أسـود، ورأى نفسَـه يلعـق ذلـك العسـل مِـنْ عـلى جسـدها العـاري، وكان طعـم ذلـك العسـل مُـرًّا وغـيرَ مستسـاغ.

أنا سأرشدك،

فشق طريقك بالطيران ورائي؛

عليك أن تتبعني،

وأنا سأقودك في الطريق الصحيح.

لأننا إذا صعدنا عبر أثير السماء نحو الشمس،

فتحت أشعتها سيذوب الشمع،

وإذا اندفعت أجنحتنا قريبًا جدًا من البحر فالريش الهوائي سيبتل في العباب.

تيرينا والبحر

دخلتْ من النافذة نسائم شتاء وديع، في صباح لا يشبه صباحات شتاء أرتو؛ فقد أشرقت الشمس، وجفّت البرك المائية في الشوارع، ونظف العمال كل القذارة التي لطخت ساحة السوق، وأغرقت وسط المدينة بأوساخ وروائح نتنة ظلت منتشرة في فضاء المدينة أيّاما. وتمطّت الأميرة سانيس في مرقدها بهدوء بعدما نامت نومًا مستقرًا، لم تتخلله أي أحلام كالتي كانت تعرض لها في السابق. فهي الآن تعيد المشهد في ذهنها بنشوة عجيبة، ولكنها لم تفهم سببًا لتلك النشوة؛ فقد طلبها أمس فارس عند باب قصر والدها الحاكم أورليوس سيبيو، وأخبرها خبرا رًأى أنه ربما يعني شيئًا للأميرة سانيس:

- سيدتي الأميرة، هناك خبر سري للغاية يتداول بين نخبة من الفرسان.

قالت سانيس مستغربة:

- خبر سري يتداوله نخبة من الفرسان! وما شأني أنا بالخبر.. لا أهتم بالفرسان ولا بأسرارهم؟!

بدا بعض التوتر على الفارس. وبعد أن جاهد موجة من التردد أضاف:

- الأمر يتعلق بأنير.

قالت سانيس بهلع واندفاع تلقائي:

- هل قتلوه؟

- لا يا سيدتي الأميرة.. حاولوا، لكنهم فشلوا.. كانوا ثلاثة فرسان أشِدّاء، اقتحموا عليه المنزل ليلاً وهو نائم، ولكنه استطاع أن يحملهم في النهاية على ظهور الأحصنة إلى مكتب السيد ماريوس، وأودعهم لديه، ثم انصرف.

- ولكن لماذا أخذهم إلى مكتب السيد ماريوس؟!

- لأن السيد ماريوس هو الذي أمر بقتل أنير البربري.

- حسنا!. يبدو هذا الشاب مقاتلًا متمرسًا.

- بالفعل سيدتي الأميرة.. لقد واجه ثلاثة من أشرس فرسان أرتو، واستطاع أن يتغلب عليهم جميعًا، بل أسَرَهم على نحو مثير للدهشة.. كان بإمكانه قتلهم، ولكنه لم يفعل.

بعد انصراف الفارس الذي جاء بالخبر، اكتملت الدائرة في نفس

سانيس.. أنير هو الشخص الذي يمكن الاعتماد عليه، وهو الشاب الذي انتظرَتْه طويلاً.. لم يخيّب ظنها، بل كان حدْسُ قلبها صادقًا، قبل سنوات في بلدة دريو، حينما شاهدته وسط دخان الفحم وروائح ثمر الكستناء.. فتىً يافعًا، جميل الهيئة، يشع منه بهاء مختلف وجذاب. هي الآن تشعر بنبضات قلبها تتسارع.. وجدت أنير في روحها يرفرف مثل تلك الفراشة الجميلة التي أحست بها ذات يوم بعيد، وعلمت أنها تحب، ولم تعرف الشخص الذي تحبه، وظل هذا الشخص مجرد طيف غامق، وصورة متذبذبة وجميلة.. طيف رائق يقتحم أحلام منامها ويقظتها. ولكنه الآن أصبح واقعًا، وأصبح شخصًا بطلاً، تتوفر فيه كل الأجزاء المكوِّنة لدائرة أحلامها حول الشخص الذي يمكن أن تتعلق به. والآن، وفي هذه اللحظة بالذات، فإن أنير يسكن روحها ومشاعرها، ويستحوذ على إعجابها الكامل.. إنه حبها الدائم، ولن تفرط فيه.

استمر شدو طائر دوري يشقشق في الحديقة، وسمعت الأميرة سانيس وقع مِكنسة الحلفاء الضخمة، وهي تجر بقايا الأوراق التي أسقطتها رياح أمس العاصفة من أشجار المشمش والخوخ والرمان من الضيعة، ورمتها إلى الحديقة، وتعالت في الأجواء، بنبرات عذبة، تلك الأغنية الفريدة التي تترنم بها الخادمة بيرينة، حين تكون منهمكة في إنجاز شُغل ما. وشعرت سانيس بيوم جميل، وتسربت إلى روحها رغبة لحياة جديدة لم تتعوّدها.

أعدّت الخادمة بيرينة الحمّام بمجرد رؤيتها لنافذة حجرة

نوم الأميرة سانيس تفتح. دخلت سانيس حوض الماء، ومسّدت جسدها بالصابون الصلصالي الأحمر؛ فتكونت حولها رغوة كثيفة، ونبتت على جسدها البديع تباعًا فقاعات كبيرة وجميلة، وتصورت للحظة وكأن تلك الفقاعات هي عيون أنير، تنظر إليها وإلى جسدها العاري؛ فشعرت بخجل، وابتسمت بدلال وخفر لم يكنا من طبع سانيس إطلاقًا، واكتشفت في نفسها رغبة إلى شيء عجيب لم تكتشفه من قبل، ورغبت في هذا الشيء العجيب، وتذكرت المفتاح الذي قدّمه لها أنير لتراه، والآن تدرك، بحسّ غريزي غامض، معنى ذلك المفتاح ودلالته بالنسبة إلى جسد عار وصريح كما هو الأمر، وهي في هذه الحالة؛ حالة العُرْي الكاملة. إنها تحتاج إلى مفتاح أنير.. هناك قفل لا ينبغي أن يبقى مسدودًا أبدًا.

خرجت الأميرة سانيس، بعدما ارتدت ملابسها، لتتجول قليلًا بجنب النبع ومجرى الماء الرقراق. تأملت أشجار السرو الطويلة. نفذت إلى نفسها رائحة أريجها العَطِر، فوجدت أنها سعيدة، وانتبهت بحسّ غامض إلى أن كل شيء يبتسم، حتى الماء كان يسري بعذوبة في المجرى فوق الأحجار الصغيرة الملونة، وتراب الأرض يطلق أريج فاكهة لذيذة، ورأت الطيور ترقص شادية على نحو مثير للفرح. لكن الأميرة سانيس فجأة رأت شخصين في وضعيةٍ رجّت لها أعماقها رجًّا عنيفًا.. لقد رأت تيرينا وأنير يجلسان بقرب بعضهما البعض، ويضحكان بمودة.

حلم

أفاقت تيرينا من النوم ذلك اليوم في وقت مبكر، وكانت قد حلمت حلماً غريبًا، شاهدت فيه والدها السيد بيكاو يروي لها تفاصيل موته: «انتهى كل شيء يا ابنتي تيرينا.. لم أصمد للّعنات الكثيرة التي طاردتني. قرأت تلك الكتب التي ما كان ينبغي لي أن أقرأها! ولقد دفعت الثمن غاليًا؛ لأنني أمازيغي يا بنيتي.. لأنني أمازيغي.. متُّ لأنني أردت أن أموت، ولقد استجابت إلهتنا لرغبتي. كوني سعيدة في ما بقي من حياتك.. أنير شخص طيّب. اعتني جيدًا بنفسك. نلتقي بعد قليل».. هكذا قال والدها، وهو على هيئته التي رأته عليها في آخر مرة مرتديًا زِيَّ الفلاح المثابر النشيط، ثم تلاشى وانتهى في الظلام.

قررت تيرينا أن تخبر أنير بما رأته في حُلمها، فبحثت عنه في مكتبة بناية الرئيس، لكنه كان قد تأخر عن المجيء إلى العمل على غير عادته؛ فذهبت للبحث عنه في ورشة العجوز كاجي، وفي الوقت نفسه كان أنير في مكتب الضرائب، وسأل عن تيرينا هناك، لكنه لم يجد جوابًا شافيًا، وتبِع أثرها في الأماكن التي يُحْتمل أن توجَد فيها، وزار السيد ماريوس؛ الذي رغب في أن يبدو ودودًا، فتبرع بمعلومة اعتبرها أنير مهمة؛ فقد قال له إنها توجّهت إلى ورشة العجوز كاجي، وكان السيد ماريوس قد أطلق عيونه لترصد تيرينا بعد أنِ انتابه قلق شديد حِيالها. وأخيرًا وصف أحد الحراس لأنير المكان الذي فيه تيرينا.

وجدها قرب منزل الحاكم أورليوس سيبيو.. لقد ظنت تيرينا أن أنير ربما يكون مع سانيس. وقبل أن تقترب من باب القصر، رأته قادمًا من بعيد. وحين وصل إليها، قالت له من الفور إن لديها شيئًا مهماً تريد أن تخبره به، فقال لها إنه بدوره يريد أن يخبرها بشيء. وتوصّلا، بعد قليل من التفكير، إلى أنهما يحملان الأخبار نفسَها؛ فقال لها أنير:

- مات والدك يا تيرينا، وتلك كانت رغبته.. لا ينبغي أن تحزني.

توجَّها نحو الضفة الأخرى من جدول الماء، وجلسا بالقرب من غابة السرو اليانعة على الدوام؛ فتحدث أنير لتيرينا عن حلمه، وكيف أن السيد بيكاو زاره في المنام، وكيف طلب إليه أن يعتني بتيرينا كثيرًا قبل أن تلتحق به في العالم الآخَر، وقال إنه ينتظرها على أحرّ من الجمر، وقال له إن أمّها حزينة؛ لأنها تريد أن ترى تيرينا قريبًا.

ضحكت تيرينا، وقالت بانتشاء:

- أشياء رائعة تحدث! لقد اكتشفت أن جمال الحياة ليس هو دائماً ما نعيشه في الواقع فقط.. قد تكون الحياة أجمل في الموت.. أو في الأحلام.. أو في النوم أيضًا!

سمعا فجأة صرخة دوَّت بالقرب منهما؛ صرخة تشبه صرخة عصفور مجروح. هُرِعا إلى مصدر الصرخة؛ فوجدا الأميرة سانيس منهارة، وقد فقدت وعيها. انخلع قلب أنير. خاف أن تكون قد لدغتها أفعى أو عقرب. سارع وأخذها بين ذراعيه، وركض بها لكي يوصلها إلى قصرها القريب، واستنفر الحراس لجلب أطباء

لمُعايَنة حالتها. في لحظة مباغتة كالبرق، فتحت سانيس عينيها، ونظرت بدفء إلى أنير، وقالت له بصوت هادئ، كما لو أنها في حلم:

- أشعر - رغم كل شيء - بالسعادة، وأنا بين ذراعيك!

جلس أنير عند عتبة باب قصر الحاكم أوريليوس سيبيو حزينًا جدًّا، على حين انصرفت تيرينا لإتمام أشغالها في مكتب الضرائب. أُعْلِنَتْ حالة طوارئ في قصر الحاكم، وتمّ جلب عدة أطباء مشهود لهم بالكفاءة في مدينة أرتو، لكن الأميرة سانيس طردتهم جميعًا، وأخبرت والدتها أنها بخير، ولا تشكو شيئًا يستدعي حضور أطباء. ولقد اقتنعت والدتها؛ لأنها وجدت ابنتها في صحة جيدة. على حين تساءلت سانيس باستغراب:

- كيف اعتقدَ ذلك اللعوب، وهو يرتكب تلك الحماقة، أن انهياري كان بسبب لدغ أفعى أو عقرب؟. ألم يفهم أن تصرفه الجارح لكرامتي هو الذي آلمني؟. يا له من شخص لا يقدّر المشاعر! ولكنها - من جهة أخرى - بدت ممتنّة لأنير، الذي ارتاع حين رآها منهارة. وقدّرت مجهوده حين حملها بين ذراعيه القويتين، ثم أوصلها إلى المنزل، واستنفر الحراس لجلب الأطباء.

- لا يمكن أن يفعل هذا إلا بطل، ولكن ليس بالضرورة أن يكون هذا البطل عاشقًا صادقًا دائماً.

رددت في نفسها بأسى عميق، وبكثير من الشك.

وحين رأى أنير الأطباء يخرجون تباعًا من قصر الحاكم أورليوس سيبيو، سأل أحدهم عن حال الأميرة سانيس:

- إنها بخير.. إنها بخير.. لقد ألمّ بها دُوار بسيط.. هذا كل ما في الأمر.

ولادة جديدة

توجه السيد ماريوس إلى مكتب الضرائب بحجة إعطاء بعض التعليمات لتيرينا، غير أنه - في الواقع - كان يحمل شوقًا حارقًا لرؤية الفتاة التي استحوذت على قلبه، ولم يفهم كيف اسْتُدْرِجَ، بطريقة لم ينتبه إليها، لتتحول إلى موظفة في مكتب الضرائب. وجد تيرينا منهمكة في مراجعة الحسابات، وتدقيقها بالجدّية المطلوبة. أحسّت بوجوده، وسَرَّهَا أن تراه؛ لأنها تحمل له بدورها حبًا كبيرًا وخالصًا؛ حبًا توزعه بمعادلة غريبة بينه وبين أنير:

- عِمْتِ صباحًا تيرينا، كيف حالك؟

- في أحسن حال.. في أحسن حال! وأنت يا سيد ماريوس؟

- سأكون سعيدًا جدًا حين أسمع جوابًا يُرْضيني.

- حسنًا! أنا موافقة على إعطائك جوابًا حاسمًا، ولكن ليس هنا، بل على شاطئ البحر.

- هل أنت جادّة يا تيرينا...؟!

- نعم، أنا جادة يا سيد ماريوس.

- تعرفين أن البحر بعيد من هنا، ولكي نصل إليه نحتاج إلى ركوب جوادين، ولن نتمكن من الوصول إلى الشاطئ إلا مع منتصف النهار.

- مُر جنودك يجهزوا لي جوادًا؛ فأنا ماهرة في ركوب الخيل.

لم يتردّد السيد ماريوس في تلبية رغبة تيرينا، التي بدت له رغبة غريبة وغير مفهومة، لكن تيرينا كانت تفكر على نحو مختلف؛ فلقد استحضرت الحلم الذي زارها فيه والدها بيكاو، واستحضرت قصة ولادتها في البحر. وبدا أن كل شيء يحدد مصيره بالنسبة إليها في البحر؛ وهكذا انقادت نحو هذه الرغبة بطمأنينة، وبسكينة قلب لم تعرف لها مثيلاً منذ قدومها إلى مدينة أرتو، وبعد غيابها الطويل عنها.

أخذ جوادا تيرينا والسيد ماريوس يخبّان في اتجاه البحر. ولقد غادرا المدينة من البوابة الجنوبية للمدينة، واستغرب حراس البوابة لرؤية السيد ماريوس وهو يتوجه بصحبة فتاة أمازيغية حسناء غير معروفة كثيرًا، وحدهما بطريق لا يمكنه إلا أن يكون باتجاه البحر. سارا في جو جميل، ولم تكن هناك إلا سُحُب قليلة تعبر السماء بين الفينة والأخرى لتغطي الشمس قليلاً، ثم تعود إلى الظهور من جديد ناشرة الدفء والنور على التراب الأحمر، والأعشاب التي بدأت تنمو بعد سقوط المطر في الأسابيع الماضية. واستمرت البقايا الأخيرة للطيور المهاجرة تعبر مجال السماء بأسراب طويلة. شعرت

تيرينا بنشوة غامرة، ولم تنتبه إلى كلام السيد ماريوس، الذي توقف عن توجيه أي حديث إليها، مُحْتَرِمًا رغبتها غير الواعية في الصمت. لكن السيد ماريوس ما فتئ يلتفت- بين الحين والآخر- إلى تيرينا، مُستطلِعًا حالتها العجيبة؛ فقد كانت تزداد انشراحًا كلما اندفعت نحوهما نسائم البحر، وكلما شَمَّاً رائحة الزبد المشبع بالملح وأسماك الصيادين. ولاحظ السيد ماريوس باستغراب التوهج الجميل، الذي انفرجت عليه أسارير تيرينا؛ فقد تحول وجهها المدوّر المليح إلى شبه فاكهة خوخ مُشربة بألوان قرمزية مدهشة. وتطاير شعرها الأسود المنسدل على ظهرها مع الريح راسماً حولها لوحة بديعة، لم يستطع السيد ماريوس أن يتمالك إعجابه الشديد بألقها وجاذبيتها التي لا تقاوَم.

بعد سير صامت طويل، لم يكن يُسمع فيه إلا خَبَب الجياد، بدأ البحر يظهر من بعيد؛ بحر أزرق صاخب، واندفعت موجة من الريح محمَّلة برائحة الطحالب البحرية، دافِعَةً ثياب تيرينا البيضاء إلى الخلف؛ فضغطت على ثدييها المدوّرين، ورسمت خاصرتها بسحر جارف. وغرق السيد ماريوس في غلالة أحلام غيّبته عن كل شيء، ولم يستيقظ من غفوته العجيبة إلا حين شعر بحوافر جواده تغوص في رمال الشاطئ. نظرت تيرينا إلى البحر، الذي هدأ فجأة، بعيون مبهورة، وكأنها ترى البحر لأول مرة، ودارت في فمها كلمات كادت تخرج مبعثرة ومن دون معنى، ولكنها استطاعت لجمها بقوة جبّارة. تَرَجَّلَت مِنْ على الجواد، ثم سلَّمت زمامه للسيد ماريوس، وقالت له بصوت حالم:

- السيد ماريوس، سيبدأ كل شيء هنا، وسينتهي كل شيء هنا، سأدخل البحر لكي أؤدي طقسًا كان يجب أن أؤديه منذ مدة طويلة.

استجاب السيد ماريوس لطلب تيرينا، فتسلم زمام جوادها من دون أن يترجل عن جواده، ونزعت تيرينا حذاءها، ثم بدأت تسير فوق الرمال وفوق ماء البحر بقدمين حافيتين. استمرت تمشي بهدوء مكسّرة سطح البحر الساكن برفق، وكان الماء قد وصل إلى ركبتيها، وواصلت المشي إلى أن غيّب الماء نصفها.. حينذاك أصبحت بعيدة عن السيد ماريوس، لكن السيد ماريوس ظل هادئًا، وهو ينظر بذهول إلى هذا الطقس العجيب، وما سيفضي إليه. وفي النهاية، كان ماء البحر قد غَيَّب كتفي تيرينا، ورفع شعرها الذي أصبح يسبح خلفها، وما لبثت- في الأخير- أن اختفت تمامًا في البحر، ولم يتبقّ إلا شعرها يتماوج مع الماء قبل أن يغيب بدوره. تابع السيد ماريوس المشهد بروع، وأحس بذنبٍ فاجأه على حين غِرّة.. سيكون مسؤولًا عن مصير تيرينا بشكل أو آخر، ولن يستطيع إراحة ضميره أبدًا. واصل السيد ماريوس تتبُّع أثر الماء المتموّج الذي كانت تسير تحته تيرينا كسمكة تسبح بهدوء في خط مستقيم، لا يظهر منها أي جزء إلا لون غامق طويل يشبه الظل كان طافيًا كحلم كئيب فوق الماء. وبدأ- في الأخير- الأثر المتموج لسير تيرينا تحت الماء يختفي شيئًا فشيئًا إلى أن انتهى تمامًا. راقب السيد ماريوس البحر لعل تيرينا تظهر فيه من جديد، ولكن البحر كان في تلك اللحظة أكثر هدوءًا من أي وقت مضى،

وحتـى النـوارس هـدأت، ولم يعـد يُسْـمَعُ لهـا شـدو، واسـتقر البحـر تمامًـا وكأنـه صفحـة مـن سـماء صافيـة متجمـدة.

استفاق السـيد ماريـوس مذعـورًا مـن ذهولـه. لم يعـرف كيـف يتـصرف حيـال الموقـف! لقـد مـر وقـت طويـل مـن دخـول تيرينـا إلى البحـر، ولـن تكـون عـلى قيـد الحيـاة إلا بمعجـزة، ومـع ذلـك ظـل ينتظر بصـبر حـدوث تلـك المعجـزة، ولكـن طـال انتظـار السـيد ماريـوس دون جـدوى. ربـط - في الأخـير - زمـام جـواد تيرينـا عـلى صخـرة بحريـة، وتركـه هنـاك لكـي تسـتطيع العـودة عـلى متنـه إلى أرتـو في حـال خروجها المعجـز مـن البحـر، وردد في نفسـه:

- كأنهـا الإلهـة فينـوس[1] تولـد مـن جديـد في البحـر، وقـد تظهـر وسط محارة على شواطئ قبرص، رغم أن تيرينا مجرد حسناء بربرية.

عـاد السـيد ماريـوس مسرعًـا بجـواده نحـو أرتـو. شـعر بهـواء بـارد يدخـل نفسـه العميقـة، ورعشـة تـسري في عظامـه المتراخيـة، وكان نـورس يصـدر شـدوًا حزينًـا يرفـرف فوقـه، ولم يفـارق رحلتـه المتعبـة مـن البحـر إلى مدينـة أرتـو، التـي وصلهـا قبـل غـروب الشـمس بزمـن قليـل. توجـه فـورًا إلى مكتبـة بنايـة الرئيـس. كان ينـز بعـرق مـن ملـح، وكأنـه اسـتحم في زبـد البحـر، وكان شـعره، الـذي لم يبْـدُ قـط أشـعث أو فوضويًـا، قـد اسـتيقظ وتطايـر كعـش لقْلـق، بينـما شـحب وجهُـه، وذاب زيـت الزينـة الـذي كان يدهـن بـه بشرتـه.

- «أرجـو أن تكـون بخـير يـا سـيد ماريـوس».. قـال أنـير، وهـو

(1) فينوس: *إلهة ولدت في البحر، وجاءت إلى شواطئ قبرص؛ بحسب الاعتقاد الروماني.*

يضع أحد المخطوطات القديمة في الدرج؛ فأجاب السيد ماريوس، وهو يجلس على الكرسي، والإجهاد ينهكه، ومسحة من الحزن العميق تغلف سحنته التي شحبت، ولم تعد متوهجة بالفتوة وروح التحدي وعنفوان الحياة التي كانت تغمره دائماً:

- تيرينا غابت في البحر!

بعد لحظة تفكير حاول فيها أنير استيعاب كلام السيد ماريوس، أجاب من غير أن يبدو عليه أي تأثر يذكر:

- كنت متأكدًا من أنها ستعود إلى البحر يومًا ما، لكنني لم أتوقع أن يحدث ذلك بهذه السرعة!

ردد السيد ماريوس مفجوعًا، وكأنه يُخرج أحشاءه من روحه:

- إذًا كنت تعلم بأن تيرينا ستُغْرِق نفسَها في البحر!

- ليس تمامًا، ولكنني كنت أتوقع حدوث هذا الأمر.. تيرينا جاءت من البحر، وكان لا بد لها من أن تعود إليه.

لم يستطع السيد ماريوس فهْم هذا الكلام المبهم، رغم أنه كلام جعله يرتاح من ناحية الضمير على الأقل.. لكنه كلام حزين جدًا، والحزنُ يقطر من كل شيء فيه. وفي تلك اللحظة، ولج المكتبة نورس صغير حَامَ قليلًا، ثم غادر من النافذة بصمت، تاركًا صدى غريبًا داخل المكان. نظر أنير مذهولًا إلى السيد ماريوس.. لقد بدأ يشعر بفقدان تيرينا، التي أحبّها على نحو غريب.. لم يكن حبًّا عاديًا، ولكنه كان حبًا سماويًا يشبه حب الآلهة، ويشبه حب

الطبيعة والأشياء باهرة الجمال، ولم يفكر إطلاقًا في الزواج منها. ردد أنير بصوت خافت، ولكنه كان مسموعًا:

- ليس من السهل أن تجد الحياة فجأة خالية من تيرينا!

ولم يعرف السيد ماريوس ما إذا كان أنير يخاطب نفسه، أم إنه يوجّه كلامه إليه! صمت السيد ماريوس، وغرق في موجةٍ من تفكير كئيب قاده إلى أشياء كثيرة، ورأى أن كل أحلامه الجميلة تنهار فجأة، وأنه لا يحقق في هذه الحياة إلا مكاسب لا معنى لها، ولا تضيف إلى شخصه الكثير. صحيح أنه يستمتع بالاتجار في السجاد الأنيق، وصحيح أنه يتباهى بالمناصب التي يشْغلها في المدينة، ولكن كل هذا لا يمثل أي شيء بعد أن خرجت الأميرة سانيس من حياته نهائيًا، وتركت في نفسه فراغًا لحب محبط وكئيب.. والموت الاختياري الغريب الذي فرضتْه عليه تيرينا بطريقة مروعة ومغرقة في الحزن؛ هذا الموت الذي يجعله يعيد النظر جذريًا في فهمه للحياة. وقف بتثاقل. نظر شاردًا إلى أنير. ولما أصبح قريبًا جدًا منه، أخرج سيفه من غمده، ولوّح به أمام وجه أنير:

- سأقتلك أيها البربري.. سأقتلك، وسألوث سيفي بدمك النتن.

كان أنير ينظر ساهماً في أحد المخطوطات في يده، لم يعر حركة السيد ماريوس وكلامه أي انتباه. استمر السيد ماريوس يلوّح بسيفه أمام وجه أنير:

- أيها البربري الجَبَان، أعرف أنك لن تستطيع مقارعة فارس روماني متمرس على المبارزة.

ظـل أنـير محافظًـا عـلى هدوئـه، وكانـت تغمـره سـكينة عجيبـة، وأضـاق السـيد ماريـوس:

- لـن تسـتطيع مقارعـة فـارس رومـاني قـاد أرتـو إلى نـصر عظيـم في معركـة الذئـاب.. هيـا.. كُـن شـجاعًا، واشـهر سـيفك، فلتكـن مبـارزة بـين رجـل رومـاني ورجـل بربـري.

لم يكـترث أنـير لتهديـدات وكلام السـيد ماريـوس الـذي ابتعـد بخطـوات يائسـة، وقـال بصـوتٍ خـرج مصحوبـا بزفـرة مجروحـة:

- لقـد انتـصرتَ عـليَّ مـرة أخـرى أيهـا الوغـد.. لقـد تمنيـت أن أُقتـل بحـدّ سـيف شـخص بطـل.. لا أريـد لنفـسي هزيمـة نكـراء؛ هزيمـة في حيـاة جبانـة.

رفـع أنـير رأسـه، ونظـر عميقًـا إلى السـيد ماريـوس؛ فلاحَـظ أنـه شـخص أصبـح يتداعـى ببـطء.. كل شيء فيـه كان يبكـي.. كل شيء فيـه كان يصـدر عويـلاً عجيبًـا يشـبه عويـل ذئـب جريـح.. لقـد قتلَتْـه تيرينـا برحيلهـا المفجـع.. لقـد كانـت حبـه الكبـير!

قـال السـيد ماريـوس مخاطبًـا أنـير، وهـو ينظـر مـن خـلال شـباك النافـذة إلى الخـارج:

- لمـاذا لمْ ترفـع سـيفك في وجهـي؟. لمـاذا هزمتنـي مـن دون أن تخـوض المعركـة؟!

- لأننـي لم أشـمّ رائحـة المـوت، ولأنـك لم تكـن تنـوي قتـلي.. بـل كنـت تريـد أن تنتحـر بطريقـة تيرينـا، وهـو الأمـر الـذي لا أرضـاه لك..

إنك شاب طموح، وأمامك أشياء كثيرة يمكنك إنجازها من أجل هذه المدينة.. أعلم أنك الشخص الوحيد النزيه بين أمناء وأعضاء بناية الرئيس، ولكنني لم أفهم، إلى حدّ الساعة، لماذا حاولت قتلي في أكثر من مرة!

- اسمع يا أنير.. نحن الرومان لا نحب البربر بالفطرة، وكان سيكون هذا الأمر كافيًا ليجعلني أقطع رأسك في أول مناسبة، لقد كنتَ مختلفا عن كل البربر الذين عرفتهم؛ ولهذا السبب وحده سخّرت كل جهدي لقتلك، لاسيَّما عندما تبيَّن لي أن تيرينا توزع عواطفها على نحو غريب بيني وبينك.. حينئذٍ لم يعد لي خيار غير إبعادك من هذه الحياة! لم أفلح طبعًا، وكنت سأحاول مرة أخرى، ولكن تيرينا دفعت نفسها قربانا لتنقذك من موت محقق؛ كما فعلتْ عندما أنقذتكَ من سجن ربما كنتَ ستمكثُ فيه حتى اللحظة، أو كنتَ متَّ فيه لولا تدخلُها في الوقت المناسب.

بعد لحظة صمت متوترة، أضاف السيد ماريوس:

- ثم إنني خفتُ منك، أو الأحرى خفت أن تشكل خطرًا على المدينة؛ لأنني لاحظت تعلق الأميرة سانيس بك، ولم أكن متأكدًا من نيّاتك.

- نِيّاتي واضحة يا سيد ماريوس.. أريد الازدهار لأرتو، وأريد لشعب الأمازيغ أن يعيش كريماً.

التفت السيد ماريوس إلى أنير، وقال بصوت مضطرب:

- لقد علّمتْني تيرينا، بموتها اليومَ، درْسًا لن أنساه.. الآن فقط أفهم بأن البربر هم أناس مثلنا، بل وقد يكونون أفضل منا!

نظر إليه أنير باهتمام، ولاحظ الصدق في كلام السيد ماريوس الذي أضاف:

_ تصور، يا أنير، أن البلادة كادت تقودني إلى قتلك لمجرد أنك بربري، ولمجرد أنك تحمل حلماً! طبعا، فنحن الرومان نفسّر أحلام البربر دائما على أنها قصص رعب تشكل خطرًا علينا.

ألبسيني..

آن أن يكون حمامك حارًا،

ولا تخافي أن يصاب الحجر بأي أذى.

جسدان وبخار حمام

توجه أنير إلى سانيس. كانت الشمس، وهي تذوي ببطء في الغروب، تلطخ بنايات أرتو بأشعّة متكاسلة؛ أشعة حمراء وبرتقالية. لقد شعر بأن المدينة تبكي لأجل تيرينا، وبأن أشجار الرند تُسْقِطُ أوراقها الخضراء اليانعة؛ حزنًا على فتاة طاهرة وبريئة. حتى حرس المدينة بدوا لأنير واجمين، ومُتهادِين في سيرهم على جيادهم بكآبة، تختفي كالظلال الشفافة تحت ملامحهم.. ها هو أنير يجد نفسه بعيدًا، وإلى الأبد، عن تيرينا، التي أرسلتها إليه الآلهة؛ لتعتني به في كوخ بيكاو، ولتخرجه من السجن بعدما اتُّهِمَ بمحاولة سرقة بضاعة من خان سيتو.. تيرينا التي بذلت جهدًا جبارًا لأجل إنجاز تلوين مُعجز للشبابيك المُعَلَّقَة الآن في بناية الرئيس؛ تلك الشبابيك التي تفوح

برائحة فتاة باهرة في جمالها؛ فتاة تحمل ألوان الشعب المرجانية في كل ثناياها.

- ماذا تريد؟

خاطبه أحد الحرس حين اقترب من بوابة قصر الحاكم أورليوس سيبيو. أفاق أنير مذعورًا من هواجسه، وقال بتلعثم:

- أريد مقابلة الأميرة سانيس.

- يجب أن تنتظر أيها الشاب... ما اسمك؟

- أنير.

ازدادت رائحة العسل كثافة، وأصبحت روحه- أكثر فأكثر- مُشْبَعة بذلك الأريج المدوّخ المحيط به. نظر إلى الحديقة الغنّاء، وإلى أشجار الورد الجميل والمزهريات البديعة المزوقة بمنمنمات بديعة. غمره موج هادر من عسل وردي فاتح، ورأى فجأة سانيس تقف أمامه. لم تقل شيئًا، ولكنها أشارت إليه بالدخول. تبعها صامتًا، ووقعُ قدميه يرتطم بأرضية رخامية فاخرة. دخلت سانيس إلى حجرة الجلوس في جناح سُكناها في القصر. رأى أنير قاعة مفروشة بسجاد مبهج؛ سجاد اقتناه السيد الحاكم أورليوس سيبيو من السيد ماريوس، وعبقت القاعة برائحة عسل، وفاح من الحمّام أريج مُسْكِر، كاد يُذهب وعي أنير من الفور، ولكنه تماسك بصعوبة.

جلست أمامه الأميرة سانيس مرتدية لباسًا منزليًا لا يخفي إلا القليل من مفاتن جسدها المدهش، واحتفظت بصمت أقلق باله؛

صمـت مَشُـوب بغضـب هـادئ لم يفهـم دواعيـه. وبعـد لحظـات، خاطبهـا أنـير:

- ماتت تيرينا!

- تصورت أنك جئت لتطمئنّ على صحتي؟

- سألت عنك، وعرفت أنك بخير.

تساءلت سانيس بعفوية بالغة:

- قلـتَ إن تيرينـا ماتـت.. أيكـون فتـى مـن فتيـة حـي جبـل البربـر قـد قتلهـا؟

- لا...

وبعد لحظة صمت قصيرة، أضاف:

- لقد عادت إلى البحر.. اختفت فيه إلى الأبد.

- ألا تُحْسِن السباحة؟

- بـلى، ولكنهـا اسـتجابت لنـداء والدهـا ووالدتهـا، واختـارت أن تدفـن نفسـها في البحـر لتلتحـق بهـما إلى السـماء.

وتساءلت سانيس مرة أخرى بالعفوية البريئة نفسِها:

- هل اختارت الموت في البحر كسمكة؟

- ربـما! لطالمـا راودني إحسـاسٌ بأنهـا مزيـج مـن سـمكة وفتـاة!. كيـف أشرح لـك الأمـر؟. لسـت أدري؟ فأنـا أيضًـا لم أفهـم نفسـية تيرينـا إطلاقًـا!

- هل أنت حزين لأجلها؟

- نعـم، لقـد أنقـذت حيـاتي في كثـير مـن الأحيـان، ثـم إنهـا كانـت تحبنـي بالقـدر نفسـه الـذي كانـت تحـب بـه السـيد ماريـوس.

- رأيتكما هذا الصباح معًا، وكنتما تضحكان.

- لأننـا حلمنـا الحلـم نفسـه حـول والدهـا، ولأننـا كنـا نعـرف بأننـا سـنودّع بعضنـا البعـض قريبًـا، ولكننـي لم أتصـور أنهـا سـتتعجّل الرحيل بهـذه السرعـة!

- لقـد كانـت فتـاة جميلـة جـدا.. أعـترف، وأعـترف بأننـي شـعرت بغـيرة حـين رأيتكـما تجلسـان متقاربـين، وتضحـكان.

- كان ضحكًا بريئًا.

- لقـد فهمـت ذلـك متأخـرة. هـل تعـرف لمـاذا سـقطت مغشـيا عـليَّ في ذلـك اليـوم؟. لأننـي غـرتُ.. والغـيرة إحسـاس لا نسـتطيع التحكـم فيـه، كـما أنهـا قـد تدفعنـا لنقـوم بأعـمال لـن تكـون دائـما جيـدة.

كما لو أنه حلم فقط

فكـر أنـير في السـيد ماريـوس، وحبـه المجنـون لتيرينـا، والدوافـع التـي جعلتـه ينـوي تسـخير ثلاثـة مـن أحسـن فرسـانه مـن أجـل اغتيالـه.. عندمـا كانـت تـدور تلـك الأفـكار في رأس أنـير، باغتتـه سـانيس بسـؤال:

- هل سبق أنْ تحممت بالصابون الأحمر؟. إنه صابون نادر يجلبه أحد التجار لأبي من بحيرة صغيرة تقع جنوب بحيرة رودس.. صابون يفرز فقاقيع مدهشة.

- لا.. أنا لست أميرًا، ولا ثريًا كما تعرفين.

- دعني أجعلك أميرًا، ولو لبعض الوقت.

ابتسم أنير، وقال مازحًا:

- لماذا لا تجعليني أميرًا دائمًا؟!

- لا أحب لك أن تقضي حياتك كلها في حمّام تحت رغوة الصابون.. لن تكون حياة جميلة كما أتصور!

- سبب مقنع.. يجعلني أنا أيضًا أتخلى عن مثل هذا الحلم.

- إذًا سأغادر أنا الحجرة. انزعْ ثيابك هنا في مكان جلوسك على مهل. وعندما تنهي استحمامك، وارتداء ملابسك، اطرُق الباب من الداخل، وسألتحق بك.

- حسنًا!. فكرة ممتازة. لن تتاح لي فرصة أخرى لأستحم في حمام إمبراطوري.

خرجت سانيس. وجد أنير فكرة الاستحمام فكرة غريبة؛ فحاول فهم دوافعها، ولكنه- في الأخير- لم يتوصل إلا إلى أنها مبادرة جيدة وإيجابية. نزع عنه الملابس، ثم وضعها على طرف السرير، وتوجه ناحية الحمام، وكانت سانيس قد غادرت، وأغلقت باب الحجرة. دخل الحمام، ودهش للمنمنمات التي تزيّن الجدران

والأرضيـة الرخاميـة البديعـة، وتأمـل المناشـف التـي تفـوح منهـا روائـح معطـرة، والصابـون الأحمـر الـذي ينثـر في النفـس انتعاشـا وحيويـة كـما لـو أنـه عشـبة منشّـطة.

غطـس في حـوض المـاء عاريًـا تمامًـا، وطـلى جسـده بالصابـون الأحمـر، ثـم وجـد نفسـه وسـط رغـوة مـن الفقاقيـع العجيبـة، التـي كانـت تدغـدغ جسـده دغدغـة لذيـذة. انفعلـت غرائـزه، وتصـور جسـد سـانيس الفاتـن، وردفيهـا الجحيميتـين. وفي ذلـك الوقـت بالـذات، تحـول استـحمامه إلى عـذاب محمـوم لا يطـاق.. لقـد اسـتدرجته سـانيس إلى محرقـة لـذة لا يمكنـه الوصـول إليهـا.. هكـذا ردد في نفسـه، وهـو يعايـن الجـمال المتطايـر كالـرذاذ في كل جـزء مـن الحـمام، وشـعر بأنفـاس سـانيس المعلقـة في الأجـواء كلهـا تلهبـه.. لقـد شـعر، بحـسّ ملهـم، وكأنهـا في الحجـرة أو في الحـمام.. لقـد كانـت تمـلأ نفسـه بألقهـا، وحـرارة جسـدها اللاهبـة. لم يصـدّق- في الأخـير- أنـه أنهـى الاسـتحمام وسـط شرشرة المـاء، ورغـوة الصابـون، والتخيـلات الهلاميـة التـي عرضـت لـه. نشـف جسـده جيـدًا، وتصـور أن المنشـفة هـي قطعـة مـن لبـاس سـانيس تلمـس كل جـزء مـن جسـده، وانتابـه إحسـاس أن جسـده يلتصـق بالفعـل بجسـد سـانيس.

تأمـل جسـده العـاري في مـرآة الحـمام الكبـيرة؛ الحـمام الغـارق في موجـة مـن البخـار الأحمـر، واكتشـف مـدى التغـير الـذي طالـه منـذ آخر مـرة رأى فيهـا جسـده في المـرآة، وتصـور أن الزوايـا التـي رأى بواسـطتها جسـده سـابقًا في المـرآة، وكأنهـا لا تعكـس حقيقـة ذلـك الجسـد البعيـد

الـذي يعرفـه؛ ذلـك الجسـد الضامـر الـذي يتذكـره في أحـد حمامـات كـوخ في مـكان خـال؛ جسـد حمّمتـه فتـاة رائعـة اسْـمُها تيرينـا، والآن، وهـو في ذُرْوة شـبابه ونضجـه، فـإن كل شيء فيـه يتغير! خـرج مـن الحـمام الـذي كان مغمـورًا ببخـار يحجـب عنـه الصـور قليـلاً. وعندمـا أصبـح خـارج الحـمام، رفـع رأسـه، ورأى مـن الفـور شـيئًا طـوّح بحواسّـه جميعهـا.. شـعر كـما لـو أن تلـك الضربـة الموجعـة التـي تلقاهـا، ذات وقـت بعيـد، وهـو يهـم بمغـادرة غابـة كثيفـة، ترتطـم بمؤخـرة رأسـه مـن جديـد، وتذهـب بوعيـه. شيء لا يصـدق.. شيء جعلـه يـكاد يؤمـن بوجـود الآلهـة، وهـو الـذي طالمـا أنكـر وجودهـا، وطالمـا أشـفق عـلى من يؤمـن بوجودهـا.. شـعر بركبتيـه ترتعـدان، وبرعشـة بـاردة تهـز روحـه مـن الأعـماق، وتعلـق بـصره بذلـك المشـهد الخـارق. وقـف جامـدًا، ولم يسـتطع التقـدم ولـو خطـوة واحـدة. انتابـه الخـوف، وهاجمتـه الهواجـس، وتصـور أشـياء مريعـة سـتحدث.

وبعـد أن هـدأت أنفاسـه قليـلا، عـاد فتأمـل الجسـد العـاري الـذي يقـف بجنـب السريـر. كان يـرى ردفـين مغرقـين في إثـارة جحيميـة، وشـعرًا أشـقر يتـدلى بفتنـة باهـرة عـلى ظهـر أبيـض يبـدو كزبـدة متخيّلـة، لا يمكـن أن توجـد عـلى الأرض. ظـل صامتـا ينظـر إلى ذلـك الجـمال الأنثـوي القاتـل الـذي وجـد نفسـه إزاءه، ولم يعـرف مـاذا يصنـع، ولكنـه- في الأخـير- خطـا بعـض الخطـوات المـترددة في اتجـاه الجسـد العـاري المثـير، ثـم أصبـح قريبًـا بنحـو ذراع مـن ردفي الفاتنـة، التـي بانـت أكثـر جمـالاً وإثـارة، وهـي بالقـرب منـه. وشـعر بحـرارة تندفـع مـن ذلـك الجسـد لتدخـل روحـه، وتقتحمـه بالوهـج والرغبـة

الهادرة التي سيطرت عليه. كان صامتًا حينما اقتربت منه سانيس، ووضعت ردفيها على جسده العاري، فتحركت غرائزه بقوة أكثر، واستشعر لذة تناثرت في روحه، وغمرته فجأة كما لو أنه يتلقى عطرًا من الجنة.

فتح ذراعيه، وضم سانيس من خاصرتها، وأصبحت ملتصقة به على نحو كامل. دسّ وجهه في رقبتها. لثمها لثمًا خفيفًا. وفي الأخير، أصبحت سانيس كلُّها وسط جسده ويديه. كانت أنفاسها تتدافع، وكانت تُصْدر تأوّهات متقطعة تمزّق الصمت المهيب الذي خيم على الغرفة.

تطايرت فوق السرير فراشات ملونة، وشدَتْ عصافير بأصوات حانية، وغمرتهما فقاقيع من صابون أحمر كثيفة تسربت من الحمام، وكانت تلك الفقاقيع تتفجر من فور ملامستها الجسدين العاريين الملتحمين. لقد خاضا معركة شرسة، واكتشفا- في الأخير- ذاتيْهما من الداخل، وبدا أن الرحلة المجهدة، التي خاضها أنير من دريو إلى أرتو، انتهت- في المآل- إلى هذه النتيجة الأولية التي أرْضت أحلام أنير، في انتظار أن يواصل معاركه، شرطَ أن لا يخسر أيّ معركة. هناك بعض الحروب التي تمنحك فرصة خسارة معركة أو معركتين، على أن تكسب معارك أخرى كثيرة حاسمة في الأخير، ولكنْ هناك- في المقابل- حروب أخرى لا تقبل إلا النصر في جميع المعارك.. خسارة واحدة تقوض أي نصر سابق. هكذا فكر أنير، وهو منهمك في ارتداء ملابسه.

استأذنت الخادمة بيرينة، فدخلت محمّلة بالطعام.. عدة أطباق

شـهية. كان أنـير جائعًـا ومتعبًـا؛ فـأكل مـن صحـن السـفرجل المشـوي مـع لحـم ضـأن، وخبـزًا أسـمر مـن قمـح ممـزوج بالشـعير، وشرب نبيـذًا أحمـر جيـدًا.

بعـد أن أنهـى الأكل والـشرب، رفـع رأسـه، وخاطـب سـانيس، التـي كانـت تنظـر إليـه بوَلـه غامـض.. خاطبهـا كـما لـو أنـه يكمـل الحديـث الـذي دار بينهـما قبـل الاسـتحمام، وقبـل التمـرغ في الفـراش:

- سـانيس.. أنـتِ الوحيـدة في قلبـي. لـو كنـتُ أرغـب في تيرينـا لتزوّجتهـا، وسـكنّا معًـا في منـزل والدهـا، ولكننـي تبعـت حلمـي ونجمتـي، ولم يَخِـبْ ظنـي.

انتـشر حيـاء بهـيّ عـلى وجـه سـانيس، وانتشـت لـكلام أنـير، وأحسـت بصـدق يتخللـه.

- أنـا أيضًـا انتظرتـك طويـلًا.. طويـلًا جـدًا، وكنـت آمُـل أن نلتقـي في الأخـير.

أخذ أنير يد سانيس، وقال لها:

- هل تسمحين...؟

سـلّمتْه يدهـا، وشـعر أنـير وكأنـه يحضـن في يـده عصفـورًا بديعًـا. داعـب يدهـا، وقبَّلَهـا مـن الأعـلى والأسـفل:

- أنـتِ لي، وأريـدك زوْجًـا أبديـة. لـديَّ التزامـات في المكتبة، سـأنهيها في الأيـام القليلـة المقبلـة، وبعدهـا سـأتقدم لطلـب يـدك مـن والـدك الحاكـم.. هـل تُـرَاه يَقبـل؟

- الأجدى أن تسألني هل تُراني أقبل؟!

- أعترف.. تخونني البديهة أحيانًا.. في مواقف مُرْبكة كهذه.

- ولكنـك واجهـت امتحانًـا مرعبًـا؛ لانتـزاع منصـب قَيِّـم مكتبـة بنايـة الرئيـس.. ولم ترتبـك!

- لا.. لم يكـن امتحانًـا صعبًـا بقـدر صعوبـة الامتحـان الـذي خُضتـه سـنواتٍ مـن أجلـك.

- لكلٍّ منا امتحانه.

- سانيس، هل تقبلين بي زوجًا..؟

- بشرط.. أن تكون لطيفًا دائما كما أنت الآن.

ضحك، وأجاب مداعبًا شعرَها الأشقر المنسدل بكثافة:

- لـن أعـدك.. قـد أخضـع لتحـولات مسـتمرة في اليـوم الواحـد.. أنـا إنسـان في آخـر الأمـر!

- أحبـك، وأحـب أن أتزوجـك، لكـنّ هنـاك شـيئًا يقـول لي إن رحلتنا للتلاقـي، التـي بدأناهـا منـذ سـنوات، ستسـتمر طويـلًا.. وقـد لا نلتقـي بالفعـل إلا بعـد مشـاقّ ومتاعـب لا تحـصى.. وربما لـن نلتقي.. أنـا خائفة!

رماد لوطر وأوراق أنير

هنـاك تنتصـب أجمـة قديمـة لم تُشـذَّب منـذ أجيـال لعـل إلهًـا مـا يقيـم فيهـا متنعـماً.

فيها ينبوع قدسي، غار مسقوف بالصخر، وطيور تسكب ألحانها الشجية في كل اتجاه.

منذ أن رأى سكان حي جبل الأمازيغ سانيس، في ذلك اليوم المشهود، تدفن ألبستها مع جثمان تواهي، وهي عارية تمامًا، أصبحوا يكنّون لها تقديرًا عظيماً، ورهبة استثنائية. جعلهم جسدها الباهر في جماله يتصورون أنها الإله فينوس نزلت من السماء. وللسبب نفسه لم يكن أحد ليجرؤ على الاعتداء عليها، أو محاولة المس بكرامتها.. لقد أيقنوا يقينًا- لا ريب فيه- أنها بنت السماء؛ ولذلك حين اقتربت من سفح الجبل، ووقفت مُسْندة جسدها إلى جدار قديم في مدخل حي الأمازيغ، ظلوا ينظرون إليها بإجلال عظيم، وأطلّوا من الأسطح والكوّات، ومن بين زوايا الأزقة الضيقة، وسانيس منجذبة، على نحو مثير، إلى الموسيقى التي تنبعث من كوخ لوطر؛ موسيقى تكسر القلب، وتنثر في الأرواح رذاذ عشق مستحيل، يحوم حولها، ويدس في مشاعرها سحرًا غير مرئي؛ سحرًا يسيل من أعلى الجبل إلى أسفله مُبعْثَرًا على هيئة نبرات حالمة تطير كاليمام.. لقد أخذتها الموسيقى الكئيبة الممزوجة بغُصّة حب غامض. بعد وقت طويل من الاستماع إلى الموسيقى، التي اخترقت روحها، وجدت سانيس نفسها مُجْهَدة ومُجْبَرَة على مغادرة المكان.

تواصل العزف العذب فوق سطح منزل لوطر؛ عزفٌ كَبَّلَ سكان حي الأمازيغ بحزن وأسى، سقط عليهم فجأة كغمام أزرق دافئ ليغرقهم في متاهة لا تنتهي. أوصى لوطر صديقته ورفيقة دربه أن

تهدي قيثارته إلى سانيس في حالة ما إذا أصابه مكروه. ولم تُولِ تيرارا اهتمامًا كبيرًا لكلام لوطر، ولكنها لاحظت عزفه المثير غير المعهود على القيثارة، وقدمت له الأكل؛ فتركه لوطر أمامه، ولم يلمسه؛ فقد كان مشغولاً بعزف معزوفة باهرة، وُلِدَتْ من أصابع قدميه منذ أن رأى الأميرة سانيس تنزع ملابسها عند قبر تواهي، وانتشرت تلك المعزوفة في جسده كشوك ورد حين شم إفراز رائحة عرق إبطيْ سانيس؛ ذلك العرق الذي يشبه رائحة عسل وردي فاتح. انقضى النهار. ومع غروب الشمس، واصل الموسيقي العزف بوتيرة متواصلة، وموغلة في الكآبة، وأَسَرَّ بعض الأمازيغ لبعضهم البعض أنهم يشمّون في موسيقى لوطر رائحة عسل بأريج خاص؛ رائحة تنشر أريجا فوَّاحًا في الحي كله، وأنهم يروْن طيف جسد سانيس الملائكي العاري يملأ الفضاء، منتشرًا مع النبرات الساحرة، التي ترسلها تلك الموسيقى المذهلة. اقتربت بضع قطط من صحن طعام لوطر، الذي ظل في مكانه منذ الصباح. بدت تلك القطط كما لو أنها في حالة سُكْرٍ، وأكلت طعام لوطر متماهية على نحو عجيب مع عزف الموسيقى والنبرات التي تتشتت مع أشعة شمس المغيب الحمراء الدموية، ولعقت الماء بجرعات كانت تنساب مع الموسيقى، وكأنها مُكمِّلة لإيقاعها النائح. واستمر لوطر يعزف طوال الليل. وقال بعض الأمازيغ إن سكان الجبل ناموا نومًا هادئًا في تلك الليلة التي لم يتوقف فيها العزف، وإنهم شعروا بسكينة في نفوسهم غير معتادة. تبللت في الفجر ملابس لوطر بندى ربيعي بارد جعل جسمه يرتعش، وأصابعه ترسل نغماً تماهى تمامًا مع

شـذْو عصافـير الصبـاح الباكـر والنسـمات البحريـة الرقيقـة الممزوجـة بمـذاق ملـح خـاص. أفـاق الأمازيـغ بهـدوء بعـد ليلـة سـاكنة تخللتهـا أحـلام مثـيرة، ورأوا في منامهـم بنـت السـماء سـانيس تـوزع عليهـم النجـوم، وتغمرهـم ببركاتهـا، وكانـوا فرحـين ومغموريـن بالسـلام. وأفاقـت تـيرارا منشرحـة، ورأت- في حلـم غريـب- لوطـر يطـير فـوق البحـر، تحملـه أسراب نـوارس، ثـم تضعـه عـلى الغـمام الشـفاف، الـذي أعـاده إلى سـماء حـي الأمازيـغ، وإلى سـطح المنـزل مواصِـلاً العـزف السـاحر. شـعرتْ بحـبّ نحـو لوطـر؛ حـب لا يشـبه أي حـب آخـر في هـذا الوجـود، وراودهـا إحسـاس غامـض بأنهـا سـتخسره، وتجسـدت الخسـارة في مفهومهـا عـلى وجـه إيجـابي. أعـدّت وجبـة الفطـور التـي يُوثِرُهـا لوطـر، ثـم صعـدت بهـا إلى السـطح، ووضعتهـا في متناولـه. وجدتـه يواصـل عـزف موسـيقى مفعمـة بعشـق وأسـى دفـين، ولم ينتبـه لتـيرارا التـي اكتفـت بخطـف نظـرة سريعـة إليـه مـن دون أن تتأكـد مِمّـا إذا كانـت قـد التقطـت شـيئًا مـن ملامحـه. وظلـت وجبـة الفطـور مُهملَـةً طـوال النهـار إلى أن التهمهـا النمـل والحـشرات.

تجمـد سـكان جبـل الأمازيـغ مـدة ثلاثـة أيـام متواصلـة، وسـكنت فيـه الحركـة، وغمـرت الموسـيقى النفـوس والأرواح؛ فأشـاعت فيهـا حالـة غـير مسـبوقة مـن اللوعـة. واسـتحضر الأمازيـغ سـانيس بنـت السـماء، وجسـدها الإلهـي المسـتحيل. ومـع آخـر أشـعة لغـروب شـمس اليـوم الثالـث، بـدأت أصابـع لوطـر، الـذي تحـول إلى شـبه تمثـال خشـبي منخـور، تفقـد السـيطرة عـلى ضبـط الأنغـام، وتحريـك أوتـار القيثـارة. هُرِعَـتْ إليـه تـيرارا؛ لأن الخلـل المـروع،

الـذي أحدثـه انهيـار انسـيابية التدفـق في اللحـن الموسـيقي، أفـزع قلبهـا، وأنبأهـا، بغريـزة غامضـة، أن شـيئًا مروعًـا سـيحدث. حـين وقفـت تـيرارا أمـام لوطـر، وجدتـه متماسـكًا في داخلـه، عـلى نحـو عجيـب، كـما لـو أنـه تنـاول الطعـام خـلال تلـك الأيـام الثلاثـة، وكـما لـو أنـه تجـرَّع مـن مـاء الجـدول الرقـراق الـذي يمـر بمحـاذاة غابـة السـرو. ولكـن التماسـك، الـذي لمسـته تـيرارا في لوطـر، كان ينبـع فقـط مـن روحـه العميقـة المفعمـة بحيويـة لحظيـة عابـرة، وكان جسـمه منهـارًا؛ فقـد سـقطت مـن يـده القيثـارة.

الرماد والنزول

أشـار لوطـر إلى تـيرارا لتقـترب منـه أكثـر. لم يقـدر عـلى إصـدار صـوت مسـموع. وضعـت تـيرارا أذنهـا عـلى فـم لوطـر؛ فقـال لهـا كلماتـه الهامسـة الأخـيرة في الحيـاة، وخرجـت تلـك الكلـمات المتقطعـة، وتبعثـرت في روح تـيرارا كـرذاذ عطـر داعَـب شِـغاف نفسـها العميقـة:

- لقـد أحْبَبْتُـك كلَّ الوقـت يـا تـيرارا، ولقـد أخلصـت لـك؛ كـما لم يفعـل أمازيغـي مـن قبـلي، ولكـن الأمـيرة سـانيس دفنتنـي حيًّـا يـومَ دفنـت ملابسـها الداخليـة مـع جثـمان الفتـى تواهـي. شـعرتُ بوَلَـهٍ وحـبّ لجسـدها الإلهـي، وأتصـور أنـك لـن تلومينـي. حاولـت مُجاهَـدَة مشـاعري، ولكننـي لم أسـتطع. الآن أجـدُني مدفوعًـا إلى مصـير تواهـي، وسـأرحل حتـماً إلى السـماء. اجعـلي فِتْيتـي يحرقـون جثتـي، ويفرقـون رمـادي عـلى قوافـل الخانـات في الأسـفل، أمَـلًا في

أن ينثروه في صحاري الدنيا وجبالها.. لا أرغب، بعد موتي، في شيء يدل عَلَيَّ. خذي القيثارة، وسلميها هدية إلى سانيس. أحب أن تحرقها، وتمزج رمادها بترابٍ تغرس فيه وردة في حديقتها إكرامًا لروحي. ودعيها تجد لك عملًا ومبيتًا آمنًا في الأسفل.. إنها فتاة خيِّرة، وكائنة من السماء. ولعلك تصادفين زوجًا جيدًا.. لا أريدك أن تبقي هنا في حي الأمازيغ، ولا أن تعودي إليه أبدًا بعد إحراق جثتي.. إنك شيء مني يا تيرارا.. لا أريدني هنا بعد مغادرة قومي وشعبي!

مات الموسيقار لوطر في ليلة حزينة. وفي الغد، اندلعت ضجة ظلت ساكنة، ونبحت الكلاب من جديد، وعاد صراخ الأطفال ونهيق الحمير وصياح الديكة إلى الأزقة الضيقة. وأُنْجِزَتْ مهمة حرق جثة لوطر وسط بكاء كل سكان حي الأمازيغ؛ فقد كانت موسيقى قيثارته تجلب لهم الفرح والانشراح وسط حزنهم وكآبتهم الطويلة. ونزل بضعة من فتية لوطر إلى مدينة أرتو، وتوزعوا على الخانات، وسلموا كميات من رماد جثة لوطر إلى كل قافلة مسافرة، وتعهَّد أصحاب تلك القوافل بأنْ ينثروا الرماد في أبعد مكان سوف يصلونه في رِحْلاتهم الطويلة بعيدًا عن مدينة أرتو، في الشرق والغرب، وفي الشمال والجنوب، وفي الصحاري والسهول، وفي الجبال والتلال، وفي مختلف التضاريس.. وهكذا سوف يصبح لوطر نبرة موسيقية تمتزج مع الريح والتراب، والماء والأشجار والحجارة، وكل العناصر الموجودة في الأرض؛ كما حلم دائماً أن يكون.

أعدّ أنير تقريرًا مفصّلاً عن أملاك أعضاء مجلس المدينة وأمنائها، واكتشف، بالإضافة إلى أنهم لا يدفعون الضرائب، أن معظم تلك الأملاك تعود- في الواقع- إلى مجلس المدينة، وكان ينبغي، في نظره، صرْف مداخيلها في بناء سجون نظيفة، ورصْف كل الأزقة والشوارع بالحجارة، مع ترميم جذري للأسوار، التي بدأت تأكلها التعرية في غير ما مكان، وبالطبع إعفاء أصحاب المتاجر المتواضعة جدًا والحِرْفيين والفلاحين الأمازيغ الصغار من دفع الضرائب لمجلس المدينة. وأدرك أنير حينذاك لماذا أرادته الأميرة سانيس أن يكون قيِّماً على المكتبة، ولكنه تساءل: هل يكون والدها الرئيس أورليوس سيبيو على علم بما يجري؟! ثم ماذا عن السيد ماريوس؟! صحيح أن أملاكه شخصية ونظيفة، ولكنْ كيف يصمت على مثل هذه الخروقات، وهو في هذا المنصب الرفيع؟!

ذهب أنير، وطلب لقاء سانيس، وشمّ رائحة عسل وردي فاتر، وشعر بدوخة قبل أن يراها تفتح الباب بنفسها. بدت مدهشة في ألْقها وجمالها، مع أنها كانت ترتدي ثيابًا عادية جدًا، وتركت شعرها الأشقر يتشتت على كتفيها، ويغطي جزءًا من وجهها الأبيض الملفوح بمسحة فاتنة من ظلّ هادئ، وجسدها الرشيق يتراقص بعذوبة أمام نظرات أنير المشدوهة؛ بفعل مشيةٍ تشبه مشيَ حمامة بيضاء جميلة. كانت سانيس تمشي، وهي حافية القدمين. استعاد أنير في ذهنه يوم استحمامه

في مخدعها، وراودته رغبة لتَكْرار التجربة، ولكنه يعرف استحالة عودة حلم لا يتكرر وبالصيغة نفسها.

بعد كلام وُدّي عذب، وبعد حديثٍ عن المستقبل والارتباط وشكوك أنير في موافقة والدها على تزويجها من شخص بربري غريب عن المدينة، وبعدما طمأنته الأميرة سانيس على أنْ لا شيء يقف في طريق زواجهما، فتح أنير معها ملف التلاعبات الخطيرة التي تحدث في أملاك مجلس المدينة، وكيف أن الأعضاء والأمناء يستحوذون على ثروات المدينة، ولا يدفعون الضرائب عن أموالهم الطائلة غير المشروعة، وسألها بعفوية إن كان والدها على علم بذلك! فأكدت له سانيس أن دور والدها يقتصر على الاطلاع على تقارير محصِّلي الضرائب، والتدقيق في الأرقام، وأنه الآن أصبح غير قادر على القيام بجولات ميدانية، كما كان يفعل في السنوات السابقة؛ بسبب معاناته من آلام المفاصل، ومرض البواسير المزمن. ومع ذلك، فإن والدها يفوِّض الكثير من اختصاصاته لبعض معاونيه، الذين ورثوا تلك الاختصاصات منذ سنوات لتصبح- في الأخير- من مهامهم الدائمة بحكم العادة، ولاسيَّما نائبه الثاني المدعو صولا. ولا شك في ضلوع الجميع في هذه التلاعبات. ولم يعد والدها فعليا يتحكم في أي شيء. أخبر أنير- في الأخير- الأميرة سانيس بأنه سيفتح تحقيقًا علنيًا في الموضوع، وبأنه يرغب في معرفة رأيها. لم تمانع، بل رحّبت ترحيبًا كبيرًا بالفكرة.

غادر أنير، وروحه مشبعة برائحة عسل وردي فاتح، وفكر

أيضًا في فتاة يغمرها نسيم بحري لطيف، وفكر في رجل أمازيغي اسمه بيكاو؛ رجل لم يستطع فهم أفكاره ونفسيته العجيبة؛ بيكاو الذي قال إنه قرأ كتبًا ممنوعة على العامة في مكتبة بناية الرئيس، وبسبب ذلك انصبّت عليه لعنة إلهية أبدية. إن الأمناء والأعضاء والحاكم أورليوس سيبيو يقولون إنهم يحكمون بتفويض من الآلهة، وإن أحكامهم وتصرفاتهم في الشؤون العامة لمدينة أرتو يَحْرُمُ الطعن فيها. هل يكون بيكاو اقترف هذا الذنب؟ وهل يكون قد وقف على التجاوزات الفظيعة التي تنطوي عليها؟ وهل يكون طُرِدَ من المدينة بسبب محاولته التنبيه على هذه التجاوزات؟ ثم هل كان السيد بيكاو يؤمن حقًا بأن هؤلاء يحكمون المدينة بتفويض من الآلهة، وبأن لعنة حقيقية لحقت به جراء خرْقه المتعارَف عليه في هذه المدينة؟

أسئلة كثيرة ظلت تدور في ذهن أنير، وهو يقود جواده الأمازيغي الرشيق متوجهًا إلى مكتب السيد ماريوس. لقد قرر أن يعرض الحقيقة أمام الرجل. ترجَّل عن جواده، وتقدم منه حارس تسلم منه زمام الجواد، وربطه في مربط قرب بوابة بناية الرئيس. دخل أنير، وتوجه إلى المكتبة. سحب من أحد أدراجها التقرير الذي أعدّه بعناية بشأن الخروقات والأملاك التي يحوزها الأمناء والأعضاء من دون وجه حق. تأبط الأوراق، وتوجه بها إلى مكتب السيد ماريوس. وجده كئيبًا وتعيسًا أكثر من أي وقت مضى، منذ غياب تيرانا في البحر.. تحوَّل إلى مجرد شبح للسيد ماريوس المفعم بالعنفوان والحيوية، حتى إنه لم يعد يتزيّن بزينة الزينة النادر،

الـذي كان يجلبـه لـه تجـار مـن أمكنـة بعيـدة. قـال إنـير بهـدوء بعدمـا ألقـى عليـه التحيـة:

- لديَّ أشياء أريد أن أطْلعك عليها.

وضـع الأوراق بـين يـدي السـيد ماريـوس، الـذي أخـذ يقلبهـا، ويقرَؤهـا بتـأنٍّ واهتـمام شـديدين. وفي الأخـير، قـال بصـوت محْبـط:

- كيف حصلت على هذه المعلومات؟!

- مـن درج الكتـب الممنوعـة عـلى العامـة، وأنـا لسـت مـن العامّـة؛ كـما تعلـم يـا سـيد ماريـوس.

- صحيـح، ولكنـك وضعـت يـدك في الجحيـم! سـتجلب لنفسـك الهـلاك.

- لا ينبغي أن أرْضى بالصمت.

- أحترم رغبتك النبيلة.

- ولكنْ ألمْ تكن على علم؟

- بـل كنـت عـلى علـم بذلـك، ولكـن لم يكـن بيـدي شيء لأفعلـه! أحببـت الأمـيرة سـانيس دائـماً، ولم أحتمـل النفـي بعيـدًا عنهـا.

- أعتقد أن أشياء كثيرة قد تغيّرت الآن.

- نعم، ولكنني لست قيّماً على المكتبة؛ لأنبش في هذا الموضوع!

- سأفعل إذا سمحت لي.

- لـن أمانـع! لنـا غـدًا اجتـماع مطـوّل سـيحْضُره كل الأمنـاء

والأعضاء، ويمكنك الحضور أيضًا، والتحدث في هذا الشأن.. لقد فقدتُ كل شيء يا أنير.. كل شيء، وكدت أفقدك أنت أيضا بطريقة بلهاء.. لم يعد يَعْنيني أي شيء.

غادر أنير بناية الرئيس التي غلفها السيد ماريوس بمسحة حزن لا يُمْحَى. لقد شم في الرجل رائحة زبد بحر ممزوج بترابٍ رَمْلي، وعيدان صغيرة مبللة بملح يفرز رائحة تشبه رائحة سمكة نجمة البحر. ورأى شمس منتصف الربيع تُصْبِح شيئًا فشيئًا حارة، والناس يصبحون أكثر انشراحًا بعدما ذهب فصل الشتاء، وأخذ معه رياحه وسُحبه الداكنة ومطره القليل؛ هذا الشتاء المُهَادِن الذي لم يشهد سقوط ثلوج أيضًا. توجه إلى مطعم سوسي الشهير. تناول فيه وجبة سمك جاف مملّح مع بعض النبيذ، ثم قفل إلى منزله الفاخر، الذي خصصه له السيد ماريوس. ارتمى في الطابق السفلي على سرير تيرينا؛ فشعر بروحها في المكان، وغمرته راحة نفسية بهيجة، وهو ينظر إلى ملابسها وأغراضها الشخصية، التي لم يحاول قط أن يمَسّها، باستثناء سريرها الذي كان يُشْعِره، على الدوام، وكأنه ينام في بحر دافئ، وأنه يسبح مع الأسماك تحت الماء، ويرى الشُعَبَ المرجانية الملونة، ويهرب بمهارة من طُعْمِ الصيادين الأغبياء.

الحقيقة

وفي صباح الغد، أعدّ أنير طعامًا سريعًا، ثم أخذ حمامًا دافئًا، ولبس أجمل ثيابه، ثم توجه إلى بناية الرئيس لكي يحضر الاجتماع

المهـم، الـذي سـيفجر فيـه الحقيقـة أمـام الجميـع، ولكـي يفتـح عـصرًا جديـدًا مـن العـدل والمسـاواة في مدينـة أرتـو، ولا شـك في أن الفلاحـين والتجـار الصغـار والأمازيـغ سـيعلمون الحقيقـة، وسـينتفضون مـن أجل انتـزاع حقوقهـم، وسـوف يسـتطيعون بأنفسـهم اختيـار أمنـاء وأعضـاء نُزهـاء في بنايـة الرئيـس. وجـد أنـير أعـدادًا كثـيرة مـن الجيـاد رُبطـت بجـوار البوابـة الكبـيرة لبنايـة الرئيـس، وهـو الأمـر الـذي جعلـه يفهـم أن جُـلَّ الأمنـاء والأعضـاء موجـودون في الاجتـماع. سـار بخطـوات متوازنـة، وشـعر لأول مـرة بالارتبـاك يسـيطر عليـه.. إنـه مُقْبـل عـلى أمـر سـيغيّر وجـه مدينـة أرتـو بكاملـه، إذا قـدر لـه أن ينجـح في تلـك المهمـة الصعبـة. فتـح بـاب الاجتـماع الـسري دون اسـتئذان. ألقـى التحيـة وسـط العيـون الكثـيرة التـي التفتـت لتنظـر إليـه باسـتنكار. قـال لـه السـيد ماريـوس بلهجـة ماهـرة:

- هل لديك شيء عاجل؟!

- نعـم يـا سـيد ماريـوس، وأرجـو السـماح لي بالجلـوس للتحـدث قليـلاً قبـل أن أنـصرف سريعًـا.

نظـر الأمنـاء والأعضـاء بعضهـم إلى بعـض بارتيـاب، وتشـاوروا بهمـس، قبـل أن يشـير إليـه موافقًـا شـخصٌ في أواخـر كهولتـه، مُرَبَّـعُ الجسـم. جلـس أنـير بهـدوء، ووضـع الأوراق أمامـه عـلى الطاولـة، ثـم قـال مخاطِبًـا الجميـع:

- أرجـو أن تسـمحوا لي بالحديـث دون مقاطعـة. بعدهـا يمكنكـم التدخـل لإبـداء آرائكـم أو ملاحظاتكـم.

بـدأ أنـير يقـرأ تقريـرًا عامًّـا عــن خروقـات وقــف عليهـا خــلال اشـتغاله بالمكتبـة، وأراد إطْـلاع الجميـع عليهـا؛ لأنهـا تشـكل خطـرًا عـلى اسـتقرار مدينـة أرتـو. قـال أحـد الأمنـاء بلهفـةٍ:

- لا شـك في أن الأمـر يتعلـق بتهـرب البعـض مـن دفـع الضرائـب، أو إخفـاء المحاصيـل الزراعيـة وعـدم اعـتراف بعـض التجـار بمداخيلهم كاملة.

أجاب أنير بمكر:

- نعـم، والأكثـر مـن ذلـك.. هنـاك تحايـل لا يمكـن قبولـه.. هنـاك أمنـاء وأعضـاء في مجلـس المدينـة، إلى جانـب الرواتـب التـي يحصّلونهـا مـن الخزينـة العامـة، يسـتحوذون عـلى ممتلـكات تعـود إلى مجلـس المدينـة، ولا يدفعـون الضرائـب قطعًـا عـن ممتلكاتهـم الخاصـة!

سَرَتْ ضجـة وهلـع في صفـوف المسـتمعين، وتلفـظ البعـض بعبـارات اسـتنكارية، ضاعـت وسـط الضجيـج الـذي عَـمَّ المجلـس، لكــن الشــخص مُرَبَّــع الجســم قــال بصــوت أجــش:

- مِنْ أين حصلتَ على هذه المعلومات الكاذبة أيها البربري؟

أجاب أنير بصوت واثق:

- في الكتب الممنوعة على العامة.

وأجــاب أكثـر مــن عضــو وأمــين باســتهجان، وبــدا أن الجميــع يتحــدث مــن دون أن يُســمَع كلام واضــح، ولكــن تبــين أن الجميــع يسـتنكر كيـف تأتّـى لشـخص بربـري مـن العامـة أن يدخـل المكتبـة،

بـل- أكثـر مـن ذلـك- تجـرَّأ عـلى قـراءة الأوراق السريـة!

- أنـا لسـت مـن العامـة! أليسـت مهمتـي هـي العمـل قَيِّماً عـلى المكتبـة؟!

صـاح بـه الرجـل مربّـعُ الجسـم، الـذي تبـدو صرامـة كلـب شرس واضحـةً عـلى تقاطيـع وجهـه الملفـوح بلـون رمـادي غامـق:

- اسـمع، أيهـا البربـري الغريـب، أنـت مجـرد شـخص دخيـل عـلى المدينـة وعـلى بنايـة الرئيـس.. اعتـبر نفسـك مـن الآن مطـرودًا مـن المكتبـة، بـل- أكثـر مـن ذلـك - سـتجد نفسـك منفيًـا مـن المدينـة.

كان صاحـب هـذه الأوامـر هـو السـيد صـولا الشـخصية الأكثـر نفـوذًا وسـط الأمنـاء والأعضـاء، وصاحـب أكـبر الأمـلاك في أرتـو. أجابـه أنـير بهـدوء:

- هـذا رأيـك وحـدك، ولقـد تحصلـت عـلى وظيفتـي عـبر امتحـان أَهَّلَنِـي بجـدارة إلى هـذا المنصـب.

- ليـس هـذا رأيـي وحـدي أيهـا البربـري الغِـرُّ.. سـأطلب مـن الجميـع رفـع أياديهـم، إذا كانـوا متفقـين مـع قـراري.

رفـع الجميـع أياديهـم باسـتثناء السـيد ماريـوس، ولاحـظ صـولا حيـاد السـيد ماريـوس، وعـدم موافقتـه عـلى القـرار الـذي اتُّخِـذ في حـقّ أنـير؛ لذلـك قـال بصـوت شـامت:

- أفهـم صمتـك يـا ماريـوس؛ لأنـك أنـت مـن سـجله في المسـابقة، وأنـت مـن تواطـأت معـه. سـأطلب إلى الحضـور الكريـم أن يرفعـوا

أيديهم موافقة على تجريدك، أنت أيضًا، من جميع مناصبك، وستعود مجرد تاجر سجاد؛ كما كنت قبل معركة الذئاب، وأطلب إلى الحضور أيضًا تفويضي كل الصلاحيات التي كانت بيدك.

أجاب السيد ماريوس وكأنْ لا شيء يعنيه:

- لا داعي للتصويت! أعرف هذه اللعبة القَذِرة.. مع الأسف، شاركتُ فيها بغباء غير ما مرة!. سأنسحب عن طيب خاطر من هذه البناية إلى الأبد.

خرج السيد ماريوس، وأراد أنْ يَلحق به- بعد لحظة قصيرة- أنير ليعتذر له. ولكنه وجد في طريقه عدة عناصر من الحرس أوقفوه من الفور، ثم قادوه إلى مكان مجهول.

تيرارا

وقفت فتاة أمازيغية فاتنة، ولكنها رثة اللباس، عند باب قصر الحاكم أورليوس سيبيو، الذي لم يعد يحضر الاجتماعات في بناية الرئيس منذ مدة؛ بسبب استمرار تردي حالته الصحية.. فقد مرت عدة أيام من دون أن يتغوط بسبب الآم البواسير الفظيعة، وبسبب عسر هضم لازمه مُذ فترة طويلة. سأل الحرَّاس الفتاة، التي كانت تحمل في يدها قيثارة صغيرة ملونة، فاعتقدوا أنها تطلب صدقة؛ فنصحها أحد الحراس بأن هذا ليس هو المكان المناسب لكي تطلب فيه الصدقات، وبأن عليها التوجه إلى وسط

المدينة. لكن تيرارا قالت للحارس تاسكي إنها ترغب في لقاء الأميرة سانيس. لم يصدِّق الحارس. وبعد إلحاحٍ شديدٍ من تيرارا، استجاب لطلب الفتاة الأمازيغية فاتنة الملامح، رثة اللباس، وتوجه إلى داخل القصر، وأنبأ الخادمة بيرينة أن هناك صبية أمازيغية تريد لقاء الأميرة. استقبلت سانيس الفتاة الأمازيغية بلُطفٍ، ودَعَتها إلى جناحها، وأطعمتها. وهيّأت لها بيرينة الحَمَّام، وأحضرت مجمر بخور غمرت به الحمام وجناح سانيس. وحين أرادت بيرينة تنظيف الحمام، وجدت أن الفتاة الأمازيغية لم تحسن استخدامه على الوجه الصحيح؛ فقد استحمت خارج الحوض، وتسببت في تدفق الماء إلى بوابة حجرة الجلوس. قالت الفتاة الأمازيغية تيرارا:

- مات لوطر.

تساءلت الأميرة سانيس بأسفٍ:

- أحقًا ما تقولين؟!

- نعم يا سيدتي، ولقد أوصى لك بهذه القيثارة، وطلب أن تُحرقَ ويُمْزجَ رَمادهَا بتربةٍ تُغرسُ فيها وردةٌ. لقد كان يحبك يا سيدتي الأميرة سانيس.

قالت سانيس بصوتٍ خافتٍ:

- لقد ماتت الموسيقى.. الموسيقى التي تقاسمت مع لوطر عشقها!

نفذت الأميرة سانيس وصية الموسيقي لوطر، وانطلقت بالفتاة الأمازيغية تيرارا إلى السيد ماريوس، وكان ماريوس قد دخل إلى منزله

الأنيـق بعـد الاجتماع العاصـف، الـذي حـضره في بنايـة مجلـس المدينـة. سـمع طرْقًـا عـلى البـاب، وكان قـد نـزع عـلى التـو ملابـس الخـروج، وتوقـع أن الطـارق لـن يكـون سـوى أنـير. فتـح السـيد ماريـوس البـاب، وفي يـده كأسُ خمـرٍ. عـلى الفـور اشـتعل قلبـه بحريـقٍ دافِـئ، وهـو ينظـر منبهـرًا إلى الصبيـة الأمازيغيـة الفاتنـة. وبينـما كان ينظـر إليهـا، كان يرفـع كأس الـشراب ليرمـي في فمـه آخـر جرعـة منـه. سـقط الـشراب عـلى الأرض مـن دون أن ينتبـه إلى الحادثـة! غـير أنـه- في الأخـير- اسـتيقظ مذعـورًا عـلى صـوت الأمـيرة سـانيس، وهـي تخاطبـه:

- جئتُـك بهـذه البربريـة اللطيفـة.. مـات صديقهـا الموسـيقي لوطـر، وقـد أوصاهـا بـأن تسـتقر في أرتـو، ولا تعـود أبـدًا إلى جبـل البربـر؛ لأسـبابٍ شـخصية جـدًا، وطلـب إليّ، في وصيتـه، أن أعثـر لهـا عـلى مَبيـتٍ آمـن وعمـل ريثـما تجـد زوجًـا.

ثـم واصلـت كلامهـا بعدمـا انتحـت بالسـيد ماريـوس جانبًـا، وقالـت لـه هامسـةً:

إنهـا فتـاة طيبـة جـدًا، ولكنـك تعـرف طَبْـعَ بعـض البربـر؛ بسـبب الأوضـاع الصعبـة التـي يعيشـونها!. قد تحتـاج إلى إعادة تأهيـلٍ. لعلك تجد صديقًـا وزوجـه لديهما من الصـبر والوقـت، أن يتكفلا بالفتاة لمدة شـهرٍ أو أكثـر قليـلًا. وسـتصبح تـيرارا بسـلوك رائع؛ فهـي ذكيـة وفطنة.

- نعـم، أعـرف صديقًـا طيبًـا، امرأتُـه طيبـة أيضًـا، وهـو أحـد معاونيّ في تجـارة السـجاد، سـأعهد إليـه بهـا ريثـما يتحسـن سـلوكها ليتـلاءم وتقاليدَنـا الرومانيـة، وبعدهـا نقـرر في شـأنها.

- شكرًا لك سيد ماريوس.

انصرفت الأميرة سانيس بعدما عانقت تيرارا بحرارة، وأوصتها بأن ترجع إليها متى صادفتها صعوبات. على الفور أخذ السيد ماريوس تيرارا إلى صديقه المتصرف في أعمال تجارة السجاد. لم يكن منزل هذا الصديق بعيدًا، وقَبِل صديقه وامرأته الطيبة المهمة برحابة صدر، وتعَهّدَا بأن يعيدا تيرارا إلى السيد ماريوس، كما لو أنها تربّت في منزل أسرةٍ من أرقى الأسر الرومانية وأعرقها في مدينة ماريوس.

اعتكف السيد ماريوس في منزله، في الوقت الذي استحوذ فيه صولا على جميع الصلاحيات التي كانت في يد السيد ماريوس.. ولم تكن للمسؤول الجديد تجربةٌ أو موهبةٌ في تسيير الشأن العام؛ فترك كل شيء يسير تلقائيًا في مدينة أرتو، بينما انصرف هو إلى ملذات الحياة، والأشغال التي تخصّ تجارته الواسعة.

أصابت الكآبة السيد ماريوس؛ فلم يستطع تجاوز المحنة التي ألمت به بعد غياب تيرينا الأبدي، وحاول البحث عن أنير، ولكنه لم يعثر له على أثر! وفي الأخير، تأكد من أنه- في أسوإ الأحوال- سيكون قد طُرِدَ من المدينة... وبينما كان الربيع في أواخره، بدأت حرارة شمس صيفية غير معتادة تسطع في سماء أرتو، وقَلَّ صبيب الينابيع التي تزوّد المدينة بالماء، وساد شعور بعدم الرِّضا بين السكان، وازدادت عمليات السرقة والنهب، وتهديد أمن الناس بالليل والنهار.

ما من نقص هناك في الأنواع الأرخص الآن،

فمن الجنون أن يحمل المرء ثروته على ظهره.

هناك زرقة السماوات،

زرقة سماوية بلا صباغ،

وما من رياح جنوبية غربية دافئة مصحوبة بتهديد المطر.

أفولاي وزفرات الحسرة

شارف السيد أفولاي على الوصول إلى مدينة أشتين. كان قد اشترى في الطريق حمارًا من روساب، ووضع عليه أغراضه القليلة. شعر بموج غامر من الفرح يغمره.. أخيرًا سيستطيع الاستحمام، وسيتناول أكلة جيدة، وسينام في خان دافئ. ترجَّل عن حماره عند بوابة المدينة. دخل جارًّا وراءه الحمار الأشهب المتعب. جال قليلاً في أزقة عشوائية وأحياء فوضوية، قبل أن يعثر على خان متواضع. أودع حماره الإسطبل، ثم دخل حجرته، وتخلص من بعض الأغراض ذات الأهمية القليلة، وخرج يبحث عن بائع ثياب وحمَّام ليخلّص جسده من أدران وغبار السفر. سار بخطواته العرجاء اللافتة للانتباه فوق الطرقات غير المبلطة، ووجد أخيرًا دكانًا يبيع ملابس؛ فاقتنى لباسًا مناسبًا، ثم توجه إلى حمام قريب قليل النظافة.

استحم بسرعة، ثم ارتدى الثياب الجديدة، فبدا كَسَيِّدٍ محترم وذي مكانة عالية.

قصد السوق، وسأل عن بائع محتمل للملح، ولكنه وجد المعروض عنده أقل بكثير من الملح الذي كان يرغب في شرائه، وبنوعية ليست بالجودة التي يعرفها. كان أغلب المعروض مجرد أكوام من كتل حجرية من الملح؛ كتل ملح مخلوطة ببعض التراب. أخرج كمشة الملح التي أخذها من قبر أسافو، وشمّ فيها أريجًا مفعماً بلوعة كئيبة فجّرت دموعًا حارة من عينيه. عرض كمية الملح على تاجر، وسأله إن كان يوجد مثلها في السوق. بالمصادفة كان التاجر قد رأى زميلاً له اشترى بضاعة قبل أمس بالجودة نفسها؛ فدلّه عليه، وكان التاجر يبيع الملح في دكان صغير. حيَّاه السيد أفولاي بلطف، وعرض عليه كمشة الملح:

- هل تبيعون مثل هذه النوعية سيدي؟

تأمل البائع ملح أفولاي، ثم قال مستغربًا:

- إنها من النوعية التي اقتنيتها بالجملة من تاجر وفد على مدينة أشتين من منطقة منابع النهر الأخضر.

صمت أفولاي قليلًا، وحاول فهم الموقف:

- قلت إنه وَفَدَ من منطقة منابع النهر الأخضر؟! منطقة منابع النهر الأخضر لا يوجد فيها ملح جيد كهذا!. وهي منطقة غير معروفة بالملح.. ولا تصدّره.

- هكـذا قـال.. إنـه تاجـر غريـب عـن المدينـة، ولم يسـبق أن تاجَـرَ ببضاعتـه هنـا.

- هل كانت معه كمية كبيرة من الملح؟

- نعـم.. حـوالي عـشرة بغـال مُحَمَّلَـة بأعـداد كثـيرة مـن أكيـاس الملـح.

نظر السيد أفولاي، وردد بصوت خافت:

- يبدو أنه اللص المحتال ساريل!

انتبه البائع إلى كلام السيد أفولاي، وقال يسأله:

- ماذا قلت أيها الرجل الطيب؟

همهم السيد أفولاي بصوت غير واضح، وقال في الأخير:

- ولكنني لا أرى في دكّانك غير كمية قليلة من الملح!

- صحيـح.. إننـي أنتظـر.. لعـل مشـتريًا يرغـب في شراء كل كميـة الملـح والبغـال دفعـة واحـدة، أو عـلى أقسـاط، ثـم إن دكاني صغـير كـما تلاحـظ.

- أعتقـد أن مَـنْ باعـك البضاعـة هـو لـصّ! سأشـتريها منـك.. كـم المقابـل الـذي تطلبـه؟

أثـار البائـعَ اهتـمامُ السـيد أفـولاي بالملـح، وتنبـه بذعـر إلى كلمـة لـص؛ فهـو يعـرف جـزاء المشـتري الـذي يشـتري بضاعـة مسروقـة. تزايـد فضولـه وخوفـه، وسـأل السـيد أفـولاي:

- كيف تعتقد أن البائع لص؟

- لأن نوعية الملح الذي اشتريته لا توجد إلا في بلدة بعيدة جدًا اسْمُها دريو. ثم إن البغال والأكياس كانت في ملكي، وكان هذا العامل الأجير يسافر معي في قافلة الملح. لقد استغل نومي ليهرب بالبضاعة في الليل.

اجتمع بعض الفضوليين حول السيد أفولاي، وراحوا يُصِيخُون السمع؛ فسأله أحدهم:

- كيف هو شكل هذا التاجر الذي اقتنى منه بارني كمية الملح والبغال؟

فرد أفولاي محاولًا استحضار أهم ما يميز ساريل:

- إنه شاب في حوالي الثلاثين من العمر.. قصير القامة، نحيف الجسم، وجْهُه طويل ومشوب ببعض الندوب.. اسمه ساريل.

قال البائع بارني بحماسة:

- تنطبق هذه الأوصاف على التاجر تمامًا.. لا شك في أنه هو.. وإنْ كان قد ذكر أن اسمه هو سوبو.

قال السيد أفولاي بتحفز اتضح من خلال نبرته الهائجة:

- هل يكون في المدينة؟

رد أحد الأشخاص من الخلف:

لقد شاهدناه آخر مرة في خَمَّارَة كوتي.. ولقد لفت استغراب أهالي مدينة أشتين تردده المستمر على المواخير والخمارات.

ردد السيد أفولاي في نفسه:

- لقد كان كذلك دائماً.. لم يكن له شغل في دريو، وكان إذا وقعت في يده قطعة نقدية يذهب بها فورًا إلى الخمّارة، أو إلى المواخير السرية.. كان مجرد حثالة، ولست أدري كيف خطر ببالي أن أطلب إليه أن يصطحبنا في الرحلة! لم أسمع نصيحة أسافو، وكانت هذه النتيجة الحتمية.. النتيجة غير المفاجئة طبعًا.

قال مخاطبا البائع:

- أيها السيد المحترم، احجز بضاعة الملح ببغالها كلها لي.. ستكون صفقة رابحة بالنسبة إليك. سأعود في وقت سريع.. هذا المساء أو صباح الغد على الأكثر.

قال ذلك السيد أفولاي، ورمى بصرّة مال مسبّقًا وعربون ثقة، وتحفز للمغادرة. لكنه سمع البائع يخاطبه:

- اطمئن.. سأحجز لك البضاعة، ولن أبيعها لغيرك، ولكن يجب أن أقول شيئًا حول السعر.

- سأعود لنتحدث في الموضوع.

واصل البائع يقول بصوت مرتفع، رغم ابتعاد السيد أفولاي:

- لن آخُذ منك إلا ما دفعته للص، وهو ثمن أقل بكثير من قيمة البضاعة.

هرول السيد أفولاي وسط السوق، ثم أخذ يبحث عن الخمارات في الأزقة والشوارع.. لم يعثر على ساريل. اجتاحته موجة

خيبة طوَّحت بآماله كلها، وأخذ يسير تائهًا بغير هدى.. كان مغيّبًا عن الواقع، وذهب تفكيره إلى صديقه ماسين، وارتاع حين تصور أنه ربما قد مات، لكنه أدرك بحس غامض أن ماسين لن يموت أبدًا.. إن مثل ذلك الرجل لا يمكنه أن يموت. وفكَّر في الشاب أسافو؛ الشاب الذي قتله الإرهاق والإخلاص وغصّة سرقة ساريل للبضاعة.. ماذا يفعل كي يرد جميل هذا الشاب؟!! احتار وسط زوبعة ريح خفيفة هزت ملابسه، ولفحت وجهه المعروق.

وجد السيد أفولاي- في الأخير- نفسه وسط حي غريب، يمرّ فيه بسرعة بعض الشباب والرجال من مختلِف الأعمار. وسرعان ما انتبه إلى فتيات جميلات يقفن عند باب كل منزل محروس من قِبَل شخص مفتول العضلات:

- إنها مواخير.. وهنا سيكون ساريل على الأغلب.

هكذا ردد السيد أفولاي في نفسه، وفكر أن يفتش في المواخير عن اللص ساريل، ولكنه نظر إلى الرجال مفتولي العضلات، ونظر إلى هيئته، وصور البذاءة التي تهاجمه من المواخير، فتبين له أن دخول مغامرة مثل هذه لا جدوى منه، ولو كان الثمن القبض على ساريل. انسحب السيد أفولاي من حي المواخير تحت أنظار الشباب المستغربة، التي تابعت خطواته العرجاء، وهي تكسر الصمت في الشارع الهادئ؛ الذي يبدو وكأن عصابة من الأشرار الشرسين تجوب صامتة الطرقات للانقضاض على الفتيات.

كان المساء ينزل سريعًا، وخيم هدوء مريب على المدينة. رأى

الشمس كبيرة ومتوهجة، وتحسس أيقونة ثفوشت، وخاتم زهرة الجمر، وشعر بالمهمة الثقيلة التي يحملها على كاهله. سار ببطء مستحْضِرًا حياته المتقلبة، وتذكر زوجه الجميلة التي أقسم بعد وفاتها أنه لن يقرب امرأة أخرى بعدها أبدًا، وأنه سينذر نفسه للقراءة والمعرفة والتجارة في الملح. فجأة وجد نفسه وجهًا لوجه أمام فارس يمتطي صهوة جواد أصيل؛ فارس يتدلى من الغمد، المربوط على حزامه، سيف كبير.. فارس قصير القامة، نحيف الجسم، يرتدي لباسًا باذخًا، وتشوب وجهه ندوب بُنية توزعت على وجهه الطويل:

- أهلا أيها الأعرج العجوز.. كيف وصلت حيًّا إلى هنا؟!

نظر إليه السيد أفولاي، وغضب عارم متحفز شَبَّ بضراوةٍ داخله:

- أنت، إذًا، ساريل رفيق الرحلة.. جميل أن أراك من جديد.

- نعم، أنا ساريل.. وأنت محظوظ أيها الأعرج الخَرِف.. لقد بقيت حيًا، رغم قَطْعِك كل تلك المسافة بِرِجْلٍ واحدة.. كنت أعتقد أنك ستحاول العودة إلى بلدتك دريو.. على الأقل.

- لا، لست أنا من يتقهقر ويتراجع.. يبدو أنك لا تعرفني!

- هذا صحيح.. فأنا لا أعرفك؛ ولهذا السبب وحده أخذت منك البضاعة.

بعد لحظة صمت:

- رأيتك تحفر قبر أسافو، وتجشّمت في ذلك عناء كبيرًا.. إلى هذه الدرجة أنت مخلص لذلك الشاب التافه؟!

- إنه من أفضل شباب دريو الذين عرفتهم في حياتي.. إنه شاب شجاع وأصيل.. لو كان معنا في تلك الليلة لَمَا استطعت سرقة القافلة.

- لست أحمقَ لأفعل.. أخذت القافلة، وأخفيتها بعيدًا، وعدت لأراقبكم كي أتخذ الوجهة العكسية لوجهتكم.

- الغدر سمة الجبناء.. أنت غدرت بنا، وقتلت أسافو!

ضحك ساريل، وقال شامتًا:

- ليتني استطعت قتله فعلاً! بالمناسبة، لقد نسيت أن أسحب من تحت رأسك الكيس.. ما أغباني!. كيف فاتني ذلك؟. ولكن عزائي أنك فقدت مساعدك المخلص أسافو، ودفنته بالملح والدموع. يجب أن تشكر فضلي لأني تركت لك بضعة أكياس بالمصادفة.. وتركتك في الخلاء لتموت جيفة؛ تنقر عيونها الجوارح، وتنهش لحمها الذئاب.. كما توقعتُ مخطئًا.

- دعنا نتحدث بشجاعة.. هل تقبل إرجاع أموالي التي سرقتها؟

قهقه ساريل عاليًا، وقال بسخرية:

- ابحث عن أموالك في الخمارات وفي المواخير.. سوف تجدها معفّرة بالخمرة المعتّقة، وبعرَق العاهرات الجميلات.. سأغادر مدينة أشتين لأعود بذهبٍ غالٍ اشتريته من هنا، وسوف أصبح غنيًا في

بلـدة دريـو، وسـوف أحيـط نفـسي بحـرس خـاص، وسـوف أدخلـك السـجن لـو حاولـت التحـرش بي في بلدتنـا.. إنـك تعـرف حـكام دريو.. لا يهمهـم إلا مـن يدفـع أكثـر.

- مزحــة لطيفــة.. أعلــم أنــك، يــا ســاريل، ســتنفق كل مــا تبقــى لديــك مــن مــال في المواخــير والخــمارات، وســوف تصــل دريــو، في أحســن الأحــوال، مفلسًــا متــشردا كــما كنــت دائــما!.

صمت السيد أفولاي قليلا، ثم قال بنبرة جادّة:

- حسـنًا أيهـا الفتـى، هـل بمقـدورك مبـارزة كهـل أعرج؟. ستسـتحق البضاعـة التـي سرقتهـا إذا قتلتنـي، ولتشـهد الآلهـة صـدْق مـا أقول.

- تريــد مبــارزتي أيهــا الخَــرِف!. ألا تحــرص عــلى مــا تبقــى مــن عمـرك؟. سـمعت أنـك صرعـت أسـدًا في شـبابك، ولكننـي لا أصـدّق هـراءً كهـذا.. ثـم إنـك أصبحـت الآن عجـوزًا أعـرج لـن تسـتطيع قتـل ولــو نعجــة.

- حــاول.. قــد أهزمــك.. صرعــت في شــبابي بضعــة ســباع، ولكــن الآن، وأنــا كهــل، أجــزم بأننــي أســتطيع، عــلى الأقــل، صرع نعجــة واحــدة.. عــلى الأقــل.

اِستلّ السـيد أفـولاي سـيفه، الـذي لم يكـن إلا سـيف أسـافو، ثـم لـوَّح بـه في وجـه سـاريل:

- هيا.. كن شجاعًا، وأخرج سيفك.

- لا يشرّفني قتل كهل أعرج ومخبول.

حاول السيد أفولاي أن يضرب بسيفه رأس ساريل، لكن ساريل استطاع أن يتفادى الضربة، فلم يُصَب إلا قليلاً على مستوى كتفه. لمز الحصان، ثم فر هاربًا من باب المدينة الغربي. وتبعه السيد أفولاي مهرولاً بعرجه الواضح، وهو يقول بهيجان:

- توقف أيها اللص الجبان.. سأقتلك يومًا ما.. توقف...

استمر السيد أفولاي يهرول مُطارِدًا ساريل، الذي اندفع بحصانه بسرعة خارج المدينة. ولم يتوقف عن مطاردة خصمه إلى أن حل الغروب، واختفى ساريل عن أنظاره؛ فتوقف بعيدًا عن مدينة أشتين ولهاثُه يتلاحق، وعطشٌ شديد يستبد به. جلس فوق صخرة، وكانت الشمس تختفي وراء التلال، والطيور تغطي الأفق البعيد، وأزيز النحل يُسمع واهنًا في نهاية يوم لم يكن عاديًا.

جئت لأتحدث معك،

ولأجلس بجنبك، لعلك تتعلمين الحب الذي أشعلتِه في قلبي أنت

تراقبين المضمار وأنا أتأملك،

دعينا نراقب،

كلانا معًا،

ما نحب،

ونمتّع أعيننا.

حريق وحب مهول

بعد شهر وثلاثة وعشرين يومًا، طرق المتصرّف باب منزل السيد ماريوس، وبجنبه فتاة هي قطعة من القمر، يسيل من فمها، المرسوم كوردة في طور التفتح، شلال من الرقة والعذوبة، وترتسم على وجهها غمامة بيضاء من هدوء أزلي، وشعرُها الهادر ينفلت مع نسمات أواخر الربيع الدافئة، راسِماً هالة بارعة حول جسدها المدْهش في تناسقه وجاذبيته المُثيرة. توجه السيد ماريوس إلى الباب بخطوات متثاقلة. كان قد أهمل نفسه، وكان يرتدي ألبسة غير لائقة، ولم يحلق ذقنه لأكثر من شهر ونصف، وبدا أنه لم يستحم منذ أكثر من ثلاثة أسابيع. فتح الباب، وهو يداري ضوء النهار، الذي فاجأ بصره، وفي النهاية كاد يغشى عليه، وهو يرى ضوءًا أكثر بريقًا ورقّة يتجسد في فتاة أمازيغية فاتنة لم تكن إلا تيرارا. خجل السيد

ماريـوس مـن نفسـه.. لقـد وجـد أمامـه فتـاة مختلفـة تمامًـا عـن تلـك التـي جلبتهـا إليـه سـانيس ذات يـوم.

أدخـل السـيد ماريـوس، بـكل احـترام وتبجيـل، تـيرارا إلى المنـزل، الـذي كانـت تسـوده فـوضى عارمـة. لاحظـت تـيرارا ذلـك؛ فقـرّرت بـدْء الشـغل منـذ تلـك اللحظـة. وقبـل أن تـشرع، طلبـت، بـوُدّ سـاحر، إلى السـيد ماريـوس أن يسـتحم، وأن يحلـق لحيتـه، ويرتـدي لباسًـا يليـق بـه. فـما كان عـلى السـيد ماريـوس إلا أن يمتثـل، بنشـوة عارمـة، لمشـيئة تـيرارا. ولأول مـرة، منـذ فِقدانـه تيرينـا التـي دفنـت نفسـها في البحـر، يشـعر السـيد ماريـوس بفـرح يداعـب شِـغاف قلبـه، ووجـد في نفسـه موجًـا هـادرًا مـن حـبٍّ يكتسـحه، واكتشـف أن الفتـاة البربريـة تـيرارا هـي حبّـه الحقيقـي الأخـير.

بعدمـا أصبـح المنـزل قـصرًا نظيفًـا، ومرتبًـا بـذوق أنيـق اسـتغرب لـه السـيد ماريـوس، جلسـت تـيرارا تتنـاول فطـورًا متأخـرًا في حـضرة الرجـل الـذي عـاد إلى أناقتـه السـابقة، ومنزلـه الـذي تحـوَّل؛ بفضـل مجهـودات تـيرارا المتسـمة بأناقـة بارعـة، إلى تحفـة وضـع فيـه كل شيء ثمـين في المـكان الـذي ينبغـي لـه أن يكـون فيـه. قالـت تـيرارا موجهـة كلامهـا إلى السـيد ماريـوس بعدمـا أصبحـت تجيـد التحـدث بلباقـة مدهشـة، وتنتقـي كلماتهـا بمنتهـى الدقـة واللباقـة:

- والآن، أيهـا السـيد ماريـوس، أرغـب لـو تتمـم وصيـة لوطـر لسـانيس.. هـل تسـتطيع أن تجـد لي عمـلاً محترَمًـا؟

ابتسم السيد ماريوس، وقال بتلعثم لم يستطع مداراته:

- نعم، أريدك زوجة، وسيكون عملك الدائم هو تنبيهي إلى حلق ذقني إذا سهوت.. وأرجو، بكل حبي لكِ ومشاعري، أن تقبلي هذا العرض.

انشغل الناس خارج المدينة بالموت المفاجئ للحاكم أورليوس سيبيو، بعدما اشتد عليه مرض البواسير؛ فأزهق روحه أثناء محاولة مستحيلة للتغوط؛ بحيث تقطع شرجه على نحو مريع، وتسبب له ذلك في نزف دموي لم يتوقف، لقد وجدته زوجه واري في أحد الأصْباح ساقطًا على جنبه الأيسر في الحمام. وبينما كان القائد صولا، الذي بدا ذلك اليوم كفرس نهر هائج، يشرف على مراسم دفن الحاكم، وفي الوقت نفسه يشرف على تنصيب نفسه حاكماً جديدًا للمدينة، أصيب الناس بالذهول لحادث موت حاكمهم الطيب، ولم ينتبهوا كثيرًا إلى الرائحة النتنة، التي عزاها بعضُهم إلى حزن الآلهة على موت الحاكم أورليوس سيبيو. وبعد إتمام مراسم الدفن، أعْلِنَتِ الأفراح فورًا في المدينة حتى قبل أن يعود الأمناء والأعضاء من مكان دفن حاكمهم السابق أورليوس سيبيو في حديقة قصره. وزَّع الرئيس صولا الخمر على نحو واسع في شارع الرئيس في ذلك المساء، وأمر بإحضار فرق موسيقية أحيت الليلة تحت رقصات السكارى والراقصات، وقُدم لحم الماعز المشوي على الجميع، ولم ينسَ إصدار أمر خطير:

- يجب تطويق قصر الحاكم السابق أورليوس سيبيو، وفرْض إقامة إجبارية على كل مَنْ فيه.

في صباح الغد، وبعد طقوس الاحتفال الصاخب، استيقظت مدينة أرتو على فوضى عارمة.. زبْل في كل مكان، وسكارى يترنحون من ثمل الشراب، وكلاب تنهش ما تبقى من لحم في عظام الماعز الذي شوي بأعداد كبيرة.

حريق

أغدق السيد ماريوس كل اهتمامه على زوجه الرقيقة الجديدة تيرارا، التي أشاعت في منزله الفاخر نفحة دفء حميمية. وعاش مع تيرارا قصة حب ساحرة بعيدًا عن المحيط الذي أصبح قذرًا في أرتو؛ قصة حالمة كما لو أنهما يعيشانها في جزيرة مدهشة وسط بحر بلا سواحل. واستطاع الزوجان، اللذان امتزجا نفسيًا في عشق مثير، عزل كل المؤثرات الخارجية عن مُتعهما في المنزل الفاخر. وظلت تيرارا حريصة على نثر رحيق الورد لكي تصدّ الروائح النتنة المنبعثة من الخارج.

ساءت أحوال السكان في أرتو، وأصبح الجو مشحونًا بعدم الثقة والأمان. وفجأة انبعث دخان قاتم في فجر يوم ثلاثاء تعيس؛ فقد هاجمت تشكيلة من الحرس الليلي لمدينة أرتو، عند منتصف الليل، وفي سرية تامة، حي الأمازيغ. كانت غاية تلك السَّرِية سرقة بعض قطعان الماعز لإعالة أسر أولئك الحرس الجائعة. غير أن الأمازيغ تنبهوا- في آخر لحظة- للواقعة؛ فنشب عراك فجائي شرس بين الحراس المدجَّجين بالرماح والسيوف، وكل سكان جبل

الأمازيــغ، الذيــن اســتنفروا أنفســهم، وانــبروا يدافعــون عــن حيّهــم بشــتى الوســائل الممكنــة؛ إذ أشــعلوا النــيران، وأخــذوا يهاجمــون الحــرس بالهــراوات والمشــاعل. واحتدمــت المعركــة؛ فســقط عــدد مــن الأمازيــغ قتــلى، نســاءً ورجــالًا، ومــات حــارس مــن حــرس أرتــو إثــر لهــب شَــبَّ في ثيابــه، وعــدا جــواده الــذي وصلــه اللهــب في زقــاق ضيــق، وســقط- في الأخــير- قــرب منــزل مبنــي بالقصــب والعيــدان عــلى غــرار كل منــازل الأمازيــغ؛ فاشــتعل المنــزل بالنــار، وانتقــل الحريــق بسرعــة ليشــب في جميــع الأكــواخ. وفي الأخــير، أصبحــت النــيران تلتهــم كل حــي جبــل الأمازيــغ، وتصاعــد دخــان أســود غطــى مدينــة أرتــو، ونــشر فيهــا رائحــة لحــم بــشري مشــوي، وسُــمع صراخ جماعــي رهيــب اســتمر متواصــلًا مــن بــزوغ الشــمس إلى الضحــى. ومــرت ســحابة دخان أســود غطــت كل فضــاء المدينــة، ودخلــت بعــض المنــازل التــي كانــت نوافذهــا مفتوحــة. اســتيقظ الحاكــم صــولا مذعــورًا عــلى رائحــة الشــواء اللاذعــة، والدخــان الأســود الــذي عاينــه مــن خــلال نافــذة بيتــه. طلــب مــن الفــور إلى الجنــود اســتقصاء مــا يجــري.. لقــد ذهــب ظنــه إلى أن المدينــة تتعــرض إلى هجــوم مــن غــزاة، وإلى أنهــم شرعــوا في إحراقهــا. أخــبره أحــد جنــوده أن مصــدر الدخــان هــو جبــل الأمازيــغ، وأن ألســنة لهــب عاليــة ترتفــع مــن هنــاك.

- اللعنة!

قــال الرئيــس صــولا بانفعــال ارتــجّ لــه شــارباه الملتفــان حــول فمــه العريــض، ثــم أضــاف:

- لماذا لا يرحلون؟. لماذا يحتلون الجبل؟! يجب أن أعلن عليهم الحرب، وسأطردهم وأطَهِّر المدينة من نجاستهم.

ظل الدخان الأسود يغطي مدينة أرتو، بعدما خمد لهيب الحرائق في الجبل أخيرًا. وبعد أكثر من نصف نهار كامل، بدأ الدخان يبتعد عن المدينة بفعل رياح هبت فجأة، وأزاحت الدخان الكثيف ورائحة الشواء المقززة. رغم كل الجهود التي بذلها الحاكم صولا لمعرفة أسباب اندلاع الحريق المَهُول، الذي محا أكواخ جبل الأمازيغ، فإنه لم يستطع الوصول إلى معلومات كافية حول الحادث، ولكنه علم أن تشكيلة حرس ليلي، تتكون من عشرين فارسًا، فُقدت، ولا أحد يعرف مصيرهم. ولم يستطع الحاكم صولا فهْم العلاقة بين اختفاء تشكيلة من حرس الليل، والحريق المهول الذي قضى على أكواخ جبل الأمازيغ، وأزهق أرواحهم. في المساء، كان الجو مناسبًا لكي يخرج الحاكم بنفسه، على رأس الكتيبة المرافقة له على الدوام؛ الكتيبة المُشَكَّلة من أشرس وأخلص جنود أرتو للحاكم صولا.

خرج موكب الفرسان، وأخذ يخب بهدوء. خلت المدينة تمامًا من الناس، ولم يكن هناك متجر واحد مفتوح. ولصق بعض الدخان الأسود ببعض المنازل، التي كان لونها فاتحًا في السابق، وهي غالبًا منازل لأعضاء وأمناء مجلس المدينة؛ فحوَّلها الدخان، كما باقي المباني، إلى لون باهت بلا روح أو حياة تبهج النظر. وقف موكب الحاكم صولا أمام جبل الأمازيغ، الذي كان لا يزال يطلق

بقايا خيوط دخان متفرقة. كما بدت عدة حرائق شبه خامدة في عدة جهات من جهات الجبل. شعر الحاكم صولا بالانتشاء لهذا الحدث الذي خلصه من تلك الحثالة من البربر، الذين كان يشعر بهم يجثمون فوق الجبل، وكأنهم يجثمون على صدره. أمر جنوده بالرجوع، وأصدر أمرًا صارمًا:

- ينبغي البحث عن الحراس الليليين، وإحضارهم فورًا.

هَمَّ الحاكم صولا بالوقوف، رفقة موكبه، حِذاءَ بناية الرئيس. وحين سمع صوت حارس جاء مندفعًا بجواده، بسرعة فائقة، مُلاحقًا رئيسه، يقول وأنفاسُه تتلاحق:

- سيدي الحاكم، هناك عدد كبير من الأشباح على سفح جبل الأمازيغ!

دارى الحاكم صولا فزعه، وصمت قليلاً وسط ترقب جنوده البواسل، الذين بدأ بعضُهم ينفلت منه بوله في ثيابه؛ خوفًا من أن يأمرهم الحاكم صولا بمقاتلة الأشباح. استشعر الحاكم هلعًا جمَّد أوصاله من الداخل، ولكنه تَجلَّد، وحافظ على هدوءٍ خادع كان شبه مستحيل، وقال بصوت مرتبك غير معهود في شخصيته الموسومة بالقسوة والصلافة:

- على أي حال، لن نتمكن من محاربة أشباح.

وبعد تفكير قصير، أضاف:

- لنذهبْ من هنا.

ولما كان الحاكم صولا واثقًا من أن الأشباح التي تحدث عنها الحارس يمكن أن تظهر أمامه فجأة، وفي كل مكان، فقد أخذ يجول بجنوده وسط المدينة، وكان ذلك الوضع يريحه؛ فهو على الأقل موجود بين فرسانه. وبعد لحظة، وجّه الحاكم صولا موكبه نحو جبل حي الأمازيغ من جديد. لم يفهم الدافع الذي دفعه نحو اتخاذ ذلك الموقف، الذي وجده الكثير من جنوده غير مريح بالمَرَّة، ولكن الواقع أن الحاكم كان في حالة اضطراب لم يعرف كيف يتصرف حِيالها، وكان فاقدًا توازنَ تفكيره في تلك اللحظة. وبما أن طبعه يغلب عليه الكِبرْ والعجرفة، فقد منعه ذلك من مشاورة أقرب مرافِقِيه، وبالخصوص الأمين ساوسي الملقب بـ «صاحب الردف الواحد». وبينما واصل موكب الفرسان خببه في أحد الأزقة، شعر الحاكم صولا وموكبه برائحة الحريق تتزايد، وبموجة كثيفة من لحم مشوي تندفع مقتحمةً الأنوف إلى درجة جعلت عددًا من الجنود يسْعلون بحدّة. انعطف موكب الفرسان من الزقاق ليجدوا أمامهم فجأة عشرات من الأشباح المُخِيفة. تجمّد الموكب فورًا، وذعر الجميع للمشهد المهول؛ فكبَّل الرعب حركتهم وردود أفعالهم، فقد شاهدوا منظرًا مريعًا لا يصدق!. أطفالًا ونساءً وشيوخًا ورجالًا سُلِخَت عنهم جلود وجوههم، وصدورهم، وأطراف كثيرة من أجسادهم العارية المصبوغة بسواد دخان قاتم. على حين تفحَّم شعر البعض الآخَر، وسال على أجسادهم دم أسود داكن؛ دم مختلط بتراب وطمي وخِرَقٍ من كتان منكمشة ومحترقة.

- اللعنة!

صاح الحاكم صولا، وهو يستيقظ من فزعه أخيرًا.. لقد تنبه إلى أن ما يراه مجرد عشرات من بقايا الأمازيغ، الذين لم يقض عليهم الحريق نهائيًا. وقف الأمازيغ المحترقون بوجل وبألم ممضّ، أمام الحاكم صولا، في رجاء صامت؛ لأجل مساعدتهم وتطبيبهم، ونزَّتْ دموع سوداء من عيونهم المنطفئة. قال أحدهم بصوت مرتج، وكأنه صوت غريق يخرج من تحت الماء:

- هاجمنا أمس بالليل بعض حراسك.. كانوا يرومون سرقة ماعزنا ودجاجنا، وهم مَنْ تسبب في إحراق الحي بأكمله.

اطمأن صولا للكلام الذي سمعه، وفهم سبب غياب الحراس الليليّين الذين كان يبحث عن سبب اختفائهم. وبعدما استشعر من جديد قوته المعنوية، التي افتقدها لوقت وجيز، أعطى أوامر صارمة، وبدم بارد:

- ابعجوا بطون هؤلاء الحثالة برماحكم.. لا أريد وسخًا أكثر في المدينة!

في رمشة عين، كانت الأشباح المخيفة قد تحولت إلى مجرد مصارين ودماء نازفة ممتزجة بلحم بشري أحمر، وصراخ رعب امتد صداه في كل أزقة أرتو وشوارعها. ابتعد الحاكم صولا بجنوده عن المكان، وقال لمرافقه الأمين ساوسي:

- ستلتهم جثثهم الكلاب الضّالة في الليل لا محالة.

ثـم تذكـر فجـأة الحـارس الـذي جـاء بنبإ الأشـباح، وأطلـق الحاكـم أمـرًا عاجـلًا:

- يجـب إحضـاره فـورًا.. ذلـك الحـارس الرعديـد الـذي أخبرنـا عـن أشباح.

وفـورًا، أيضًـا، كان الحـارس يقـف مبتهجًـا أمـام الحاكـم بوجهـه النحيـف الطويـل، الـذي يشـبه وجـه ثعبـان مائـي مسـالم. ولكـن الحاكـم- هـذه المـرة- لم يصـدر أمـرًا، بـل اسـتلّ سـيفه، وغرسـه في قلـب الحـارس، الـذي انكفـأ عـلى عنـق الجـواد، قبـل أن يسـقط عـلى الأرض، ثـم يغـرق في دمـه، ويلفـظ أنفاسـه الأخـيرة.

- خـذوه، وضعـوه فـوق كومـة البربـر المحروقـين القتـلى.. لا أحـب حارسًـا جبانًـا، يحدّثنـا عـن الأشـباح بعـد اليـوم!

حُب

بـدا السـيد ماريـوس تائهًـا تمامًـا، ودارت في ذهنـه تصـورات كثـيرة، وفكـر في أن يفعـل شـيئًا لتغيـير الوضـع في أرتـو، التـي يراهـا، بأسـىً عميـق، مدينـة تتوجـه نحـو نهايـة بطيئـة وتعيسـة. لا يسـتطيع فتـح النوافـذ؛ فالهـواء في الخـارج مقـرف وكريـه. رغـم المتعـة المدهشـة التـي تزرعهـا في نفسـه تـيرارا، إلا أنـه يشـعر بالضيـق، وكأنـه مسـجون في حيّـز خانـق لا هـواء فيـه. فكـر في الأحـداث الماضيـة، وراعـه أن يعايـن بعجـز غـرق المدينـة التـي عشـقها دومًـا. فكـر في حـيّ جبـل الأمازيـغ، وتذكـر

المقاتلين البارعين الذين تطوّعوا للدفاع عن المدينة. تذكر شجاعتهم ومهاراتهم الخارقة في القتال.. كيف فاته التفكير في جزء من سكان أرتو، يشكل مكونًا لا يمكن إغفاله أو إسقاطه من سجلاّت مكتبة البناية، فقط لأن البربر لا يملكون سوى ماعز يرعى في الجبل بين البيوت الصغيرة الفقيرة، ومزارع بسيطة يعتاشون من غلالها؟ وكيف لم يدر بخلده قط أن في ذلك الحي يمكن أن يعثر على فتاة بارعة الجمال.. فتاة شابة أشبه ما تكون بحلم حلو لا ينتهي إلا ليعود من جديد؟

رأى زوجه الأمازيغية تيرارا المفعمة بالعنفوان والجمال، تتمدد على السرير شبه عارية، ترتدي فقط لباسا شفافًا يفضح حلمتيها النافرتين، وسرتها التي تشبه فم إلهة طفلة، وجسدها المنحوت ببراعة لا تصدق. وجد نفسه مبهورًا، وهو يتأمل الفتاة الشابة المستغرقة في شرود هادئ. شكر كل آلهة الأرض؛ لأنها بعثت له هذه الأيقونة الفاتنة لتنير حياته ونفسه العميقة، التي كانت قد بدأت تغرق في ظلام حالك. لقد اعتقد- في لحظة ما- أن الحب ينفلت منه، وأنه لن يجد فتاة أحلامه أبدا.. لكن هذه الأمازيغية، الهاربة من أسطورة حقيقية، فرضت عليه نفسها في وقت كاد يقتله فيه اليأس. لقد اقتحمت تيرارا حياته على نحو مباغت وجميل، وخلقت منه ماريوس آخرَ، وبرؤية أخرى للحياة والمستقبل.

رمى عينيه إلى الحديقة من خلال زجاج النافذة، ورأى طيورًا قلقة تتقافز بوجل من سور إلى سور، ومن شجرة ذابلة إلى أخرى؛

فاحتـواه شـعور يقينـي بـأن شـيئًا مـا مريعًـا سـيحدث في المدينـة، ولكنـه لا يـدرك كُنْـه هـذا الـشيء. وانقبضـت نفسـه حـين رأى كلابـاً نحيفـة تجـوس بعيـدًا، وريحًـا غبارية تهـب سريعـة، وتجمـع مـن الشـارع كل مـا تصادفـه مـن القـاذورات، وتشـتتُ الـكل فـوق شـوارع المدينـة وأحيائهـا. حـوَّل السـيد ماريـوس بـصره عـن الخـارج، واندفعـت نفسـه نحـو تـيرارا المسـتلقية بسـحر خـارق فـوق السريـر. شـعر فـورًا بحريـق وديـع يشـبّ داخلـه، وراودتـه انفعـالات غريبـة جعلتـه يبـدو مضطربًـا وواقعًـا تحـت حالـة غـير مفهومـة مـن الحـيرة. اسـتمرت تـيرارا ممـدّدة جسـدها الجحيمـي شـبه العـاري فـوق السريـر. كانـت تداعـب سـوارًا فضيًـا بيدهـا. ثـم انقلبـت، وتمـددت عـلى بطنهـا فـوق السريـر؛ ورأى ماريـوس ردْفـين مكتنزيـن، وفخذيـن مصقولتـين، وخـصرًا بديعًـا، وشـعرًا ملقـىً بفوضويـة متناثـرًا كسَـبَائِك مـن معـدن نفيـس عـلى كل شيء حولهـا.

بلـع ريقـه، وخـرج مسرعـا إلى المطبـخ. شرب كأس نبيـذ، ثـم عـاد إلى حجـرة النـوم مـن جديـد. تخلـص مـن ردائـه، وأصبـح بـدوره في ثيـاب خفيفـة، واقـترب مـن السريـر. أول مـرة يشـعر بوجـل غـير مـبرَّر يجتاحـه، ولأول مـرة أيضـا يكتشـف السـيد ماريـوس أن زوجـه تيريـرا لم تكشـف عـن جاذبيتهـا الكاملـة بعـد، وأنهـا مـا تـزال تُخْفـي الكثـير مـن مفاتنهـا. جلـس عـلى حافـة السريـر، وواصلـت تـيرارا التلاعـب بالسـوار الفـضي غـيرَ مباليـة. نظـر السـيد ماريـوس إلى قدميهـا اللتـين تهتـزان بوقـع فاتـن، وإلى سـاقيها المكشـوفتين تمامًـا، وتبـين لأول مـرة أن لـون جسـد تـيرارا هـو مزيـج مـن لـون الذهـب والنحـاس والفضـة.

تأمـل ردفيهـا.. تأملهـما طويـلا قبـل أن يمـدّ يـده المرتعشـة، ويمـرّر بلطـف إصبعـه بـين ردفي تـيرارا، مـن دون أن يغـرق إصبعـه في العمـق. واجتاحـه مـن الفـور إحسـاس غامـض.. لقـد خُيـل إليـه أن أصابعـه تغـرق في زبـد البحـر، وأنـه يلامـس موجًـا لطيفًـا يتكسر عـلى صخـور بحريـة صغـيرة، وأنـه يتحسـس سـجادًا أنيـق الألـوان والأشـكال. ظلت تـيرارا محافظـة عـلى صمتهـا وهدوئهـا العفـوي. بـدت وكأنهـا غـير مهتمة بوجـود السـيد ماريـوس، ويـده التـي تداعـب ردفيْهـا برفـق وعذوبـة، واسـتمرت تحـرك السـوار الـذي يصـدر صليـلا بإيقـاع رتيـب ومُطْـرِب، ذكّرهـا بموسـيقى قديمـة وسـاحرة سـمعتها- ذات أيـام بعيـدة- في جبـل الأمازيـغ، وذكّرتهـا برجـل رائـع ونبيـل قـضى جـراء عشـقه الـلا متناهـي للجـمال. كانـت تـيرارا تفكـر في كل شيء، ولم تكـن- في الوقـت نفسـه- تفكـر في أي شيء. شـعرت بيـد السـيد ماريـوس تحررهـا مـن اللبـاس الشـفاف؛ فرفعـت وسـطها مـن فـوق السريـر لتسـهل عليـه العمليـة، ثـم تماهـت مـع رغبتـه، وتركتـه يجرّدهـا مـن كل ثوبهـا، ولم يكـن يعنـي لهـا ذلـك شـيئًا كثـيرًا؛ فقـد كانـت شـديدة الـشرود، وواصلـت التلاعـب بالسـوار الفـضي، الـذي يطلـق نـبرات موسـيقية بإيقـاع حـالم. وجـد السـيد ماريـوس نفسـه أمـام جسـد مبهـر؛ جسـد يفيـض بالأنوثـة، ويفـرز رغبـة قاتلـة. وشـعر بأنـه يفقـد التحكـم في نفسـه، وتوصـل إلى حقيقـةِ أن الرجـل مهـما كان رجـلاً حقيقيًـا، سـيبقى ضعيفًـا أمـام الجـمال الـذي لا يمكنـه أن يتجـلى، بـكل صفاتـه وعنـاصره، إلا في جسـد امـرأة عاريـة ومقـشرة كثمـرة رمـان.. ثمـرة رمـان تتناثـر- في النهايـة- حباتهـا الحمـراء الجميلـة أمـام عينيـه، وتتشـتت داخـل روحـه لترجّـه رجًّـا قويًـا.

أغرق السيد ماريوس، بعد أن تخلص من ثيابه، وجهه في جيد تيرارا، وشمّ عطر جسدها الحارق، وأخذ يغمرها بقبلاته النهمة، وبدأت تيرارا تتفاعل بعفوية مع مداعباته العذبة، وتطلق آهات متقطعة يهتز معها السوار الفضي في يدها ليشكّل لحنًا عجيبًا، يجسد اللذة والموسيقى في أبهى صورتيْهما. قطف السيد ماريوس من ثمار تيرارا بعذوبة وبرعشة رافقت أصابعه الوَجِلة، وواصلت تيرارا التوغل في غواية بدأت تتحرك فيها شيئًا فشيئًا، وفاض شعرها فغمر وجه السيد ماريوس، الذي أحس وكأنه في حلم فردوسي لا يمكنه أن يتحقق إلا في السماء. مرّر لسانه على جيد تيرارا، وداعب به جسدها، وشربا رحيق بعضهما بعضًا.

بعد مداعبات حميمية عميقة، بدا وكأن نارًا من نور تشتعل في السرير، وتساقطت حبات عرق بطعم سمك شهي مملح؛ عرقٍ ممزوج بريق ورضاب سال في روح تيرارا، وجعلها تهتزّ هزات عنيفة مترادفة مع صليل السوار الفضي، الذي ظل يصْدر وقعا يتصاعد ثم ينخفض.. ثم يهيج ليخمد في الأخير، وكان السيد ماريوس يستعيد أنفاسه... ومن الفور تذكر معركة الذئاب، وتذكر الأميرة سانيس التي مرت، كما لو أنها طيف غيبي، بين الجنود، ووسط الرماح والسيوف، وتذكر تيرارا حين وقفت إلى جانب الأميرة سانيس أمام باب منزله بألقها وفتنتها التي تسربت إلى قلبه، ورجّته رجّا عنيفا، ورأى تيرينا تقف أمامه في مكتبة بناية الرئيس شامخة وهّاجة برائحة البحر التي تنبعث منها، وبلباسها الحريري الفاخر، وحليها الذهبية الثمينة، وملامحها العبقة بجمال أمازيغي أصيل،

ووجهها المدوّر الذي يشبه بدرا ساطعا يطْلق إشعاعا نورانيا يغمر الكون كله، وتذكر أنها جاءت لتسأله عن أنير.. منذ ذلك الزمن، تغيرت حياته جذريًا؛ فها هو يتذوّق حلاوة الحب الحقيقي الذي طالما تطلَّع إليه بشغف وأمَل، وكان ذلك الأمل، غالبًا، أملاً يائسًا جدًا، قبل أن يتحول إلى واقع يعيش متعته بكل اللذة التي تغمر روحَه الآن. وبينما كان سارحًا في أفكاره البعيدة، كانت يد تيرارا تعبث بشعر صدره، وتدسّ رأسها الجميل تحت ذراعه القوية.

خرجت تيرارا عارية تمامًا من الفراش، وخطت أمام ناظِرَي السيد ماريوس المندهشة؛ فرأى ردفيْها يرتجّان بفعل مشية أنيقة متراقصة، وشعرها الطويل المجعد يسيل ليصل إلى ردفيها، وقدميها الصغيرتين الجميلتين تكاد لا تلمس الأرض.. حينذاك وَدَّ لو يُبْقيها إلى الأبد بجنبه في الفراش، وراودته رغبة ملحّة في أنْ يتْبعها إلى الحمّام ليستحِما معًا.. في حوض واحد.

أحب أن أبقى الآن بين ذراعي حبيبتي وأشعر الآن،

لو أوتيت ذلك يومًا،

أنها لصيقة بي.

النوم عميق الآن،

والهواء بارد عليل، وغناء الطير ينسكب من الحناجر النحيلة لحنًا رقراقًا.

الأيقونة الحزينة

أصبح جسم أنير هزيلًا وضعيفًا للغاية، ولكنه كان يؤمن- في لحظات صفوه الذهني- بأنه سيخرج من السجن، وبأنه سيلتقي أخيرًا الأميرة سانيس إلى الأبد. وكانت سانيس تملأ سجنه الانفرادي المظلم على الدوام. وطالما تحدث إليها بصوت مسموع، وهو يجلس القرْفُصاء، مُسْندًا ظهره إلى الحائط البارد، وأسنانه تصطكّ. واستمرت نجمة وهَّاجة تنير في خياله سجنه المظلم، وظل صوته يُسْمع في الخارج، حين كان يتحدث إلى طيف سانيس الذي يملأ فراغه، المشحون بالظلام والعفونة؛ فيأتي إليه أحد الحراس ليُسْكته بِنَغْزةٍ مؤلمة من عقب رمحه. وبين اليقظة القصيرة والهذيان المحموم، بقي مرميا فوق أرضية السجن الباردة المشبعة بالرطوبة، وأصبح السجَّان يأتيه بالطعام

القليـل، ويدفعـه إليـه مـن بعيـد برمـح؛ لكـي لا يطـأ عـلى المـكان الـذي تحـول إلى شـبه مسـتنقع تسـبح فيـه الحـشرات والفئـران وكل شيء مقـرف. ولم يكـن مسـتغربًا أن ينتظـر الحـراس موتـه في كل لحظـة، ولكنـه لم يمـت:

- «هذا الخراء لا يريد أن يموت».. ردد أحد الحراس بملل.

مـرت أيـام طويلـة، ولم يتغـير شيء في المدينـة، سـوى فـوضى عارمـة لازمتهـا منـذ أن أصبـح صـولا حاكـما لأرتـو. كسـدت أغلـب المهـن والحِـرَف، التـي كانـت مزدهـرة في السـابق، وأغلقـت جـل الخانـات بسـبب عـدم توقـف القوافـل فيهـا، وتفضيلهـا وجهـات أخـرى أضحـت آمَـنَ وأكثـرَ اسـتقرارًا مـن مدينـة أرتـو، وكسـدت تجـارة النبيـذ بعدمـا أصبـح شربهـا ترَفًـا لا يملكـه إلا أمنـاء وأعضـاء مجلـس المدينـة، وبعـض الأغنيـاء الكبـار. وقـرّر السـيد جينيـو الرحيـل عـن المدينـة؛ فمـلأ العربـة، التـي كانـت في السـابق تنقـل الزِّبْـل، بعدمـا نظفهـا جيـدًا، بأمتعـة منزلـه، وأخـذ زوجـه وأطفالـه، وهاجـر إلى منطقـة مجهولـة؛ فقـد تكاثـر الوسـخ، ولم يعـد يسـتطيع جَمْـع كل كميـات الزِّبْـل الهائلـة مـن وسـط المدينـة، ومـن أمـام أبـواب البيـوت. ثـم إنـه لم يتلـقَّ أجـرًا مـن محاسـب المدينـة منـذ أشـهر لسـببٍ بـدا لـه غامضًـا. وأصبـح الطقـس في أرتـو عجيبًـا، ولم يعـد أحـد يسـتطيع التنبـؤ بـما يمكـن أن يحـدث في أي سـاعة مـن اليـوم؛ فقـد يكـون الطقـس مشمسًـا، ولكـن فجـأة تهـب ريـاح عاصفـة، وتسـقط أمطـار تتسـبب في سـيولٍ وأوحـال تُغْـرِقُ المدينة لأيـام، وأصبحـت أرتـو تعيـش كل فصـول السـنة في أسـبوع أو في يـوم

واحد! وذهب الناس إلى نُصُب الآلهة، وتضرعوا إليها؛ لكي تعود المدينة إلى سابق عهدها، ولكن- حتى ذلك الوقت- لم يتغير أي شيء فيها!

- إنه بازوزو[1]، يحل ضيفًا رهيبًا على المدينة!

هكذا ردد الناس، وهم يرون في كل يوم بضع جثث مرمية على أرصفة الشوارع والأزقة.

لم تمت أرتو، ولكن بوادر ذلك الموات لاحت بوضوح في الأفق، لولا إيمان سكانها بتغيير إيجابي يمكن أن يحدث في أي وقت، وهو الإيمان نفسه الذي ينعش الآمال حين تشتد الأزمات في كل مكان وزمان. ورغم كل شيء، فقد استمرت الكثير من معالم الحياة في المدينة.. حياة صعبة، ولكنها كانت تستحق أن تسمى- على الأقل- حياة في آخر الأمر. وبينما كان الناس، ذات يوم، يزاولون أعمالهم وانشغالاتهم القاسية؛ كما العادة، شاهدوا امرأة غريبة تنزل من جبل الأمازيغ؛ امرأة لم يَرَها أحد في أرتو من قبْلُ. تخطت المرأة في طريقها، وهي نازلة الجبل، ركام الطوب الأسود المحروق، وجثامينَ تبقت منها فقط عظام سوداء، وحطام ورماد مبعثر في كل مكان، وسارت وسط عقبان سوداء كانت تحلق في المكان. لقد بدت تلك المرأة في لباس عجيب، وصَعُبَ على الناس تحديد عمرها، وبدا وجهها منكمشًا وكثير التجاعيد؛ بحيث يسهل جدًا القول بأنها امرأة

(1) بازوزو: Pazuzu، في التراجيديا القديمة، هو إله يأتي من الشرق حاملا الكوارث والأوبئة.

عجوز يقارب عمرها الثمانين، ولكنها- مع ذلك- أظهرت قوة استثنائية، ببنية شامخة، مع تفاصيل أنثوية واضحة في جسدها، إلى درجة يمكن اعتبارها امرأة ناضجة ومثيرة الأنوثة في حوالي الثلاثين. واصلت المشي وسط مدينة أرتو، ساحبةً عيون كل المشاهدين المشدوهين لرؤيتها. مشت بهدوء وبخطوات رتيبة، وهي تردد كلامًا خافتًا غير مسموع، بينما تسمّر نظرها بعيدًا مخترقًا كل شيء من دون أن يرمش لها جفن.

أربكت الحركة في كل زقاق أو شارع عبرته، وبعثرت المشترين من أمام بائع السمك، ونسي الخَضَّارُ الزبائن، وفغر فمه على نحو مدهش، والتفتت إليها الأنظار من كل الجهات، وتوجست الكلاب الضالة الكثيرة، فتفرقت مبتعدة عنها. وأصبحت المرأة الغريبة- في الأخير- تسير في شارع الرئيس، وبدا واضحًا أنها تقصد جهة معينة. وفجأةً، حين انعطفت من زقاق ضيق، واقتربت من قصر الحاكم صولا، تعالى قريبًا منها صهيل جياد، لم تتوقف حوافرها عن دقّ حجر الطريق. اصطدم موكب الجنود فجأة بالسيدة جيزيا. تجمد حصان الحاكم في الحال عن الحركة، واصفرّت سحنة صولا رُعْبًا، وسَرَت همهمة فزع بين جنوده الأشاوس. تقدمت نحوهم السيدة جيزيا بخطوات هادئة، واخترقت بنظرها الموكب كضربة سيف حاد، ووصلت إلى الحاكم صولا، ونشبت فيه عينيها المشتعلتين بالشّرَرِ؛ فشعر بالارتباك، وتراجَعَ قليلًا إلى الوراء.. أراد أن يقول شيئًا، ولكنْ لم يستطع إخراج كلمة واحدة من فمه، غير أن لسانه، الذي يشبه لسان ورلٍ ضخم، ظل يخرج ويدخل إلى فمه بوتيرة غريبة!

قالت السيدة جيزيا بصوت وكأنه يخرج من قبر:

- احترق حي الأمازيغ عن آخره!. وقتلتَ بوحشية مَنِ استنجدوا بك يا صولا.

استمرت المرأة تنظر إلى الحاكم نظرات حادة ومرعبة، واستمر الحاكم يستشعر خطرًا لا يعرف مصدره؛ فقد رأى جثته مرمية أمام كلاب مسعورة، ورأى نفسه مصلوبًا على عمود، والجوارح تنقر عينيه، وتنهش لحم وجهه ورأسه! لم يستطع سحْب نظره الذي التصق بالسيدة جيزيا، التي بدأت تزيل ثوبها الغريب المُكَوّن من خِرَق بالية، ولحاء شجر، وقطع منسوجة من الحَلْفاء.. بدا جسد المرأة منكمشًا، وكثير التجاعيد، ولكنه جسد مكتمل الأنوثة، وبأثداء مكتنزة، وحلمات نافرة. وضعت السيدة جيزيا ثيابها الثقيلة فوق الأرض، ثم وقفت فوقها. قامت بطقوس عجيبة. وفجأة تطايرت شرارات نارية قليلة كانت كافية لكي تشعل النار في تلك الملابس. انثنت بجسدها في حالة ركوع، وبدأت ترقص بهدوء على ذلك الوضع وسط النار، وتطلق أغنية غريبة، ولكنها أغنية كئيبة؛ أغنية تداعى لها الطوب الباهت الآيِل للسقوط من سُور قريب، وترامت حولها، ميتة، بعض الطيور التي صادف مرورها في السماء. بدت تلك الأغنية، التي تؤديها السيدة جيزيا وسط لهبٍ يحرق جسدها، مزيجًا من ضحك مستهتر، وبكاء يقطِّع القلب، وعويل يشبه بكاء ذئبة عند اكتمال البدر. وكان هذا المزيج الغريب من الأصوات يعطي نبرة مُغْرقة في الحزن والرعب والفرح. وفي الأخير،

شبّت النيران، على نحو مروع، في جسد المرأة، الذي تحول فجأة إلى فحم في أوْج اتّقاده؛ فحم أحمر مشتعل مثل الدم. وحافظت السيدة جيزيا على وضعها الراقص الذي كانت تحرك فيه يديها ورجليها بوتيرة متقاطعة.. إلى أن خَفَتَ صوت غنائها العجيب، وخفتَ معه توهُّج لون الجمر المتقد البرتقالي الأحمر، الذي أصبح- شيئًا فشيئًا- يميل إلى الرمادي. ولما أصبح أسود تمامًا، انقطع صوت السيدة جيزيا، وتساقطت على الأرض مجرد رماد أسود، وكأنها بقايا لريش غراب محروق!

استيقظ الحاكم صولا من ذهوله، وزَعَقَ في جنده:

- هيا، اجمعوا هذا الرماد. ادفنوه بعيدًا.. إنني أتشاءم من رماد شيطاني لامرأة بربرية ملعونة!

لكز جواده مبتعِدًا، ولم يعرف الحاكم صولا- في الواقع- إلى أين يذهب، ولكنه أدرك أن عليه مغادرة ذلك المكان المشؤوم، الذي أدخل في نفسه شكًّا وتوجسًا من كل شيء. ومن شدة انفعاله، وعدم سيطرته على تفكيره، التفت إلى جنده، وخاطبهم بلهجته الصارمة:

- أيّ جندي يبدي خيانة، سيكون مصيره الموت!. هل تفهمون؟

هجرة رجل نبيل

أدرك السيد ماريوس أن الأحداث في مدينة أرتو تتجه نحو الأسوأ، وشعر باستقرار، وهدأ خاطره لاعتقاده أن أنير غادر المدينة

منذ زمن طويل. وفكر بدوره في مغادرة أرتو في أقرب وقت؛ وهكذا أبلغ تيرارا قرارَه، وشرح لها دواعيه، وباع المنزل لأحد الأمناء، ثم باع المخزن الذي يحفظ فيه أنفس أنواع السجاد الذي يتاجر به. وأبلغ متصرّفه الأول عزمه على الرحيل، وأخبر باقي معاونيه أيضًا بتاريخ الرحيل، واستنفر حرسه الخاص الذين يفوق عددهم الخمسين جنديًا متمرِّسًا على القتال، وطلب إليهم تجهيزَ أنفسهم. خرجت قافلة السيد ماريوس الكبيرة، بعد أسبوع، من بوابة المدينة الرئيسة، وكان الحدث استثنائيًا؛ فقد رحل الرجل الذي شهدت أرتو، في فترة إدارته القصيرة للمدينة، ازدهارًا واستقرارًا لم يسبق أن عاشتها، لكن السيد ماريوس أحس فجأة بأنه يفتقد شيئًا مهماً جدًا لم يصحبه ضمن القافلة؛ شيئًا يعادل أو يفوق كل ما يوجد في القافلة من أموال وسجاد نفيس؛ فأرسل، على وجه السرعة، أحد معاونيه إلى بناية الرئيس، وأحضر له الشباك الذي كان قد صنعه أنير كنموذج ذات يوم بعيد. أمسك السيد ماريوس بالشباك، وشمّ من الفور رائحة نسيم ماء بحري مالح ممزوج بأنثى رقيقة وعذبة، ووجد في ذاكرته صورة فتاة باهرة في سحرها وأنوثتها، وبدا له طيف شاب كان دائماً يافعًا وطافحًا بالعنفوان، ولكن الشاب بدا له- هذه المرة- تعيسًا وقاتمًا كظل ذابل. هَمْهَمَ السيد ماريوس بكلام غير مفهوم كثيرًا، ولكنه مملوء بغصّة واضحة، وهو يُسلم الشباك إلى معاونه:

- ضَعْه في مكان آمن. لن أستطيع التفكير في أنه يمكن أن يضيع منك .

بكى حراس أرتو لهجْر السيد ماريوس المدينة.. الحراسُ الذين بدا عليهم الهزال والضعف. وحزن الجند الذين كانوا ثمرة لجهده وحسن تدبيره، وسقطت آخر أوراق الرند الميتة. وبعد يومين من رحيل السيد ماريوس، ضربت المدينة عاصفة غبارية كثيفة، مصحوبة برذاذ دهني، لصق على شبابيك بناية الرئيس التي كانت ملونة ويانعة، فحوَّلتها إلى مجرد شبابيك بلون ترابي غامق لا يمكن تنظيفها. وهاجرت طيور الحمام التي كانت تسكن ثقوب جدران المدينة، ولم يعد أحد يسمع هديلًا طالما جعل أعصاب ساكنة أرتو أكثر هدوءًا واسترخاءً، بعد تشنجات العمل وقسوة الحياة اليومية. وانتشرت الكلاب الضالة في كل الشوارع والأزقة على نحو مريع، وأصبح، بين كل فينة وأخرى، يسقط شخص ميتًا لأسباب غير معروفة، وسَرْعان ما تبيّن أن وباءً ما يسري في المدينة ببطء كَسُمٍّ زعاف ماكر.

أنير في القصر

جلست الأميرة سانيس واجمة في حجرتها؛ فقد مات والدها قبل أكثر من سنة، وكان موته متوقعًا بعد مرضه الأخير الذي ألزمه الفراش، غير أن موت والدتها واري؛ سيدة القصر الأولى، أذهلها، وجعلها تعيش في دوّامة تيهٍ غريبة استمرت طويلًا. وقبل ذلك، كانت قد قامت في صمت بالإشراف على دفن

والدتها في الحديقة، وقد كلفت بالمَهَمّة الحارسين المخلصين المتبقيْن من حرس قصر الحاكم السابق أورليوس سيبيو. لقد كانت السيدة واري تتوقع موت زوجها، وقد بدت يوم جنازته متماسكة ظاهريًا، ولم تكن تعاني علة ولا مرضًا، ولكن الخادمة بيرينة وجدتها ميتة ذات صباح حين أعدّت الفطور، وكانت قد انتبهت إلى عدم استيقاظ سيدتها واري مبكرًا على غير العادة. ولما ذهبت لتستطلع الأمر، وجدتها تعانق اللباس الرئاسي لزوجها بحنان، كصنم لإلهة قديمة، وكانت عيناها مفتوحتين تنظران إلى شيء غير مرئي!

أصيبت الأميرة سانيس بأسى عميق. لم تبْكِ، ولم تسل دموعها على والدها الحاكم أورليوس سيبيو، ولا على والدتها واري، ولكنها كانت حزينة كعصفورة شتوية، ولم تشعر بمرور الأيام من حولها. وظلت متمددة وشاردة في سريرها طول الوقت، ولم تكن تفكر في شيء. واستمرت الخادمة بيرينة تعتني بسيدتها الصغيرة؛ تعِدُّ لها الطعام، وتهيّئ لها الحمام، وتهتمّ بالمنزل، وتقدم الطعام للحارسين، والعلف للجياد في الإسطبل، وكانت المؤونة في المنزل تكفي شهورًا طويلة. وما فتئت بيرينة تشم روائح نتنة تنبعث من وسط المدينة؛ فشعرت بالتشاؤم، وبدا لها أنّ أشياء كثيرة تتغير. وفي تلك الأثناء، تذكرت الأميرة سانيس شيئًا في غاية الأهمية.. أنير.. أين يكون؟ كان قد عزم على فتح ملفّ التلاعبات في أملاك مجلس المدينة ذات يوم بعيد.. ما سبب عدم زيارته لها؟ هل يكون أصيب بمكروه؟ وكيف أنها

لم تتذكّـرْه حتـى تلـك اللحظـة؟! الأمـيرة سـانيس لم تنتبـه إلى الإقامـة الإجباريـة المفروضـة عـلى أسْرتهـا، ولم تُعِرْهـا اهتمامـا، وكانـت تلـك الإقامـة قـد انفرطـت مـن تلقـاء نفسـها بفعـل مغـادرة عـدد كبـير مـن الحـراس لمدينـة أرتـو. نهضـت مـن الفـور. اسـتحمت وَفـق الطقـوس التـي تعـوّدت عليهـا. مسَّـدت جسـدها بالصابـون الأحمـر؛ فتكونـت الرغـوة الكثيفـة حولهـا، ثـم ظهـرت الفقاعـات عـلى جسـدها تباعًـا، لتتلهّـى- بعـد ذلـك- بإطفـاء تلـك الفقاعـات الواحـدة تلـو الأخـرى، وهـي تفكـر في أنـير بهيئتـه التـي رأتـه عليهـا آخِـرَ مـرة، ولكنهـا رأتـه- هـذه المـرة- ملطّخًـا بغلالـة ظـلام قاتـم. ارتـدت ملابسـها، وركبـت جوادهـا الأثـير بعدمـا جهّـزه لهـا أحـد الحارسـين المخلصيْن لآل أورليـوس سـيبيو. سـارت بهـدوء، ولاحظـت الفـوضى العارمـة التـي أضحـت عليهـا المدينـة، والهـزال الـذي أصـاب النـاس القليلـين، الذيـن يجوسـون كالحمقـى في غـير اتجـاه. وحزنـت لمـوت شُـجيرات الرنـد التـي كانـت- في السـابق- جميلـة، وتعطـي عنفوانًـا للمدينـة. سـألت حارسًـا نحيفًـا، يتكـئ عـلى جـذع شـجرة يابسـة، عـن أنـير، وكان هـذا الحـارس قـد عـرَفَ مصـير أنـير مـن خـلال زميـلٍ لـه؛ فأخبرهـا أنـه موجـود في السـجن. شـكرته، وتوجهـت إلى سـجن الجبـل بعدمـا لكـزت الجـواد ليزيـد مـن سرعتـه، ولكنهـا صُدِمَـت حـين رأت كلابًـا ضالّـة وهزيلـة تجثـو في كل مـكان، وتجـوس حـول الحـراس المتهالكـين بوجـوه ذابلـة، مسـندين ظهورهـم إلى جـدار السـجن، والبراغيـث تتقافـز حولهـم. وقفـت سـانيس أمـام الحـرس الذيـن هبّـوا بفضـول، وهـم يشـمون

رائحــة افتقــدوا مثلهــا منــذ وقــت طويــل؛ رائحــة عســل طــري؛ رائحــة ســحرية مدوِّخــة. قالــت الأمــيرة ســانيس بلهجــة واثقــة ومفعمــة بالقــوة:

- أريد تسلّم أنير.

نظــر الحــراس بعضُهــم إلى بعــض مشــدوهين، ولكنهــم وجــدوا أنفســهم، مــن دون وعــي، يُهْرَعــون متســابقين لتلبيــة طلــب ســانيس. أخْــرِجَ جســم أنــير المنهــك الهزيــل مــن الســجن في حالــة غيبوبــة تامــة، وتعــاون حارســان عــلى وضعــه فــوق فــرس، وإيصالــه إلى قــصر الأمــيرة ســانيس. مــلأت القــروح والدمامــل وجــه وجســد أنــير العــاري الهزيــل الممــدد في حــوض المــاء، وقــد اســتمرت عمليــة غســله الحــذرة مــدة ربــع نهــار تقريبًــا. أخرجــوه مــن حــوض الحــمام، ومددتــه الخادمــة بيرينــة وســيدتها الصغــيرة ســانيس عــلى السريــر، وأخــذت بيرينــة تعالــج قروحــه المتعفنــة بصــبر لا ينفــد. وتواصلــت العمليــة طــوال النصــف الأول مــن الليــل، وكانــت الخادمــة قــد هيــأت، قبــل ذلــك، حســاءً خفيفًــا مــن الأعشــاب المقوّيــة المطبوخــة مــع قلــوب ديكــة يافعــة وخــصي تيــوس، وجعلــت أنــير يتجــرع مــن الحســاء في كل وقــت جرعــات لكــي يحافــظ عــلى تماســكه الواهــن ريثــما يســتطيع تنــاول شيء مــن الطعــام في الغــد. وبعــد مواظبــة وخدمــة مخلصــة مــن ســانيس وبيرينــة، بــدأ أنــير يســترجع شــيئًا مــن وعيــه، لكــنّ آلامًــا فظيعــة اســتمرت تحرقــه في كل لحمــه وعظامــه الضامــرة، وكانــت قروحــه لا تــزال في حاجــة إلى وقــت طويــل لكــي

تُعالج، وكان يشعر بدوخة ووهن في المفاصل، وبرغبةٍ في التقيُّؤ. وأخيرًا استطاع أن ينظر إلى سانيس؛ فرأى عينيْها المرسومتين بألوان من عسل وردي فاتر، وشعرَها المنسكب الساكن كحمامة وديعة، ووجهها الأبيض المشرب بحمرة مثل حبة خوخ في نضجها الكامل، وفمها المنفرج عن ابتسامة تشبه الفجر في بزوغه على امتداد صحراء عذراء.. وعرفها. ثم قال لها بصوتٍ أخرجه من جوفه، وكأنه يُخرج معه أحشاءه:

- أحببتك يا سانيس، بإخلاص.

ثم تساءل بعفوية طفل بعد لحظة صمت:

- سانيس، هل طال الصدأ شبابيك بناية الرئيس؟. وهل تلفت حقًا ألوانها الزاهية؟

فاضت عيون سانيس بالدموع، وهي ترى ابتسامة خافتة ترتسم، كضوء شاحب، على وجهه الضامر. وفي الأخير، ارتخى رأسه، وطوّحت به دوخة بدت وكأنها دوخة أبدية.

مشاعر عتيقة

مات عدد كبير من سكان أرتو بسبب الوباء المباغت. وحين أراد الحاكم صولا الهروب من الموت، رفقة أسرته وأملاكه وحراسه ليلًا، بعيدًا عن أعين مَنْ تبقى من السكان، كان يحمل في دمه الوباء الخبيث. وبعد يوم واحد من مغادرة القافلة المدينة، بدا

الحاكم على غير ما يرام. أنزلوه من فوق جواده وسط الخلاء، وهو يلهث كوحيدِ قرن جريح، ثم انصرفوا عنه. اِنفضّت من حوله القافلة خوفًا من انتقال العدوى إلى أفرادها، ومات- في تلك الأثناء- أحد الحارسيْن في منزل سانيس، وظل زميله تاسكي يعاني حمّى شديدة، في الوقت الذي كان يساعد فيه بيرينة في عملية دفن زميله بجوار شجرة رند خضراء في الحديقة. وأحست الخادمة بإجهاد غير عادي، لكن الحارس تاسكي نجا بأعجوبة في النهاية، واعتنى ببيرينة أيامًا طويلة عناية متواصلة إلى أن استعادت عافيتها الكاملة. ونشأت بينهما، خلال ذلك، قصة حب هادئ، وأصبحت- في النهاية- زوجه المخلصة الدائمة..

- تصوري بيرينة.. عشت سنين طويلة من عمري حارسًا هنا، ورأيتك باستمرار، ولكنني كنت أراكِ فقط خادمة في هذا القصر.. لم أرَ بيرينة الجميلة الطافحة بالرقة والعنفوان. أحيانًا نحتاج إلى أن نقترب أكثر من الناس لنكتشف حقيقتهم وجمالهم كاملاً.

ابتسمت بيرينة بهدوء، وهي تشدّ على يد الحارس تاسكي:

- كل إنسان يمتلك مشاعر ترافقه طوال حياته.. لا أنكر أنني أحبَبْتك زمنًا طويلاً.. أحببت صمتك، وأحببت إخلاصك وقوتك... ورغم ذلك، دفنت ذلك الحب في أعماقي.. كنتُ أخالُ أن الحب ممنوع على الخدم.. اعتقدت أنني سأقتل نفسي، وسأقتلك إذا أبديت لك بعضَ حبي.. لكنني الآن أدرك كم من سنين جميلة خسرناها من عُمْرَيْنا، ومضت هاربة منا كريح موسمية سريعة.

مرّر تاسكي يده بحُنُو على شعر بيرينة، وقال وهو ينظر بعيدًا، كما لو أنه في حلم عميق:

- سيكون هناك عمر آخر؛ عمرٌ يجب أن نعيشه بكل الحب الذي نستطيع منحَه لبعضنا وللناس.. كادت مدينة أرتو تموت؛ لأنها مدينة لم تعرف الحب الخالص والصادق.. كل قصص الحب فيها كانت فاشلة.. حب سانيس وأنير لم يكن حبا واقعيًا.. كان أشبه بحلم عبثي، لا يمكنه أن يغير من حقيقة الواقع شيئًا. الحب الذي لا يحرك المحيط من حوله لا يمكنه أبدًا أن يكون حبًا ناجحًا.. حكام أرتو لم يحبّوا مدينتهم؛ فدمروها في النهاية.. هذه هي قصص الحب البليدة التي عرفتها أرتو يا بيرينة.

ضحكت بيرينة بنبرة فاتنة، تشبه ذلك الغناء الذي تترنّم به عادة لمّا تكون منهمكة في إنجاز عمل ما، وقالت:

- لقد آن لحبّنا أن يصنع معجزة.. وستبدأ هذه المعجزة من حديقة وساحة هذا القصر.. سنساعد سانيس لتحب الحياة من جديد، ولتتزوج أنير.

تنهّد تاسكي، تنهيدةً خرجتْ على شكل زفرة حارقة:

- تحدثت قليلاً إلى أنير.. نعم، إنه يبدو في حال جيدة نسبيا. رُغم ذلك، لمسْتُ فراغًا مَهُولًا داخله.. لقد قتلوه يا بيرينة، منذ أمد بعيد.. لقد قتلوه، وقتلوا معه قصة حب مدهشة!. لست أدري لماذا راوَدَني شعور بأنهم قتلوا معه أيضا أحلام شعب البربر كله!

- إنه شاب قوي، ويحب الحياة.. أنير سيعود لنفسه ولسانيس ولأرتو.. وللبربر.

موسيقى ذابلة

وفد على المدينة رجل أعرج غريب. كان يقود بغالًا محملة ببضاعة ثقيلة. استأجر حجرة في خان، وكلف حارس الإسطبل ليحرس له البضاعة، وخرج، متأبطًا كيسًا صغيرًا، يجوب الشوارع والأزقة لغرض في غاية الأهمية. وفي اليوم التالي، وفدت مجموعة صغيرة من الأمازيغ نصَبَت خيامها على الجبل، وأشعلت التنانير، وخبزت خبز الحنطة، وفاحت في المدينة رائحة حياة.. حياة أخرى جديدة، وبمذاق رائق.

بعد مرور أيام أخرى، دبّت حركة محتشِمة في أرتو، وتساقط مطر غزير، وانهمرت سيول جرفت الوسخ والقذارة كلها التي كانت تملأ الأزقة والشوارع. وأشرقت شمس دافئة، رشّت أشعتُها المتوهجة الذهبية بيوتَ المدينة الباهتة. ولازمت سانيس أنير، وواكبت استعادته بعضَ قُواه، إلى أن أصبح قادرا على الاستحمام وتناوُل الطعام بنفسه. أطلت من النافذة في يوم هادئ وبهيج؛ فسمعت زقزقة عصافير، وهديل يمام، ورأت في الحديقة بُرْعُمَ زهرةٍ صغيرةٍ كان قد فجَّر سابقا رَماد قيثارة الموسيقي لوطر الممزوج بالتراب.. وواكبت سانيس نمو ذلك البُرْعُم إلى أن أمسى، في النهاية، زهرة بديعة توزع روائح موسيقى ساحرة في أجواء المدينة كلها.

أدركت سانيس أن أرتو بدأت تتنفس من جديد، وإنْ كان ذلك بصعوبة شديدة، وأنها تحتاج إلى مَنْ ينظف هواءها الفاسد. امتطت جوادها، وخرجت لتستطلع الأحوال داخل المدينة؛ فشاهدت هدوءًا خافتًا يبسط سيطرة حذرة، وعاينت حركة بطيئة تدبّ في الأزقة والشوارع، ومرت بمُحاذاة حدادة العجوز كاجي؛ فوجدت الورشة مغلقة، فسألت تاجرًا يبيع مسحوق ذرة في زاوية الشارع عن العجوز؛ فأخبرها بأن السيد كاجي قضى جرّاء الوباء الغامض الذي ضرب المدينة، وأما الشابان اللذان كانا يشتغلان معه في الورشة فقد هاجرا في حال سيّئة، وأنه لا يعرف مصيرهما. واصلت سانيس تَجْوالها الهادئ في المدينة، وسارت على جوادها كإلهة سماوية مجللة بهالة عجيبة من نور غير مرئي. تأملت حَمَامًا قليلًا متفرقًا يطير فوق الأسطح، وسمعت هديلًا باكيًا هزّ قلبها الرقيق. شعرت ببهجة، وغمرتها حالة أمل تدفقت على روحها كنسمة رقيقة.

وصلت إلى وسط المدينة والسوق الخالي، الذي فقد جُلَّ ملامحه، وماتت مظاهر الحياة فيه، ورأت شجيرات الرند التي كانت- في السابق- خضراء يانعة، لكنها تحولت الآن إلى مجرد شجيرات مشروخة ويابسة. وتذكرت السيد ماريوس، وشعرت حياله بامتنان لم تشعر بمثله من قبل، واعترفت في نفسها بأنه كان رجلًا نبيلًا. وتأملت جدران المدينة المغبّرة المكسوة بلون أسود غامق ظل لاصقًا في الكثير من مبانيها، وأدركت المجهود الجبار الذي ينتظر السكان من أجل إعادة الرونق السابق إلى

مدينتهم. شردَتْ قليلًا، وهي تقود جوادها نحو الدُور التي حالفها الحظ فبقي أهلها على قيد الحياة، ولم يسافر سكانها إلى جهات مختلفة. وأدركت أن أرتو تحتاج إلى قائد جديد؛ قائد مليء بالطموح والحيوية، وتبيّن لها أن هذا القائد لن يكون إلا أنير، بعد أن يستعيد جميع قواه؛ فهو وحده القادر على إعادة المدينة إلى سالف مجدها. وبينما هي شاردة في أفكارها، لفت انتباهها رجل كهل، أغبر الملامح، يمشي مشية عرجاء، وكان يتوجه نحوها مسبوقًا بوهج عجيب ينبعث من داخله كالنور:

- سيدتي، أبحث عن شاب.. إنه صديق رائع اسْمُه أنير.. سيكون في هذه المدينة؛ كما أُبلِغتُ.

- ما اسمك أيها الرجل الطيب؟

- اسمي أفولاي.. أفولاي تاجر الملح.. هل تحتاجون إلى ملح؟. يمكنني أن أساعد.

قادته سانيس بجنبها إلى القصر. كان الكهل يهرول، والعرق ينزّ من جبينه، ويسيل على وجهه المشكل تشكيلًا عجيبًا من تجاعيد كثيفة غزَتْه مبكّرًا، وكان يمسك في يده اليمنى بقوة أيقونة تفوشت، وفي اليد اليسرى خاتَم زهرة الجمر المرصّع بحَجَر من ماس. أخبرته سانيس بأن أنير تجاوز محنة كادت تودي بحياته، ولكنه الآن أفضل حالًا من السابق، ومن المتوقع أن يكون في كامل عافيته بعد أيام قليلة. سارا بهدوء بجَنْب سور بناية الرئيس، ووصلا أخيرًا إلى المخزن السابق للسيد ماريوس، واقتربا من القصر،

وشعرا فجأةً بصمت مرعب يكتنف الحديقة والضيعة وكل المحيط، وهربت العصافير في اتجاه أشجار السرو، وتوقفت النسمات الرطبة التي كانت تهبّ، وغطت سحابة سوداء الشمس على حين غرّة، وخيَّم صمت جنائزي مخيف. لم تجد سانيس الحارس لدى باب المنزل، فاضطرت إلى قيادة جوادها، بعد أن ترجَّلت عنه، وتوجهت به نحو الحديقة حيث الإسطبل.. وكان الرجل الكهل تاجرُ الملح يتبعها بخطوات عرجاء ومُجْهَدة، غير أن وجهه كان يشرق ببهجة ارتسمت مثل ظل هادئ ودائم على محيا طفل بريء.. فجأةً شمّ رائحة شاب يعرفه جيدًا، ثم رأى، كما لو أنه في رؤيا رهيبة، جثة ملفوفة في ثوب أبيض ناصع، ولم يكن يظهر أي شيء من الجسد المسجى على الأرض. تلوَّن وجه السيد أفولاي بكل الألوان القاتمة، واندلعت داخل نفسه عاصفة يأس رجّته رجًّا عنيفًا، وسقطت من يده أيقونة ثفوشت، وتشتت ملح قليل تسرب من ملابسه، وتدحرج على الأرض خاتم من الذهب الخالص مرصّع بحجر ماس، وتذكر مقولة قديمة للمعلم ماسين:

- هذه الفتاة يجب أن تصبح أميرة، وعلى يديْها قد تشرق الشمس على بلاد الأمازيغ.. وقد يدفن في ظلها بطل أمازيغي!

وبعد لحظة صمت رهيبة، ردد أفولاي في نفسه:

- وصلت أيقونة ثفوشت متأخرة، ووصلت كمشة الملح متأخرة، ووصل خاتم زهرة الجمر متأخرًا، في تحديات مصيرية لا ينبغي لأي تأخر أن يحصل!

كتمــت ســانيس، وهــي تقــف بجنــب جثــة أنــير، بجهْــدٍ شــبه مسـتحيل، صرخـةً نبعـت مـن مسـافة انتظـار بعيـد لا حـدّ لـه في أعماقها؛ انتظـار مجهـد سـكن كل شيء فيهـا سـنوات طويلـة.. لقـد رأت الحـارس تاسـكي وزوجـه بيرينـة يحفـران قـبرا لأنـير، بجـوار الزهـرة الذابلـة التـي كانـت قـد تفتحـت ذات يـوم مـن رمـاد الموسـيقي لوطـر.

وصرختُ: ماذا تفعلين؟

وهذه المباهج لي،

وأنت توزعينها من حولك. سأتمسك بحقي الشرعي.

إنها لي ولك، لي ولك معًا،

إنها فرصتنا،

ولن يشاركنا طرف ثالث!

الأمازيغي الخفي

أحست سانيس بوجع حاد، فاستلقت على الفراش. وعندما طال مكوثها في السرير طوال المساء، قلقت عليها بيرينة قلقا شديدًا، وانتابها الفزع؛ فنادتها من وراء الباب:

- سيدتي، هل أنت بخير؟

أخرجت سانيس من جوفها صوتًا واهنًا:

- برينة، تعالْي.. أشعر بشيء غير عادٍ!

استبد الذعر ببرينة طيبةِ القلب، وهُرِعَت إلى مخدع سيدتها:

- سيدتي سانيس، هل كل شيء على ما يرام؟

نزّ قليل من العرق على جبين سانيس، وذبلت سحنتها، وشعرت بغثيان مفاجئ. قالت وهي تجاهد حالة إرهاق متزايدة:

- أنا لست على ما يرام يا بيرينة.. أشعر بحالة غريبة.. شيء ما يتحــرك داخلي!

- ماذا تقصدين سيدتي؟

_ المسي بطني.. قد تجدين تفسيرا لهذه الظاهرة.

وضعت بيرينة يدها على بطن سانيس، وشعرت بانتفاخه، وتأكدت من شيء طالما شكّت فيه كلما مرت من أمامها سانيس ماشية، ولكنها الآن تتأكد. ابتسمت بهدوء، وقالت مخاطبة سيدتها:

- هنيئا لك.. أنت على وشك أن تصبحي أمّا.

استغربت سانيس، وامتزج استغرابها بفرحة تشتتت حولها كغبار من نور:

- ولكن!. ولكن!. هل حقا أنا حُبْلى؟

- نعم سيدتي.. أستطيع ملاحظة أعراض الحمل بسهولة.

نظرت سانيس شاردة إلى سطح مخدعها، وقالت كالحالمة:

- سأسميه أنير...

- ولكن أنير اسم أمازيغي!

- نعم.. هذا صحيح؛ لأن والد الطفل اسمه أنير.

- قد تكون المولودة أنثى سيدتي.

- لا.. لقد زارتني ليلة أمسِ الإلهة فينوس، وأخبرتني أن في

داخلي أمازيغيا جميلا.. لقد اعتقدت أنها تقصد أنير الذي دفنّاه في الحديقة، قبل حوالي شهر، وظل حيا في نفسي دائما.. ولكن الآن يتبين لي أنني أحمل داخلي جنينا أمازيغيا من أنير، الذي وفد من بلدته دريو إلى مستوطنتنا الرومانية منذ سنوات.

فهرست الرواية

التي ترى ---------- 11
الرومانية الحسناء ---------- 15
شهوة السفر ---------- 21
أفولاي والوصية ---------- 35
الرحيل اللاذع ---------- 45
معركة الذئاب وأسطورة سانيس ---------- 63
أفولاي ورائحة الموت ---------- 109
جبل الأمازيغ ---------- 117
أنير في مدينة أرتو ---------- 135
الشباك المزوق ---------- 149
محنة أنير وتواهي ---------- 159
أفولاي والقبر الأبيض ---------- 181
الشباك المعجز ---------- 193
إعجاب وشك قاتل ---------- 207
أفولاي والأسرة الرومانية ---------- 223
قاتل في مخدع أنير ---------- 233
ليلة بالأبيض والأسود ---------- 255
زيارة سيفا والأخيرة ---------- 267
الطريدة والصياد الماهر ---------- 273
تيرينا والبحر ---------- 283
جسدان وبخار حمام ---------- 301
أفولاي وزفرات الحسرة ---------- 329
حريق وحب مهول ---------- 339
الأيقونة الحزينة ---------- 355
الأمازيغي الخفي ---------- 375

كتارا
katara